



كيف تم خلق
عيسى ابن مريم ؟







د. رشيد الجراح

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية. أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com. Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.

Warning : under no circumstances would the website or the Certification Authority guarantee or legitimize any use of registered documents .The authenticity given by this registration is only on the date and time of the registration as well as the existence of the registered documents. This registration would never be a substitute to a legal registration as decided by law, especially regarding patents, brands, RCS, ISBN, rules for competition games, etc.This certificate of registration would never be a substitute to an official affidavit.
Beware ! all use without the author's authorization will be considered an offence and will lead to proceedings. Every modification or copy of this document will lead to proceedings.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

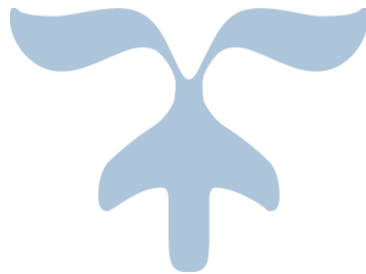
الفهرس



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء الأول

فترة الحمل واصطفاء مريم



الجزء الأول: فترة الحمل واصطفاء مريم

الافتراء الذي قدّمناه سابقاً هو: عيسى بن مريم كان بشراً ولم يكن إنسيا (من الناس).

(انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان **هل فعلاً كذب الشيطان على آدم؟**)

النتيجة المفتراة والخطيرة جداً: لمّا خلق الله الخلق جميعاً وأودعهم في ظهور أبائهم (آدم) ثم تناقلوا بعدها في ظهور آبائهم لم يكن عيسى بن مريم من بينهم (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)**، فعيسى بن مريم لم يكن في ظهر أب له.**

لذا جاء التشابه والمقارنة بين عيسى من جهة وآدم من جهة أخرى:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]

فكان عيسى بن مريم (كما كان آدم) بشراً ولم يصبح يوماً من الناس. وسنحاول أن نبيّن تبعات ذلك على طريقة حياة عيسى بن مريم العملية، خاصة في الطعام والشراب والحياة والوفاة والزواج وغيرها، سائلين الله أن يؤتينا رشدنا، إنه هو السميع العليم.
أما بعد،

نحن نزعم الظن أن عيسى بن مريم لم يمر بمراحل الخلق التي يمر بها الإنسان (مفرد أناسي)، فهو لم يمر بمرحلة النطفة، فالعلقة، فالمضغة، فالعظام، فاللحم، وهكذا. ويصدق ظننا هذا ما جاء في كتاب الله حول خلق الإنسان:

- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل: 4]
- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 2]

فهل - يا ترى- مر خلق عيسى بن مريم بهذه المراحل؟ هل آتى حين من الدهر على عيسى بن مريم كان فيه نطفة؟ وهل أتى حين من الدهر على عيسى بن مريم كان علقه؟

رأينا: إننا نزعم الظن بأن خلق عيسى بن مريم قد مر بمرحلتين فقط:

⇐(1) من تراب
⇐(2) كن فيكون

وهذا بالضبط ما كان عليه خلق آدم الأول:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]

لذا فقد جاء خلق آدم من تراب، فأصبح بشراً:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾ [الحجر: 28]

ولم تدب الحياة فيه إلا بعد أن تمت النفخة فيه:

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: 29]

وهكذا كان خلق عيسى بن مريم، فعندما جاء رسول رب مريم إليها، جاء يحمل ذلك التراب، وما دبت الحياة فيه حتى نفخ في فرجها:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: 19]

وتمت الآلية بطريقة النفخ:

- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: 12]

سؤال: كيف كانت آلية النفخ في فرج مريم؟

جواب: للإجابة على هذا السؤال لابد من التعرض له بالتفصيل الذي يوضح ماهية النفخ من جهة وماهية الفرج من جهة أخرى، لذا نطرح التساؤلين التاليين أولاً:

⇐ ما هو الفرج؟
⇐ وما هو النفخ؟

الفرج

عند استعراضنا السياقات القرآنية التي تتحدث عن الفرج، وجدنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون: 5]
- ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النور: 30]
- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: 31]

- ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ [الأحزاب: 35]
- ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ [ق: 6]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ [المعارج: 29]

فما الذي يمكن أن نستنبطه من خلال هذه السياقات القرآنية حول معنى الفرج؟

جواب: لا شك عندنا أن الفرج هو المكان الذي تتم بواسطته عملية الجماع بين الذكر والأنثى، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ [المعارج: 29-30]

فما هو الشيء الذي يحفظ عن الآخرين (باستثناء الأزواج وما ملكت اليمين)؟

جواب: إنه الفرج، ولكن ما معنى الحفظ؟ أي كيف يحفظ الإنسان فرجه مادام أن الزوج أو ما ملكت اليمين يمكن أن يطّلع عليه؟

فالإنسان عندما يحفظ شيئاً ما، فإنه يبقى دائم المراقبة له، ولا يدع أحداً آخر يقترب منه، فالذي يحافظ على الصلاة يبقى مراقباً لها على الدوام (وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)، والذي يحفظ فرجه لا يدع الآخرين يقتربون منه (وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ)، ولكن السؤال الذي يطرح هل كانت مريم حافظة لفرجها؟

الجواب: لا، لأن هناك من استطاع الاقتراب منه والنفخ فيه؟

كيف إذاً نَصِف مريم بنت عمران؟

جواب: لقد كانت مريم محصنةً لفرجها ولم تكن حافظةً له، مصداقاً لقوله تعالى في موقعين من كتابه الكريم:

- ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ [التحريم: 12]

سؤال: ما الفرق بين حفظ الفرج وإحصان الفرج؟

جواب: ربما يعني حفظ الفرج أن لا تدع الآخرين يقتربون منه إلا بالطريقة المشروعة، فالمرأة التي تكشف فرجها على زوجها، والزوج الذي يكشف فرجه على زوجه أو ما ملكت يمينه، فهو بلا شك حافظ لفرجه حتى لو قام بعملية الجماع، وهذا ما لم تفعله مريم بنت عمران، فهي لم تمس من قبل بشر بالطريقة المشروعة:

- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم: 20]

لذا لا تعتبر مريم بنت عمران حافظة لفرجها. ولكنها كانت – كما ذكرنا سابقاً- محصنة لفرجها. فما معنى أن تكون مريم محصنة لفرجها؟

إننا نعتقد أن المحصنة لفرجها هي صاحبة الفرج الذي لم يطلع عليه أحد سواء كان ذلك بطريقة شرعية أو غير شرعية، فالمرأة المحصنة هي المرأة التي لم يمسها الرجال بعد، وهي التي لازالت محتفظة ببكارتها لم تسمح لأحد بالاقتراب منه بعد، محتفظة به كالشيء الثمين في وقت الحاجة إليه:

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: 48]

فلقد كان القوم الذين مكث فيهم يوسف يحصنون الغلة وهم في أشد العوز إليها بسبب ما سيلحق بهم من قحط في سنينهم المقبلة. لذا كان لابد من أن توضع تلك الغلة في مكان معزول لا يستطيع الآخرون الوصول إليه بسهوله، وهكذا كان حال من يقاتل في قرى محصنة:

- ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: 14]

فليس من السهل اختراق تلك القرى مادام أنها محصّنة، والقرى المحصنة لا تكون كذلك ما لم يكن هناك حواجز طبيعية تصد المعتدين عليها. ولا شك عندنا أن الحاجة ملحة لاستخدام أداة أو وسيلة يتم من خلالها التحصين:

- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 80]

نتيجة: إن هذه التغطية وتلك العوائق (الحواجز) الطبيعية ضرورة ملحة للمرأة لكي تحصن فرجها فلا يستطيع أحد الوصول إليه بسهوله.

- ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 24-25]
- ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: 5]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: 23]
- ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33]

وهكذا كانت مريم ابنت عمران:

- ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

نتيجة التفريق بين حفظ الفرج وإحصان الفرج: لاحظ أن مريم ابنت عمران – حسب زعمنا- لم تحفظ فرجها ولكنها أحصنت فرجها، فالمرأة التي تحفظ فرجها لا يقربها غير زوجها، ولا تنكشف على غيره، فبالرغم أن زوجها – نحن نفتري الظن- يفضّ بكارتها إلا أنها تبقى حافظة لفرجها، لذا فهي لا تقع في الجماع إلا مع زوجها، ولكن الحال بالنسبة لمريم بنت عمران فقد كانت مختلفة تماماً، فهي لم تحفظ فرجها مادام أن شخصا آخر

(بغض النظر عن كينونته) قد اقترب منه (حتى وإن كان رسول من ربها)، لكنها في الوقت ذاته لم تقع في فعل الجماع، فبكارتها لم تفض. فالمرأة التي تحفظ فرجها يمكن أن يكون فعل الدخول بها قد تم.

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: 23]

ولكن المرأة المحصنة فرجها فهي المرأة التي لم يتم الدخول بها بعد.

نتيجة: مادام أن مريم كانت محصنة لفرجها، فلم يتم الدخول بها.

لكن هذه النتيجة تجلب على الفور التساؤل التالي: كيف إذاً تم إيداع عيسى بن مريم في بطنها حتى جاءها المخاض إلى جذع النخلة؟

جواب: لقد تم ذلك بطريقة النفخ (وليس الجماع):

- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

ما معنى النفخ؟

لو راقبنا فعل النفخ في حالة مريم، لوجدنا أنه قد جاء مرة على صيغة (فَنَفَخْنَا فِيهَا) ليعود الضمير على مريم نفسها ومرة أخرى على صيغة (فَنَفَخْنَا فِيهِ) ليعود الضمير على فرجها. لنفهم أن النفخ تم في مريم وفي فرجها. فكيف تم ذلك؟

رأينا: مادام أن الأمر تم بالنفخ (وليس بالدخول)، فنحن نزعم الظن أن ذلك لم يكن ليفض بكارة مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها، فليس هناك نطفة ستوضع في رحمها، وليس هناك علقة ستتكون في بطنها، ولكن النتيجة الحتمية للنفخ هي الحياة مباشرة (كن فيكون).

الدليل

في يوم القيامة سيحصل النفخ بالصور، وستكون النتيجة الحتمية لذلك النفخ أن تدب الحياة في كل المخلوقات:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: 73]
- ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾ [الكهف: 99]
- ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢﴾ [طه: 102]
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: 101]
- ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النمل: 87]
- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس: 51]
- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: 68]
- ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ [ق: 20]
- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾ [الحاقة: 13]
- ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾ [النبأ: 18]

وقد حصل النفخ الأول من قبل الإله نفسه، فدبت الحياة في الخلق الأول (آدم)

- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 29]
- ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة: 9]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: 72]

وحصل مرة أخرى من قبل عيسى بن مريم نفسه، فدبت الحياة فيما نفخ فيه:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]
- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

ونحن نفتري الظن أن ذلك النفخ هو مصدر الحرارة في الجسم:

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]

نتيجة: ما أن تم النفخ في فرج مريم بنت عمران حتى تكوّن عيسى بن مريم مرة واحدة، فكان بشراً حياً (كن فيكون)

- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]
- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]

لهذا نحن نقدم الافتراء التالي الذي هو من عند أنفسنا: مادام أن عيسى بن مريم لم يوضع نطفة في رحم مريم، ومادام أن عيسى بن مريم قد وضع في بطن مريم بطريقة النفخ، لذا نحن نفتري القول أن مريم لم تحمل عيسى بن مريم في بطنها فترة الحمل الطبيعي (تسعة أشهر).

وهذا الافتراء يطرح على الفور تساؤلين مهمين وهما:

- أين الدليل على أن مريم لم تحمل عيسى في بطنها تسعة أشهر (كما تفعل نساء العالمين)
- لماذا لم تحمل مريم في بطنها فترة الحمل الطبيعي؟

فترة حمل مريم بالمسيح: كم طول الفترة الزمنية التي حملت مريم المسيح في بطنها؟

دعنا نتدبر القصة كما جاءت في سورة مريم من كتاب الله:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 16-23]

نحن نعلم أن مكان تواجد مريم الطبيعي هو المحراب، فكان هو المكان الذي كانت تأكل فيه:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

وكان المحراب هو المكان الذي تقيم به شعائر العبادة مع الآخرين:

- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]

وهنا ننبري لنطرح السؤال التالي: لو تدبرنا السياق القرآني الذي يتحدث عن حمل مريم بالمسيح في سورة مريم لوجدنا أنها اتخذت من دون الآخرين حجاباً:

- ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: 17]

فلماذا – نحن نسأل- اتخذت من دونهم حجاباً؟ وأين هو زكريا الذي كان يدخل عليها المحراب؟

لاشك أن الحجاب هو مكان خلوة (أو مكان خصوصية مريم) يختلف عن المحراب الذي كان يدخل عليها زكريا وهي قائمة فيه، فالملائكة نادت زكريا نفسه وهو قائم يصلي في المحراب:

- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

نتيجة: المحراب كان مكان عبادتها وطعامها، بينما الحجاب كان مكان خلوتها بنفسها، فحتى زكريا نفسه لا يدخل على مريم إذا ما كانت وراء ذلك الحجاب، وهناك بالضبط جاءها رسول ربها ليهب لها غلاماً زكيا.

- ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: 17]

وما أن تحمل مريم بما نفخ فيها من روح الله حتى تفضل أن تبتعد عن أهلها لتتخذ مكاناً قصياً:

- ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: 22]

أي لقد ابتعدت مريم منذ اللحظة الأولى التي حملت فيه كلمة ربها وروح منه (المسيح) عن ذلك المكان الذي نشأت به، والآن لنطرح تساؤلنا على النحو التالي:

لو افترضنا أن مريم (كما النساء الأخريات) قد حملت المسيح في بطنها مدة تسعة أشهر، فهل يعقل أن تكون مريم لبثت بعيداً عن أهلها كل تلك الفترة من الزمن ثم لا نجد (ولو إشارة بسيطة) أن قومها يجدون في البحث عنها؟ فهل يعقل – يا سادة- أن يسكت زكريا على غياب مريم فترة تسعة أشهر كاملة ولا يخرج باحثاً (أو حتى سائلاً) عنها؟!

ثم، ها هي مريم تضع مولودها عند جذع النخلة:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]

فيطلب منها أن تحمله لتعود به إلى قومها:

- ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

ولو راقبنا حركة مريم من وإلى قومها، لربما استطعنا أن نستنبط أن المسافة لم تكن تتجاوز مسيرة يوم أو بعض يوم، ويمكن التدليل على ذلك من الأمر الذي جاءها بأن لا تكلم اليوم إنسيا:

- ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

فالخطاب جاء لمريم وهي عند جذع النخلة (مكان المخاض) بأن لا تكلم اليوم إنسياً. إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من استنباط هنا هو أن المسافة التي ابتعدت فيها مريم عن قومها لم تكن تتجاوز مسيرة جزء من يوم، وذلك لأنها ستقفل عائدة إلى قومها، تحمل ابنها، وسيحصل الحوار بينها وبين قومها في اليوم نفسه:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]

فمريم قد وصلت مكان سكن قومها في نفس اليوم الذي جاءها الخطاب فيه عند جذع النخلة، وهنا نتوقف لنطرح السؤال التالي: هل يمكن أن تغيب مريم عن الأنظار فترة تسعة أشهر كاملة وهي لم تبتعد عن قومها أكثر من مسيرة جزء من يوم؟ هل يعقل أن لا يكون خبر مريم قد وصل قومها وهي التي لم تبتعد عنهم أكثر من مسافة تقطعها من تحمل ابنها وتمشي على قدميها في يوم واحد؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد حصلت قصة حمل مريم بالمسيح في ليلتين فقط، ولكن كيف؟

⇐ في الليلة الأولى حيث كانت مريم متخذة الحجاب عن قومها جاءها رسول ربها فنفخ فيها فحملت بالمسيح عيسى بن مريم.

⇐ في الصباح الباكر (اليوم الأول) خرجت مريم إلى مكان قصياً من أهلها قبل أن يستطلع زكريا خبر مريم

في المحراب:

- ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢﴾ [مريم: 22]

وسنحاول في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب تحديد "المكان القصي" الذي وصلته مريم في رحلتها تلك على الخريطة بحول الله وتوفيقه.

⇐ وما أن وصلت إلى جذع النخلة (فالمسافة بينها وبين قومها لن تزيد عن مسيرة بعض يوم) حتى جاءها المخاض إلى جذع النخلة، وقد حلّ عليها الظلام، فوضعت هناك ابنها المسيح عيسى بن مريم، وقد أصابها الجوع بسبب السفر والمخاض، فطلب منها أن تهز إليها بجذع النخلة لتأكل ولتشرب من الماء

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]
- ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: 26]

قضت مريم ليلتها في تلك الربوة، وقد حاولنا استنباط هذا الأمر من الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم: 24]

وزعمنا الفهم أن "السري" هو حارس الليل، فالذي كان تحت مريم هو من يحرسها في تلك الليل، ويمكن التدليل على هذا الزعم مما يمكن استنباطه من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

فنحن نعلم أن الرسول محمد قد أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ففعل الانتقال في جنح الظلام هنا هو "أسري". وها هو لوط يؤمر بأن يسر بأهله بقطع من الليل:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود: 81]
- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥﴾ [الحجر: 65]

لذا نحن نزعم الفهم أن معنى سريا في الآية التي تتحدث عن ما تحت مريم هو "الحارس الليلي":

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم: 24]

وقد كان ذلك السري هو من يقوم على حراسة مريم في تلك الليلة، لما لحق بها من الخوف، فارتقت هي إلى مكان مرتفع، فكانت الربوة (أي الجنة وارفة الخيرات):

- ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البقرة: 265]

وكان ذلك بعد أن أنهت وضع المسيح، فانتقلت بنفسها وبطفلها إلى ذلك المكان المرتفع (الربوة):

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

فكان "السري" متواجد في أسفل الربوة، وهو الذي ناداها ليطمئنها بأن لا تحزن لأن الله قد وكله بمهمة حراستها وابنها في تلك الليلة:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم: 24]

(وسنحاول في الأجزاء القادمة من هذا الكتاب تحديد هوية هذا السري ومكان تواجده إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

نتيجة مفتراة: لقد حصل أن حملت مريم بالمسيح في الليلة الأولى، فخرجت من ديار قومها في الصباح الباكر قبل أن يستطلع خبر حملها، فانتقلت إلى مكان قصي من ديار قومها، فوضعت المسيح في الليلة الثانية، وباتت ليلتها يحرسها وابنها سرياً من تحتها وكّل بهذه المهمة من ربها، وحملت طفلها وأتت به قومها في نهار اليوم الثاني.

أما بالنسبة للسؤال الثاني (لماذا لم تحمل مريم في بطنها فترة الحمل الطبيعي؟) فإن الإجابة عليه يتطلب منا العودة مباشرة إلى قصة مريم الأولى، وإلى سؤال أكثر أهمية – في نظرنا- من سابقة وهو: لماذا مريم على وجه التحديد؟ أي لماذا كانت مريم بنت عمران هي المؤهلة فقط من بين نساء العالمين أن تحمل عيسى بن مريم؟ فما الذي يميز مريم عن بقية نساء العالمين؟

جواب: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال ربما تكمن في القراءة الصحيحة للآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران: 42]

لذا نحن بحاجة للخوض في هذه معاني ومدلولات مفردات هذه الآية الكريمة علنا نخرج – إن أذن الله لنا بشيء من علمه- باستنباطات تسعفنا في فهم حقيقة عيسى بن مريم وأمه.

سائلين الله أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه، ليعلمنا قول الحق فلا نفتري عليه الكذب، إنه نعم المجيب.

أما بعد،

لو تدبرنا الآية الكريمة السابقة جيداً لوجدنا أن مفردة " ٱصۡطَفَىٰكِ " على وجه التحديد قد وردت في هذه الآية الكريمة مرتين، فجاءت مرة سابقة لمفردة "و وَطَهَّرَكِ " وجاءت مرة أخرى تابعة لها.

السؤال: لماذا تم اصطفاء مريم مرتين وليس مرة واحدة؟

يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ

الاصطفاء

ما معنى الاصطفاء في النص القرآني؟

نحن نزعم الظن أن الاصطفاء هو "اختيار ولكن مع التفضيل"، لذا لابد أولاً من التفريق بين مفردتين متقاربتين في المعنى وردتا في النص القراني وهما الاصطفاء والاختيار:

- ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم الظن أن الاختيار لا يعني الأفضلية (أو الخيرية)، فعندما اختار موسى سبعين رجلاً فهذا لا يعني أنهم هم الأفضل من الناحية الإيمانية (الخيرية)، فقد يكونوا هم الأحق، وقد يكونوا هم الأقدر والأجدر بالمهمة، وقد يكون هم الأكفأ، ولكن ذلك لا يعني أنهم هم الأفضل إيمانياً. وبهذا المنطق ربما يمكننا أن نفهم قول الحق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: 68]

فعندما اختار الله بني إسرائيل على علم على العالمين لم يكن ذلك الاختيار لأنهم هم الأفضل (أي لخيريتهم):

- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ٣٢﴾ [الدخان: 30-32]

فلو كان الاختيار يحوي في ثناياه الخيرية (الأفضلية) لما كان هناك حاجة أن نجد في كتاب الله آيات مثل:

- ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47]
- ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: 122]

لأن الخيرية (الأفضلية) تصبح جزءاً من الاختيار نفسه، وهذا – نحن نزعم الظن- ما يميز الاختيار عن الاصطفاء الذي سنتعرض لسياقاته بعد قليل. لذا نحن نفهم أنه عندما اختار الله بني إسرائيل على العالمين لم يكن ذلك لأفضليتهم على العالمين، وإلا لجاء اللفظ على نحو أن الله قد اصطفاهم على العالمين وليس اختارهم على العالمين. فتفضيل الله لبني إسرائيل – نحن نزعم القول- جاء لاحقاً للاختيار وليس سابقاً له. وهذا يعني بكلمات بسيطة أن بني إسرائيل قد فعلوا شيئاً (والله على علم به) استحقوا بسببه أن يفضلهم الله على العالمين. وهذا الافتراض ينسف جملة وتفصيلاً نظرية أن عرق بني إسرائيل (من خرجوا من أرض مصر مع موسى) لهم الأفضلية على العالمين، وذلك لأن تفضيلهم – نحن نزعم القول- كان بسبب عمل قاموا به (وهذا ما سنتناوله بالتفصيل بحول الله وتوفيقه عند الحديث عن قصة موسى في مقالات منفصلة)، ولو كانت خيريتهم (أفضليتهم) سابقة لاختيارهم لجاء اللفظ على نحو أن الله اصطفاهم على علم على العالمين، ويكفي هنا أن نشير أن بني إسرائيل قد فضلوا على العالمين وفي الوقت ذاته فقد جعل الله الذين اعتدوا منهم في السبت قردة وخنازير)، فالتفضيل لا يكون وراثة ولكنه فعل مكتسب، ولكن الاصطفاء – بالمقابل- يحمل في ثناياه التفضيل الأزلي (أي الخيرية):

- ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: 130]

- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]
- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة: 247]
- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]
- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: 42]
- ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ [النمل: 59]
- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]

لذا لا نجد في كتاب الله أن الله يؤكد في مكان آخر من كتابه الكريم أن هؤلاء الذين اصطفاهم هم الأفضل، وذلك لأن فعل الاصطفاء نفسه لا يتم إلا لمن هو في الأساس يملك الخيرية، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ [الزمر: 4]

فلو أراد الله أن يصطفي ولداً، لكان بلا شك قد اختار الأفضل، ولن يكون ذلك اختياراً وإنما اصطفاءً (لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ)، والخيرية المتجذّرة في فعل الاصطفاء واضحة تماماً في السياق القرآني التالي

- ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 153]

وبمثل هذا الفهم يمكن أن نفسر الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ [طه: 11-13]

فلو توقف النص القرآني عند هذه الآية الكريمة فقط بحق تكليف موسى، لربما فهمنا أن موسى لم يكن الأفضل، ولكن جاء سياق قرآني آخر يبرز الأفضلية في سبب تكليف موسى (كما كان رسل الله كلهم):

- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 144]

لماذا جاء اللفظ بخصوص موسى على نحو اختيار(وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ) واصطفاء (قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ)؟ هذا ما سنتعرض له عند الحديث عن موسى في مقالات مستقلة بحول الله وتوفيقه.

نعود بمثل هذا الفهم إلى الآية الكريمة الخاصة باصطفاء مريم مرتين:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

فلقد تم اصطفاء مريم لخيريتها مرتين، لذا تكرر اللفظ مرتين، فكان الاصطفاء الأول الذي سبق فعل الطهارة (أو بكلمات أخرى كانت الطهارة نتيجة لفعل الاصطفاء الأول اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ) وكان الاصطفاء الثاني الذي كان هو نفسه نتيجة لفعل الطهارة وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ ، ولكن كيف؟

الاصطفاء الأول:

نحن نفتري القول أن اصطفاء مريم الأول كان يوم أن تقبلها ربها بسبب دعاء والدتها امرأت عمران:

- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 35-37]

فعندما نذرت امرأت عمران ما بطنها محرراً لربها، كان الرد الإلهي المباشر هو قبول ذلك المولود (وإن كان أنثى)، فكان ذلك هو الاصطفاء الأول لمريم، فكانت خيرية مريم سبباً في اصطفاءها وكانت طهارتها نتيجة لذلك الاصطفاء.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الطهارة التي تحصلت لمريم كانت نتيجة حتمية لذلك الاصطفاء الأول، ولكن كيف؟

جواب: دعنا ندقق النظر في السياق القرآني نفسه الذي وردت فيه قصة اصطفاء مريم على نساء العالمين، فقد جاء قول الحق مكملاً السياق السابق على النحو التالي:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

ولو أمعنا النظر جيداً في هذا النص لوجدنا أن القبول لمريم كان من الله مباشرة، وكانت نتيجة ذلك القبول الإلهي أمران اثنان وهما:

⇐ أن أنبتها الله نباتاً حسناً (وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)

⇐ كفالة زكريا لها (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

فما معنى أن ينبتها الله نباتاً حسناً؟

جواب: نحن نفتري الظن أن مريم قد نبتت نبتاً، ولم تكبر كما الحال بالنسبة لبقية البشر، ولكن لماذا؟

رأينا: نحن نظن أنه لكي ينبت الشيء نباتاً، فلابد أن ينزل عليه الماء من السماء:

- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: 9]

لذا نحن نظن أن الله قد أنزل على مريم ماء مباركاً من السماء، فنبتت مريم كما ينبت الزرع من الأرض. ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا 1: نحن نفتري القول أن مريم لم تكن لترضع من ثدي أمها لأن الله قد أنزل عليها ماء مباركا من السماء. فبقيت تشرب من ذلك طيلة فترة رضاعتها، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، فلما كانت مريم لا تحتاج أن ترضع من ثدي أمها، انتقلت كفالتها منذ ذلك الوقت إلى زكريا.

افتراء من عند أنفسنا2: نحن نفتري القول أنه ما كانت كفالة مريم ستنتقل إلى زكريا وأمها حيّة ترزق، لذا نحن نزعم القول أن الذين ألقوا أقلامهم ليكفلوا مريم ما كانوا ليتخاصموا في كفالتها إلا لأن أمها كانت قد انتقلت إلى ربها، وأصبحت مريم يتيمة لا تجد من يرعاها من أهل بيتها:

- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]

لذا انتقلت كفالة مريم –نحن نزعم القول- إلى الغرباء لأن أولياء مريم كانوا غير موجودين. وقد تحدثنا عن معنى الكفالة في مقالات سابقة لنا عندما حاولنا تشخيص من هو ذو الكفل النبي، وخلصنا أن الكفالة لا تكون للقريب (لأن القريب يكون ولياً وليس كفيلاً)، ولندقق في استنباط ذلك من آية الدين:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

ويمكن استنباط ذلك من آية القصاص:

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝٣٣﴾ [الإسراء: 33]

وها هو زكريا نفسه يطلب من ربه الذرية على نحو أنه وليا:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]

لكن – بالمقابل- تكون الكفالة لشخص غريب (أو على الأقل ليس ممن لهم حق الولاية).

(للتفصيل انظر سلسة مقالتنا تحت عنوان لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟)

نتيجة مفتراة: لما ماتت أم مريم بعد أن وضعت مريم، أنزل الله على مريم ماء طهوراً من السماء يسد عن الرضاعة الطبيعية، واختصم القوم في كفالتها:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]

وكانت الخصومة في كفالتها لأن القوم لم يكونوا ممن لهم حق الولاية على مريم، فلو كان من بين القوم من له حق الولاية على مريم لما دبت الخصومة بينهم، ولأصبحت مريم من نصيب الأقرب إليها في النسب (أي الولي)، ولكن لما لم يكن المتخاصمون ممن لهم حق الولاية على مريم دبت الخصومة بينهم أيهم يكفل مريم، فكانوا بحاجة أن يسووا ذلك الخلاف بينهم بطريقة ترضي الجميع، فالكل يرغب في كفالة تلك الطفلة التي لا يمكن أن تكون طفلة عادية كغيرها من الأطفال، فهي من أهل بيت عمران (وهو ما سنتعرض له لاحقاً بحول الله وتوفيقه) وهي من تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً، وهي من أنبتها الله نباتاً حسناً حتى قبل أن يكفلها زكريا:

- ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ... ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

فإنبات مريم نباتاً حسناً كان سابقاً لكفالة زكريا لها، ونحن نظن أن الشيء عندما يكون حسنا فإنه – بلا شك- يكون خالي مما يشوبه، فلم يكن في جسم مريم حتى اللحظة ما يمكن أن يشوبها، فالله نفسه هو من أنباتها نباتاً حسناً.

فكيف تم حسم الخلاف حول كفالة مريم؟

جواب: بإلقاء الأقلام

- ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ... ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]

ولكن كيف تم ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن القلم هو الذي يكتب شريطة أن يكون هناك ما يمده:

- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]

نتيجة 1: لقد كان المتخاصمون في كفالة مريم يحملون أقلامهم

نتيجة 2: كانت أقلامهم ممتلئة بالمداد (السائل الذي يترك الأثر عند الكتابة بالقلم)

ونحن نزعم الظن أنه القلم في النص القرآني هو الذي يكتب (أي يسطر متى خرج المداد منه)، فالذي يكتب بالقلم يقوم بفعل التسطير:

- ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: 1]

والشخص الذي يكتب بالقلم يكون هو الذي يخط باليمين:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: 48]

نتيجة 3: القلم يحمل باليمين متى أردت أن تخط به شيئاً

نتيجة 4: لو راقبنا ما حصل في حالة مريم فإننا لا نجد أن المتخاصمون قد سطروا الكتابة بالقلم، فليس هناك في حالة مريم فعل تسطير بالقلم.

نتيجة 5: ولا نجد أنهم قد خطوا ذلك بأيمانهم، فالمتخاصمون لم يخطوا بأيمانهم شيئاً ولكن جل الذي فعلوه هو أنه ألقوا أقلامهم.

تساؤلات: كيف تم إلقاء الأقلام؟ وما الذي حصل عندما ألقوا أقلامهم؟

رأينا: دعنا نتذكر فعل الإلقاء من قصة موسى مع السحرة، ففي حين أن السحرة قد ألقوا حبالهم وعصيهم، قام موسى بإلقاء عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون، ربما لهذا نحن نتخيل فعل الإلقاء على نحو أن ترمي بشيء من يدك على الأرض (كما هي الحال بالنسبة لموسى وهو يلقي عصاه أو عندما ألقى الألواح). وبمثل هذه الآلية – نحن نفتري القول- حسم الخلاف بين المتخاصمين على كفالة مريم، فلقد ألقوا الأقلام، فكانت الكفالة من نصيب زكريا، ولكن كيف تم ذلك؟

نحن نتخيل المشهد على النحو التالي: كان المتخاصمون على كفالة مريم من أصحاب الأقلام (أهل العلم من بني إسرائيل)، وكانوا يحملون أقلامهم بأيمانهم، ولما دب الخصام بينهم على كفالة مريم اتفقوا على

آلية فض الخلاف على نحو أن يلقوا أقلامهم من أيديهم على الأرض مرة واحدة، ولما كانت الأقلام معبأة بالمداد، كان الاتفاق على أن القلم الذي يترك مداده العلامة هو من يكون لصاحبه حق كفالة مريم، وتركوا الأمر لله أن يحسم أمر الخلاف بينهم وهم على علم بالسنة الإلهية التالية:

- ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 3-5]

فالله الذي علم بالقلم هو من جعل مريم من نصيب زكريا صاحب القلم الذي علم، لذا نقرأ الآية الكريمة الخاصة بكفالة مريم بالدقة المطلوبة لنجد بما لا يدع مجالاً للشك أن الله الذي علّم بالقلم هو من كفّل مريم لزكريا:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

(وسنتعرض لهذا الأمر بتفصيل أكثر لاحقاً إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

إن ما يهمنا في الوقت الراهن هو القول أنه ما أن كانت مريم من نصيب واحد من أولئك المتخاصمين (وهو زكريا)، حتى أخذها ووضعها في المحراب، وهنا كانت المفاجئة الكبرى لزكريا (والجائزة العظيمة لكفالته تلك):

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

افتراء من عند أنفسنا: مريم لم تأكل من طعام البشر طوال كفالة زكريا لها، لأنها ما أن أصبحت بحاجة إلى الطعام (أي أنهت فترة الرضاعة من الماء الطهور) حتى كانت مائدتها في المحراب على الدوام مليئة برزق من عند الله:

- ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

ونحن نزعم الفهم أن الرزق هو ما يأكله الإنسان بينما الطعام هو ما يمكن أن يأكل منه الإنسان، وبكلمات أخرى يكن أن نقول أن المتوافر في السوق من الأكل هو طعام، بينما ما تشتريه أنت من ذلك الطعام لتأكله بنفسك يصبح رزقاً، وهذا واضح في قصة أصحاب الكهف، فهم قد بعثوا أحدهم إلى السوق لينظر في أزكى الطعام المتواجد في السوق، ولكن الذي سيجلبه لهم إلى كهفهم ليأكلوا منه سيصبح رزقاً لهم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف: 19]

لذا نحن نفتري القول أن جسم مريم لم يدخله شراب من شراب أهل الأرض ولم يدخله طعام من طعام أهل الأرض، فالله هو الذي أسقاها ماء طهوراً من السماء (فنبتت نباتاً حسناً كما الشجرة)، والله هو الذي

أطعمها رزقا من عنده. فكانت النتيجة أن نبت جسم مريم نباتاً حسناً (أي لم تدخله شائبة تعكر طهارته). وهنا جاء قول الحق بتطهير مريم بعد الاصطفاء الأول:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

فكيف كانت طهارة مريم؟ وما معنى أن تكون مريم مطهرة؟

رأينا: نحن نظن أن الذي يمسه الطهارة في الأرض يكون متطهراً (جمع: مُطَّهِّرِينَ)

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]
- ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: 108]

وأما الذي تمسه طهارة السماء فيكون مطهراً (جمع: مُطَهَّرُونَ)

- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: 25]
- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: 57]
- ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: 79]
- ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: 14]
- ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: 2]

افتراء من عند أنفسنا: لما كان الله قد طهّر مريم كواحدة من نساء العالمين، لم يكن – نحن نفتري القول- ليصيب مريم ما يصيب النساء من المحيض:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

ولما أصبحت مريم مطهرة (لا يصيبها الأذى الذي يمكن أن يصيب النساء جراء المحيض) كانت مريم جاهزة على الدوام لتقوم بأعمال العبادة وأهمها الصلاة:

- ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: 43]

فلو كان المحيض (الأذى) يصيب مريم، لما كان مكانها المحراب، ولما كانت جاهزة على الدوام لأن تقوم بتلك الأعمال كالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين، فلا أظن أن المرأة متى حاضت اصطفت للصلاة لتركع مع الراكعين، أليس كذلك؟

أفتراء من عند أنفسنا: لقد كانت طهارة مريم الجسدية تلك سبباً أن تكون هي المؤهلة (من دون نساء العالمين جميعاً) لأن تحمل بالمسيح عيسى بن مريم، فكان الاصطفاء الثاني لمريم:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [آل عمران: 42]

الاصطفاء الثاني

أما الدليل الآخر الذي سنسوقه لإثبات صحة ما نزعم هنا فيأتي مما حصل مع مريم لحظة أن خرج عيسى من بطنها. لذا سنقفز مباشرة إلى تلك الجزئية لننهي بها هذا الجزء من الكتاب والذي يتحدث عن عيسى بن مريم على أن نعود إلى تفاصيل حياة مريم في المحراب في الأجزاء القادمة بحول الله وتوفيقه، لكن الذي يهمنا هنا هو طهارة مريم بنت عمران التي زعمنا أنها نبعت من حقيقة أن مريم لم تشرب من ما يشرب منه أهل الأرض ولم تأكل من ما يأكل منه أهل الأرض، فالله هو الذي أسقاها من السماء ماء طهورا فأنبتها نباتاً حسنا، والله هو من أنزل عليها رزقاً من عنده، فكانت مريم تأكل وتشرب من طعام وشراب أهل السماء، فكانت مطهرة (ولم تكن متطهرة) لأنها لم تكن بسبب تلك النعمة الإلهية تعاني مما تعاني منه نساء العالمين من أذى المحيض، فكانت على الدوام جاهزة لأن تقوم بالعبادة في المحراب.

ولكن ما أن وضعت مريم بنت عمران مولودها حتى جاء الخطاب الإلهي لها على النحو التالي:

- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝﴾ [مريم: 25]

وهنا لا نتوقف عن طرح السؤال الأكثر إحراجاً لعلمائنا الأجلاء وهو: لماذا أمرها الله تعالى أن تهز إليها بجذع النخلة لتساقط عليها رطباً جنياً لتأكل منه في تلك اللحظة؟ لم لم يستمر –نحن فقط نسأل- الكرم الإلهي على مريم بإحظار الرزق لها من عند الله؟ ألم تكن مريم في تلك اللحظة على وجه الخصوص بأمس الحاجة إلى من يطعمها ويسقيها؟ لم كان الرزق نازلاً عليها من السماء يوم أن كانت شابة قوية البنية بكامل صحتها وهي في المحراب؟ ولم توقف الرزق عنها لحظة أن وضعت عيسى بن مريم؟

الرأي السائد عند معظم أهل العلم: لقد حبرت صفحات في مؤلفات علمائنا الأجلاء وتعالت حناجر خطبائنا الكرام على المنابر محدّثة الناس بالعبر والدروس المستفادة من هذه القصة، والتي تتمثل في مجملها بالحاجة إلى الاعتماد على النفس في جني الرزق، فهم يرددون فهمهم للقصة على نحو أن الله طلب من مريم أن تهز بجذع النخلة ليعلمنا نحن ألأخذ بالأسباب حتى في أشد أوقات الحاجة، أليس هذا هو خطاب علمائنا ومشايخنا الأجلاء؟!

تساؤلات فقط: لكن، ألا ترون - يا سادة- أن الله كان قد أطعم مريم وسقاها من عنده طوال حياتها في المحراب؟ لِمَ لَم يلقننا دروس الاعتماد على النفس التي يتحدث عنها مشايخنا هناك؟ هل جاء وقت الاعتماد

على النفس في وقت المخاض فقط؟ وماذا عن الأوقات السابقة؟ ثم ألم يكن بمقدور المنعم –نحن نسأل- أن ينزل على مريم ذلك الرزق في تلك اللحظة؟ هل جاء اختبار الاعتماد على النفس هنا فقط؟ ثم متى تكون المرأة في أشد الأوقات بحاجة إلى من يطعمها ويسقيها؟ أليس هو وقت المخاض؟ هل أطعم الله مريم وسقاها برزق من عنده طوال حياتها ثم توقف عن ذلك فقط لحظة المخاض؟!!

رأينا: دعنا – كالعادة- نخالفكم الرأي يا علمائنا الأجلاء لنطرح عليكم رأينا في القضية ثم نترك لكم أنتم المفاضلة بين الحقائق التي جليتموها أنتم للناس والتخاريف التي نسوقها نحن لهم.

أما بعد:

لو تدبرنا السياق القرآني نفسه لوجدنا أن الله يأمر مريم أن تهز إليها بجذع النخلة لتساقط عليها رطباً جنياً، ثم يأمرها أن تأكل هي منه:

- ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

فالآية الكريمة توضح - بما لا يدع مجالاً للشك- أن الأمر الإلهي بالأكل والشرب جاء موجهاً لمريم نفسها، ولم يأتِ أمر رباني لمريم بأن تطعم مولودها (فَكُلِي وَٱشۡرَبِي). فلو كان الأمر الإلهي جاء لمريم بأن تأكل وتطعم (أو حتى ترضع) مولودها، لجاء الخطاب على صيغة المثني (فكلا وشربا). ولكن الأكل والشرب كان خاصاً بمريم فقط، فلماذا؟

رأينا: نحن نفتري الظن أن السبب أن إطعام مريم وسقايتها من رزق من عند الله لم يعد مبرراً بعد أن وضعت المسيح. فلقد كان طعام وشراب مريم ينزل عليها من السماء تحضيراً لها من الناحية الفيزيائية لكي تحمل بمولود كالمسيح عيسى بن مريم (كلمة الله وروح منه). وما أن وضعت مريم ذلك المولود حتى انتفت الحاجة لأن تأكل من رزق ينزل عليها مباشرة من عند ربها.

عودة على بدء:

إن الجسم الذي كان يحضّر ليتحمل النفخ من روح الله لابد أن يكون مطهراً، والجسم الذي كان يهيئ لكي يحمل مخلوقاً كعيسى بن مريم لابد أن يكون مطهراً. ولكن ما أن فرغ ذلك الجسم من القيام بمهمته التي اصطفاه الله له حتى عاد ليأكل من أكل أهل الأرض ويشرب من شرابهم، لذا هنا فقط جاء الأمر الإلهي لمريم بأن تهز إليها من جذع النخلة لتأكل منه، ولتشرب من الماء الذي كان يجري بجانبها:

- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

ولعل مثل هذا الفهم يفسر لنا قصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسى بن مريم، وهو ما سنتناوله بحول الله وتوفيقه في الجزء القادم من هذا الكتاب.

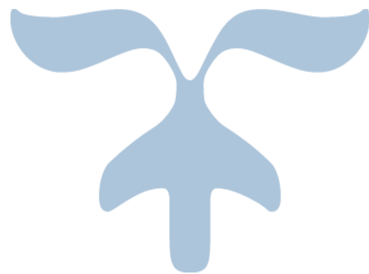
لذا نسأل الله تعالى أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لنا الإحاطة بعلم لم يحط به غيرنا، ونسأله تعالى أن يكون ذلك خالصاً لوجه الكريم، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، إنه نعم المولى ونعم المجيب.



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء الثاني

المائدة والمن والسلوى



الجزء الثاني: المائدة والمنّ والسلوى

الافتراءات السابقة

- ⇐ عيسى بن مريم كان بشراً ولم يكن إنسيا (من الناس).
- ⇐ لمّا خلق الله الخلق جميعاً وأودعهم في ظهور أبائهم (آدم) ثم تناقلوا بعدها في ظهور آبائهم (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)، لم يكن عيسى بن مريم من بينهم، فعيسى بن مريم لم يكن في ظهر أب له.
- ⇐ مريم ابنت عمران لم تكن حافظة لفرجها وإنما كانت محصنة لفرجها
- ⇐ مريم ابنت عمران كانت مطهَّرة ولم تكن متطهرة حتى وضعت المسيح عيسى بن مريم، فهي لم تعاني من أذى المحيض كباقي نساء العالمين، فكان المحراب هو مكان تواجدها، وكانت على الدوام مع الساجدين الراكعين، فكان ذلك تحضيراً لها لأن تحمل المسيح (كلمة الله وروح منه).
- ⇐ ما أن وضعت مريم المسيح حتى أصبحت تستطيع أن تأكل وتشرب مما يأكل منه الناس ويشربون. فكرهت ذلك وتمنت الموت لحظة أن أجاها المخاض إلى جذع النخلة.
- ⇐ لم تحمل مريم بعيسى فترة الحمل الطبيعي وإنما حصل كل ذلك في ليلتين فقط.

أما بعد،

انتهى الجزء الأول من هذا الكتاب عند زعمنا بأنه ما أن فرغت مريم من وضع المسيح من بطنها حتى جاءها الأمر الإلهي بأن تأكل وتشرب مما يأكل منه الناس ويشربون، ولكنها لم تؤمر بأن تطعم أو تسقي المسيح منه شيئاً، فالأمر جاء لها فقط:

- ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

ونحن نزعم الظن أن إطعام المسيح كان يتكفل به رب العالمين كما تكفل بإطعام أمه مريم من ذي قبل. فعيسى بن مريم – نحن نفتري الظن- لم يأكل من طعام البشر العاديين، وذلك لأن خلقه وتركيبه الفيزيائي يختلف عنا نحن بني آدم. ولكن كيف؟

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية لوجدنا فيها – دون شك- ما يستدعي التوقف عنده طويلاً:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

والسؤال الذي نطرحه هنا يتعرض للسبب الذي من أجله جاء مثال عيسى بن مريم وأمه معاً على أنهما كلنا يأكلان، فما هو الطعام الذي كانا يأكلانه؟

جواب: لا شك عندنا أن مريم كان يأتيها رزقها من عند ربها مباشرة، فبالرغم من كفالة زكريا لها إلا أنه لم يقدم لها طعاماً مما كان يأكل منه الناس لأنه كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها ذلك الرزق:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

فمادام أن الطعام الذي كانت تأكله مريم كان يأتيها مباشرة من عند الله، فالسؤال المشروع هو: ماذا كان الطعام الذي كان يأكله ابنها المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا: لقد كان المسيح يأكل مما تأكل منه أمه، وهذا ما يمكن أن نفهمه من أن يجمع المسيح وأمه في آية واحدة تتحدث عن أكل الطعام:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

فنحن نعرف من سياقات قرآنية أخرى أن الرسل الآخرين كانوا يأكلون الطعام:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: 20]
- ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: 7]

ولكن الملفت للنظر في هذه الآيات الكريمة أن أكل الطعام جاء على الدوام مصاحباً للمشي في الأسواق عند الحديث عن الرسل، ولكن عند الحديث عن مريم والمسيح في الآية التي تتحدث عن أكل الطعام خلت تلك الآية من الحديث عن المشي في الأسواق واقتصر الأمر على أكل الطعام:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

وذلك – برأينا- لأن مريم لم تكن تمشي بالأسواق، ولكن الشيء المشترك بين مريم من جهة وابنها من جهة أخرى هو فقط أكل الطعام (وليس المشي في الاسواق)، لذا نحن – نفتري القول- أن مريم وعيسى ابنها كان يتشاركان نفس الطعام الذي كان يأتيهما مباشرة من عند الله.

ثانياً، لو حاولنا التدقيق في صيغة " يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ "، لوجدنا أنه من أجل الحصول على الطعام لابد أن يذهب الإنسان منّا إلى السوق لإحضار طعامه من هناك، فالأكل من طعام الأرض يتطلب المشي في مناكبها:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]

وها هم أهل الكهف يبعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم برزق من هناك:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: 19]

ولكن الأمر في حالة عيسى وأمه كان مختلفاً، فقد كانا يأكلان الطعام دون أن يمشيا في الأسواق كما تصوره الآية الكريمة:

- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

سؤال: فمن أين يا ترى كان يحصلان على الطعام وهم لا يمشون في الأسواق؟ من يدري!!!

ولكن يبقى السؤال الأكثر إثارة هو: ما هو ذلك الطعام؟

افتراء من عند أنفسنا: ربما نستطيع القول أننا يمكن أن نستنبط ماهية ذلك الطعام إن نحن تعرضنا بالتفصيل لقصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسى بن مريم، ولكن كيف؟

المائدة

ربما يعلم الجميع أن نفراً من أتباع المسيح عيسى بن مريم قد طلبوا منه أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وجاء طلبهم على النحو التالي:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ ... ١١٢﴾ [المائدة: 112]

فيأتي رد المسيح عليهم على الفور على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 112]

وهنا يأتي ردهم ليبين دوافعهم التي حملتهم على مثل هذا الطلب على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

فالمدقق في هذا السياق القرآني يجد أن الحواريين قد ساقوا أربعة أسباب دفعتهم على هذا الطلب، والأسباب الأربعة هي:

⇐ نَّأۡكُلَ مِنۡهَا

⇐ وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا

⇐ وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا

⇐ وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ

لذا نحن بحاجة أن نتفكر في هذه الأسباب من وجهة نظر الحواريين (أصحاب الطلب)، وهو ما يدفعنا أن نعيدها على شكل أسئلة على النحو التالي:

السؤال الأول: لماذا يريد الحواريون أن يأكلوا من تلك المائدة؟

نحن نفتري القول بأن الحواريون ما كانوا ليطلبوا تلك المائدة لولا علمهم المسبق بأن المسيح بن مريم يأكل من طعام يأتيه مباشرة من عند ربه، فلا شك عندنا أن الطالب هم الحواريون وهم من كانوا أنصار عيسى بن مريم إلى الله:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]

فالحواريون هم أنصار الله، وهم ليسوا من الذين كفروا، لذا لابد أن نفهم طلبهم ذلك من باب كلام المؤمن الذي يريد الاستزادة من الإيمان وليس من باب الكافر المماطل. فالحواريون هم نفر من بين إسرائيل الذين عاهدوا عيسى بن مريم على نصرة الله، فمتى وردت مفردة الحواريون تلازمت مع نصرة عيسى إلى الله، ونصرتهم الله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]

نتيجة: الحواريون هم الطائفة التي آمنت من بني إسرائيل وعاهدت عيسى على نصرة الله.

إن هذا الظن يدعونا أن ننظر إلى طلب الحواريين بعين المؤمن وليس بعين المريب، وربما يؤكد زعمنا هذا طريقة رد عيسى عليهم:

- ﴿... قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 112]

فعيسى يطلب منهم التقوى ولا يشكك في كفرهم، لذا نحن نفتري القول التالي: لمّا رأى الحواريون (أنصار عيسى إلى الله) أن عيسى لا يأكل مما يأكلون منه، ولمّا رأوا أن عيسى يأكل طعاماً مختلفاً، لا شك أثار ذلك الريبة والتساؤل في أنفسهم، فسألوا عيسى عنه، فما كان من عيسى إلا أن يخبرهم الحقيقة في أن طعامه

يأتيه (كما كان يأتي أمه من قبل) مباشرة من عند ربه، فكان رد عيسى على أن طعامه هو عبارة عن مائدة من السماء، وهنا جاء طلبهم على نحو:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

وهنا نتوقف لنطلب من القارئ الكريم التفكر في سبب ورود مفردة "**عَلَيْنَا**" في هذه الآية الكريمة لنسأل: ألم يكن بالإمكان أن تكون الآية على النحو التالي (دون ورود مفردة علينا):

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ ..... مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

فلماذا جاءت مفردة علينا (على وجه التحديد في هذه الآية) ما دام أن المعنى العام يمكن أن يفهم من دونها؟

رأينا: لأن المائدة كانت أصلاً تنزل على غيرهم، فهم يطلبوا أن تكون هذه المرة عليهم أنفسهم. ولو ربطنا ذلك بوجود مفردة "يستطيع" لتجلى المعنى أكثر فأكثر:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

فلا شك عندنا أنهم على علم بأن الله ينزل المائدة على غيرهم، ولكنهم يتساءلون عن استطاعة رب عيسى (يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) أن ينزل تلك المائدة عليهم على وجه التحديد (يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ).

نتيجة مفتراة: الحواريون يعلمون أن الله ينزل مائدة من السماء على غيرهم (عيسى وأمه)، وهم يسألون نبيهم عن الاستطاعة الربانية في أن ينزل عليهم هم مائدة من السماء.

السؤال الثاني: وكيف ستطمئن قلوبهم إن هم أكلوا منها؟

ولو دققنا أكثر في رد الحواريون لوجدنا أنهم يطلبون ذلك من أجل أن تطمئن قلوبهم:

- ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ... ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

ونحن نفتري القول أن الطمأنينة لا تُطلَب إلا لوجود شك (أو ريبة) في قلب الإنسان، فهذا إبراهيم نفسه يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وذلك ليطمئن قلبه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

لذا نحن نفتري الظن بأن الشك لم يكن ليدخل قلب الحواريين ويريدوا شيئاً يمكن أن يطمئنهم إلاّ لأن شكاً ما حول أمر عظيم قد خالج نفوسهم، فهؤلاء قوم قد آمنوا بربهم، وأخذوا على أنفسهم عهداً بنصرة الله، فما الشك الذي يمكن أن يكون قد وقع في صدورهم بعد أن أخذوا على أنفسهم ذلك العهد؟

جواب: نحن نفتري الظن أنه لمّا رأى الحواريون نبيهم لا يأكل مما يأكلون هم منه، أدخل ذلك الريبة والشك إلى قلوبهم، فسألوه عن سر ذلك، وقد صدقهم عيسى بن مريم عندما أخبرهم أن الله هو من يطعمه مائدة من السماء، وهو الأمر الذي دفعهم على طلب ذلك لأنفسهم.

السؤال الثالث: كيف ستكون تلك المائدة سبباً في أن عيسى قد صَدَقَهم؟

فلو دققنا النظر في السبب الثالث الذي ساقه الحواريون لتبرير طلبهم ذلك لوجدناه على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا .... ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

فما الذي صدقهم عيسى به؟

لاحظ أننا هنا نتحدث عن مفردة صَدَقْتَنَا (بفتح الدال) وليس صدّقتنا (بفتح وتشديد الدال)، فلو تدبرنا السياقات القرآنية لوجدنا أن "صَدَق" تأتي عندما يكون هناك مشكلة في وجود خبر مسبق:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]
- ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل: 27]

لذا نحن نفتري الظن أن خبر المائدة كان قد وصل إلى الحواريين عن طريق عيسى بن مريم نفسه، وهنا ينبري الحواريون إلى طلب الدليل على صدق ذلك الخبر على نحو:

- ﴿.... وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا .... ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

السؤال الرابع: لماذا يريدوا أن يكونوا عليها من الشاهدين؟

- ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

من يكون من الشاهدين قد يكون حاضراً على ما حصل:

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: 44]

وقد يكون من عنده علم:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: 26]

فالمحكمة عادة ما تستند على شهادة نوعين من الناس: (1) من كان حاضراً وقت الجريمة ليروى ما حصل كما راءه بأم عينه و (2) الخبير الذي يستطيع أن يشرح ما حصل لوجود معرفة مسبقة عنده بمثل هذه القضايا. ولكن المهم بالموضوع أن الشهادة لا يمكن أن تُطْلَب إلا لوجود مشكلة تستدعي حسم الخلاف فيها، فلقد تطلب حسم الخلاف في مراودة امرأة العزيز لفتاها شهادة واحد من أهلها.

نتيجة مفتراة: لقد وصل خبر أن عيسى بن مريم وأمه كان يأكلان من المائدة التي تأتيهما مباشرة من عند الله، وقد جاء ذلك الخبر على لسان عيسى نفسه عندما طلب منه القوم تفسيراً عن سبب أنه لا يأكل من طعامهم، فأدخل مثل هذا القول الريبة (أو الشك) في نفوسهم، فأرادوا تدليلاً عملياً على ذلك الأمر، فكان طلبهم على نحو أنه مادام أن الله ينزل عليك وعلى أمك مائدة من السماء، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا نحن مثل تلك المائدة:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

وهنا لم يكن لعيسى بن مريم إلا أن يذعن لطلبهم ويتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينزل عليهم جميعاً (بمن فيهم عيسى نفسه) مائدة من السماء:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: 114]

سؤال: ماذا كانت تلك المائدة؟ أو ما هو الرزق الذي نزل عليهم من السماء يوم أن طلب ذلك عيسى من ربه؟

جواب: المائدة.

سؤال: نعرف أنها مائدة، ولكن ما هي تلك المائدة؟

جواب: البيض (أو مازلنا نعرفه نحن حتى اليوم باسم بيض المائدة)

سؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ هل أنت بكامل قواك العقلية؟ أهذا كل شيء؟

جواب: نعم هو كذلك.

سؤال: وأين الدليل على هذيانك هذا؟

جواب: ربما نستطيع أن نستنبط ذلك من رد عيسى نفسه على طلب الحواريون كما جاء في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: 114]

لو تدبّرنا كلام المسيح عيسى ابن مريم نفسه لوجدنا أنه طلب تلك المائدة لتكون:

⇐ 1.عيداً لأولنا وأخرنا (تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا)

⇐ 2.وآية من الله (وَءَايَةً مِّنكَ)

وهنا لا نتوقف عن الأيمان بأن ما أنزل الله من مائدة على عيسى والحواريين كان عيداً لأولهم وآخرهم و هو لا شك آية من الله للناس جميعاً، ولكن كيف؟

1.البيض: عيد ديني لأتباع عيسى بن مريم

- ﴿.. ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ... ١١٤﴾ [المائدة: 114]

لا شك عندنا أن الموروثات الدينية لا تنقطع بمرور الزمان وإن هي شوهت وأسيء فهمها مع تقلب الليالي والأيام، ونحن نرى أن عيد البيض الذي لا تزال (ربما جميع) طوائف الديانة المسيحية تحتفل به إلى يومنا هذا هو ما تبقى من تلك الحادثة الدينية العظيمة، لقد أنزل الله البيض على عيسى بن مريم والحواريين كمائدة من السماء، فكان ذلك عيداً لهم على مرور السنين، وبقي أتباع تلك الديانة العظيمة يمارسونها في كل عام كعيد من أعيادهم الدينية الكبيرة وإن هم قد نسوا السبب الذي من أجله يحتفلون به. فلو أنت سألت أحداً من أتباع تلك الديانة عن سبب احتفالهم السنوي بعيد البيض، ربما لا تجد الإجابة الشافية عند الكثيرين منهم، والأكثر غرابة من ذلك أن كثير من أتباع الشرائع السماوية الأخرى (كالمسلمين مثلاً) ينظرون إلى تلك الشرائع والطقوس الدينية بعين التندر (وربما السخرية أحياناً) وذلك لعدم معرفتهم بأصلها العقائدي، فهم يظنون أنها من تخاريف الشرائع التي ظلت طريقها. أما نحن فلا نعدم الدليل والإيمان أن ذلك أرث ديني عظيم له جذوره الضاربة في أعماق التاريخ، ولابد من احترامه والبحث عن أصوله الدينية التي كانت مسوّغة له، فمتى عرف الناس تلك الأصول أغلقت أفواه كثير من يرمون بيوت الآخرين بالطوب وبيتوهم كلها من زجاج.

2. البيض: آية من أيات الله للناس جميعاً

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ .. ١١٤﴾ [المائدة: 114]

لقد جاء طلب المسيح من ربه أن تكون تلك المائدة ليس فقط عيدًا لأولهم وآخرهم وإنما هي أيضاً آية من آيات الله التي تدعو إلى التفكّر والتدبّر. ولو تدبرنا قول المسيح لوجدنا أنه لم يطلب تلك الآية لتكون خاصة بهم كما الحال بالنسبة للعيد حيث قال (تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا)، وإنما لتكون آية للناس جميعاً (وَءَايَةٗ مِّنكَ)، فكيف كانت تلك المائدة آية للناس جميعاً؟

جواب: ولو تدبرنا تلك الكينونة (بيض المائدة) لوجدنا فيها العجب العجاب، فهي لا شك أية من آيات قدرة الله غير المحدودة، فكيف به يضع ذلك السائل (المنّ) في ذلك الوعاء محكم الإغلاق، فتنبثق منه الحياة، ويكون في الوقت ذاته طعاماً يأكله الناس بطرق مختلفة.

ولكن الذي يهمنا الآن هو الحادثة الدينية نفسها، لنطرح التساؤل التالي: لماذا طلب بنو إسرائيل على وجه التحديد المائدة؟ لماذا لم يطلبوا نوعاً محدداً من الطعام؟ لماذا لم يطلبوا شيئاً آخر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: غالباً ما فهم الناس أن المائدة تتكون من أصناف متعددة من الطعام وليس فقط صنفاً واحداً، فعندما تقوم سيدة المنزل بتحضير المائدة لعائلتها فهي تقوم بتجهيز أكثر من طبق واحد من الطعام، لكن هل يمكن أن تكون المائدة تحتوي على نوع واحد من الطعام؟ فهل لو تم تقديم طبق واحد من الطعام للعائلة، فهل يعتبر ذلك مائدة؟

إن الإجابة على ذلك تتطلب فهم الأمر من خلال السياقات القرآنية نفسها، ولكن كيف؟

أما بعد،

لعلّنا لم ننسى بعد أن حديث المائدة جاء على لسان الحواريين، وهم بلا شك نفر من بني إسرائيل؟ أليس كذلك؟ ولا شك عندنا أن عيسى بن مريم قد جاء نبياً لبني إسرائيل في المقام الأول:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

ولما جاء حوار المائدة جاء متحدثاً عن بني إسرائيل أنفسهم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

فالقوم (بنو إسرائيل ومنهم الحواريون) هم أنفسهم أتباع موسى من ذي قبل، فجاء عيسى- بنص الآية الكريمة- مصدقاً لما بين يديه من التوراة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ...﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

فلا زال علم التوراة متوافر بين أيديهم حتى الساعة، وهذا ما يدعونا إلى الظن بأن خبر نزول طعام معين من السماء إلى الأرض لم يكن غريباً على بني إسرائيل، فهم قد ألفوا ذلك مع موسى من قبل:

- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: 57]
- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: 80]

نتيجة مفتراة: لقد خبر بنو إسرائيل تنزيل الطعام من السماء من ذي قبل، فأنزل الله عليهم من السماء المنّ والسلوى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ) ، وكان ذلك طعام يرزقانه (كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ)، وها هم اليوم يطلبوا تنزيل المائدة من السماء.

فما هي تلك المائدة؟

رأينا: المائدة تكون أكثر من صنف واحد من الطعام حتى لو كانت تلك الأصناف جميعها مجهزة من الطعام نفسه.

سؤال: لم نفهم شيئاً من كلامك هذا، ما معنى ذلك؟

جواب: لندقق النظر في رد بني إسرائيل بعد تلك المنّة الإلهية عليهم بتنزيل المن والسلوى:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٦١﴾ [البقرة: 61]

تساؤلات:

ألا ترى – عزيزي القارئ- شيئاً غريباً في هذه الآية الكريمة؟ كيف يقول بنو إسرائيل أنهم لن يصبروا على طعام واحد والله كان قد أنزل عليهم شيئين اثنين وهما (1) المنّ و (السلوى)؟ أليس المنّ والسلوى طعامين اثنين؟ كيف بهم يصفونهما على أنهما "طعام واحد"؟

رأينا: كلا وألف كلا، المنّ والسلوى هما طعام واحد وإن كانا صنفين من الطعام؟

سؤال: وكيف يكون المنّ والسلوى طعام واحد وهما صنفان من العام؟

رأينا: لابد أن هذين الصنفين يحضران من نفس الطعام. لذا نحن نفتري القول أن المنّ والسلوى هما طعام بعضه من بعض، فالمنّ من السلوى والسلوى من المنّ، فيكونان بذلك طعام واحد وإن كانا صنفين من الطعام.

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب: تلك هي المائدة

سؤال: وكيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: المنّ هو البيض والسلوى هو الطائر الذي يفقسه ذلك البيض، فالله قد أنزل على بني إسرائيل المائدة (البيض)، فكانت ذلك عبارة عن طعام واحد يحضّر منه أكثر من صنف من الطعام، وهما: المنّ (البيض نفسه) والسلوى (الطائر الذي يفقسه ذلك البيض والذي لا يطير بجناحيه).

وسنرى لاحقاً أهمية ذلك في تقسيم الطيور إلى صنفين: صنف يطير بجناحيه وهو أمم أمثالنا لا يجوز أكله ولا يؤكل بيضه، وقسم لا يطير بجناحيه وهو ما يؤكل ويؤكل بيضه (وهذا الصنف الثاني هو المائدة التي أنزلها الله على بني إسرائيل).

سؤال: ولكن أين الآية في تلك الكينونة (أي بيض المائدة)؟ إنك لم تجب عن السؤال الأول في أنّ ما أنزل الله على الحواريين من مائدة كان آية للناس جميعاً؟

- ﴿... رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ .. ١١٤﴾ [المائدة: 114]

أفتراء من عند أنفسنا: نحن نزعم القول أن مفردة المائدة مشتقة من مادة "المنّ، والمنيّ، ونحوها"، فالمنّ عندما يقدم طعاماً يصبح مائدة، ويكون بذلك آية من أيات الله، ولكن كيف؟

لو استعرضنا السياقات القرآنية لمادة "المنّ" لوجدنا أنها تأتي في السياقات القرآنية على معنين:

⇐ التفضل على الاخرين بالعطية ثم الاستكثار منها عليهم

⇐ إنزال ماء الشهوة عند الرجال (والذي بسببه تنشأ الحياة)

وقد تعرضنا في مقالة سابقة لنا لهذين المعنيين عند الحديث عن معنى "﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾ [المدثر: 6] " في النص القرآني الذي كان موجهاً الخطاب فيه للنبي محمد نفسه، ونجد أنه من الضروري إعادة تلك السطور وربطها بموضوع حديثنا في كيفية أن تكون المائدة التي أنزلها الله على الحواريين آية منه للناس كافة. لذا سنطرح السؤال التالي: ما معنى تَمۡنُن في الآية الكريمة (﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾ [المدثر: 6])؟

أما بعد،

جاء في تفسير ابن كثير معظم أقوال المفسرين لهذه الآية الكريمة على النحو التالي:

> قال ابن عباس لا تعط العطية تلتمس أكثر منها وكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وروي عن ابن مسعود أنه قرأ " ولا تمنن أن تستكثر " وقال الحسن البصري لا تمنن بعملك على ربك تستكثره وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير وقال خصيف عن مجاهد في قوله تعالى " ولا تمنن تستكثر " قال لا تضعف أن تستكثر من الخير قال تمنن في كلام العرب تضعف وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليه عوضا من الدنيا فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول ولله أعلم.

أما نحن فقد حاولنا تقديم رأينا في ذلك، فزعمنا القول بأن السادة العلماء قد أخطأوا فهم المعنى المراد في الآية الكريمة لسبب بسيط وهو أنهم استخدموا بشكل مفرط نوعاً واحداً من المعرفة للبحث عن معنى مفردة تَمۡنُن، وكانت تلك المعرفة خاصة بما يعرفوا هم عن معنى تلك المفردة كما ألفوها على لسان أبائهم وأجدادهم من فصحاء اللسان العربي، وأسقطوا فهمهم ذاك على النص القرآني، فظنوا أن به ما ذهبوا إليه، فجاء رأينا المخالف لهم على النحو التالي:

لمّا كان السادة العلماء يعلموا أن مفردة " تَمۡنُن " مشتقة من المنّة، تحصّل لهم الفهم أن النهي هنا جاء للنبي صلى الله عليه وسلم عن المنّة أيآ كان نوعها كما ظهرت في شروحاتهم، ولكننا نستميح السادةالعلماء العذر لنقول "أنكم أخطأتم الفهم حين ظننتم ذلك"، ولو استخدمتم طريقتنا هذه في البحث عن المعاني

لتحصل لكم فهماً (لربما كان) أفضل مما ذهبتم إليه، وحتى لا نطيل على القارئ الكريم سنبيّن له الخطأ في فهم السادة العلماء، وسنقدم له في الوقت ذاته فهمنا الذي نظن أنه أكثر دقة وتميزا.

أما بعد،

فعند تدبر آيات الكتاب الحكيم كلها التي تتحدث عن مشتقات "م ن ي" يتبين لنا أن مفردة "تمنن" مرتبطة بمجالين من المعاني ،وهما المنّة والمنيّ، أما المنّة فهي التفضل بإعطاء الآخرين ثم التشهير بالأعطية، ولكن المنيّ هو إنزال ماء الشهوة عند الرجل أو صبه في رحم المرأة، ويظهر هذا جلي عند استعراض السياقات القرآنية في هذا الصدد، قال تعالى:

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات: 17]
- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: 57-59]

ونحن نظن أن المقصود بالآية الكريمة في قوله تعالى "وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر" هو النهي ليس عن الإكثار في التفضل بالأعطية على الآخرين (المنّة) وهو ما ذهب إليه معظم (إن لم يكن جميع) المفسرين للنص القرآني، ولكنه النهي عن الإكثار من صب المني في أرحام النساء (إي إنزال المنيّ بالشهوة)، فالله –حسب فهمنا- يطلب من النبي الكريم عدم الإكثار من الجماع الذي من خلاله يتم صب المني في رحم المرأة، ولكن كيف ذلك؟

أولاً، التحليل على المستوى المحلي

يتطلب تحليل المفردة على المستوى المحلي إثارة العلاقات بين مفردات الآية الكريمة بعضها مع بعض وكذلك مع السياقات المحيطة بها في السورة التي وردت فيها تلك الآية الكريمة، فنحن نظن أن معنى المفردة الواحدة لا يتأتى من معناها المتعارف عليه بين الناس فقط، وإنما من المعنى الذي يسقطه النص عليها، فالمفردة (أي مفردة) تكسب معناها من السياق الذي وردت فيه ومن علاقاتها مع المفردات الأخرى في جميع السياقات الأخرى في القرآن الكريم كوحدة واحدة لا يناقض بعضه بعضا (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان والله من ورائهم محيط). فعند البحث عن معنى مفردة مثل "تمنن"، لا بد من ربطها أولاً مع مفردات الآية نفسها وهو ما نسميه بتحليل المفردة عل المستوى المحلي، فلنعيد مفردة " تَمۡنُن " كما وردت في الآية الكريمة نفسها هنا لامعان النظر في الآية الكريمة من هذا الجانب:

- ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: 6]

وهنا نثير التساؤل البسيط التالي: ما علاقة " تَمۡنُن " ب " تَسۡتَكۡثِرُ "؟

رأينا: إنّ أبسط ما يمكن أن نستنتجه هو النهي عن الإكثار من "تَمْنُنْ" بغض النظر عن معناها، أليس كذلك؟ فالله ينهى نبيه الكريم عن الإكثار من ذلك الشيء (تَمْنُنْ)، فهل يعقل إذاً أن ينهى الله النبي عن الإكثار من المنّة؟ فإن كان كذلك، فلا بأس إذاً بالقليل منها، فهل كان النبي يَمُنّ على أحد بشيء ولو كان بأقل القليل؟ أو هل كان يمنّ بعمله على ربه فيستكثره (كما ظن بعض المفسرين)؟ إن مراد قولنا هنا هو أن النهي عن المنّة

لا يمكن أن يكون بعدم الإكثار منها، بل بالنهي عنها كلياً، فلا قليلها جائز ولا كثيرها ممكن، ولنتخيل ذلك بحق النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي يفهم قوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة: 262-264]

إنّ نهي النبي عن الإكثار من المنّة (التفضل على الأخرين بالاعطية) فيه اتهام مبطن للنبي بمثل هذا السلوك الذي لا يصح أن يكون من أخلاق المؤمنين ناهيك أن يكون من أخلاق النبوة.

⇐ **ثانياً**، لو تدبرنا السياقات القرآنية لوجدنا أن المنّة (بمعنى التفضل على الأخرين بالاعطية) ليست من حق البشر على الإطلاق، بل هي من حق رب البشر فقط، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات: 17]

إن مثل هذا الفهم يدعونا إلى النظر في احتمالية أن يكون المعنى الآخر وهو "إنزال ماء الرجل بالشهوة في رحم النساء" هو المقصود في الآية الكريمة التي نحن بصدد تبيان بعض معانيها، فالله سبحانه ينهى النبي عن الإكثار من المعاشرة التي من خلالها يخرج ماء الشهوة.

ولكن حتى يتأكد هذا المعنى لا بد من وجود الروابط التي تدعمه في السياق القرآني نفسه، وهنا ندعو القارئ إلى ربط هذا الاستنتاج (أي المعنى الجديد الذي تحصّل لنا عند ربط مفردات الآية نفسها بعضها مع بعض) مع ما سيتحصل لنا من معاني أخرى عند ربط مفردات الآية قيد الدراسة مع مفردات الآيات المجاورة لها في السياق نفسه، وهنا نورد الآية الكريمة في سياقها الأوسع لنتدبرها من هذا المنظور:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: 1-7]

وهنا نبادر القارئ الكريم بالتساؤل التالي: إنْ صح ما قاله السادة العلماء في معنى تمنن (أي المنّة)، فما علاقة ذلك بالآيات السابقة واللاحقة للآية التي وردت فيها تلك المفردة؟

فلعل القارئ العادي (لربما حتى غير المتدبر) يدرك المعنى الكلي لتلك الآيات التي تتحدث في مجملها عن دعوة الله لنبيه بتبليغ الرسالة، فالخطاب موجها أولاً وقبل كل شيء للمدثر، أليس كذلك؟ والسادة العلماء أنفسهم لا يشكون قيد أنملة أنّ هذه الآيات كانت من أوائل ما نزل على النبي بعد العلق في مجمل أقوال العلماء، وهي –لا شك- دعوة للنبي للنهوض من فراشه للقيام بواجبات الدعوة، أليس كذلك؟

فالدعوة جاءت للنبي على النحو التالي:

النهوض من الفراش لتبليغ الرسالة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: 1-2]

وتكبير ربه:

- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: 3]

وتطهير ثيابه:

- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: 4]

وهجر الرجز:

- ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: 5]

وسنتعرض لمعنى "الرجز" في مقالة أخرى.

فاسأل الله أن تنفذ كلمته بإرادته ومشيئته لي الاحاطة بشيء من علمه، إنه هو السميع المجيب.

ومن ثم عدم الإكثار من " تَمْنُن ":

- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: 6]

وأخيراً الصبر على ذلك كله:

- ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: 7]

وهنا نسأل عن علاقة "المنّة على الناس" (كما ظن علماؤنا الأجلاء) بمجمل هذه المعاني، أي هل يستقيم معنى "المنّه على الناس" مع النهوض من الفراش وتكبير الرب وتطهير الثياب، الخ؟ وما دخل طهارة الثياب ب "المنّه على الناس"؟

رأينا: كلا وألف كلا، إن ذلك يجعل النص القرآني ليس أكثر من مفردات متناثرة لا علاقة لها ببعضها البعض.

والآن لنتصور المعنى الآخر في هذا السياق وهو النهي عن الإكثار من "إنزال ماء الشهوة في رحم النساء" (كما نظن نحن).

أما بعد،

فنحن نعلم أن الرجل النائم (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ) يقوم من فراشة، فيذكر- أولاً وقبل كل شيء- ربه بالتكبير والحمد (وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ)، ثم يقوم بعد ذلك بتطهير ثيابه والاغتسال من الجنابة (وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ) استعداد لإقامة الصلاة.

لاحظ عزيزي القارئ أن من أبجديات عقيدتنا هو الاغتسال لإسقاط الحدث الأكبر والأصغر عند الدخول في الإسلام

وقد جاء النهي للنبي عن الإكثار من الجماع – في رأينا- للسببين رئيسيين على الأقل:

⇐ 1.نحن نعلم القوة الجنسية التي كان يتمتع بها النبي، ولا أخال أنني بحاجة أن أورد الأحاديث بهذا الصدد، فالسادة العلماء على دراية كافية بهذا الأمر

⇐ 2. أن من أعباء القيام بالدعوة هو التضحية ببعض نِعَم الحياة، فالله لم ينهي النبي عن الجماع كلياً، ولكنّه طلب من نبيه التقليل منه (وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ) ، لهذا جاءت الدعوة من الله لنبيه في السياق القرآني نفسه مباشرة بعد الآية التي ورد فيها ذكر مفردة " وَلَا تَمۡنُن " على النحو التالي:

- ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: 7]

إن مراد القول أن علاقة المفردة نفسها مع مفردات السياق نفسه (في الآية نفسها والآيات السابقة واللاحقة لها) تؤكد معنى مغايرا لما فهمة السادة العلماء من الكلمة عندما أسقطوا المعنى المألوف لديهم لمفردة "تمنن" على السياق القرآني دون الآخذ بالحسبان الموضع الذي وردت به الآية الكريمة.

التحليل على المستوى الكلي

ولكن تبقى الصورة غير قطعية لتأكيد المعنى الذي ذهبنا إليه، وهنا تبرز أهمية استدعاء السياقات القرآنية الأخرى التي لها ارتباط بمفردة تمنن حتى وإن كانت في غير السياق نفسه، وهو ما نسميه بتحليل السياق الكلي للقرآن الكريم ككتلة واحدة يستحيل أن ينقض بعضه بعضا.

إن استدعاء السياقات الأخرى يتطلب وجود رابط بين تلك السياقات، ولعل من أقوى الروابط هو ورود المفردة نفسها في سياقات مختلفة، وهو ما يسمى بالترابط الإحالي (أو الإحالة النصية)، أي إحالة النص قيد الدارسة إلى نص آخر، وهكذا، فعندما نجد مفردة يصعب استنباط معناها من السياق الواحد نفسه، يصبح لزاماً إحالتها إلى سياقات أخرى، ومن ثم ربط ما يتحصل من استنتاجات من السياقات المختلفة مع بعضها البعض (للتدليل على قوة هذا الرابط في التحليل ندعو القارئ الكريم إلى مراجعة مقالاتنا تحت عنوان كم لبث نوح في قومه و جدلية عذاب القبر).

⇐ **الدليل الأول**: المنة لله فقط، وهنا ندعو القارئ إلى تفقد جميع سياقات القرآن الكريم التي يرد فيها لفظ المنّة (التي بمعنى التفضل على الآخرين) ومشتقاته، قال – تعالى-:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ [النساء: 94]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: 53]
- ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: 90]
- ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [ابراهيم: 11]
- ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾ [طه: 36-37]
- ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: 82]
- ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤﴾ [الصافات: 114]
- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطور: 26-27]

إن هذه السياقات جميعاً تشير إلى حقيقة صارخة يصعب المجادلة فيها وهي أنّ المنّة هي من حق الله وحده، ولا يجوز لبشر (حتى وإن كان نبياً مرسلا) أن يحيز ولو على القليل منها، لهذا جاء الردع من الله للناس كافة بعدم المنّة إطلاقاً، قال تعالى:

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: 17]

والمدقق في السياقات القرآنية هذه يجد السبب في ذلك واضح، وهو أن المنّه فيها استعلاء على الآخرين، لذا جاءت جميع تلك السياقات متبوعة بحرف الجر "على"، ونحن نعلم أنّ العلو هو صفة خاصة بالله وحدة، فلا يحق للناس أن يعلو بعضهم على بعض.

وفي حين أنه لا يحق للبشر أن يعلو بعضهم على بعض يحق لهم أن يعلوا على ما دونهم من الخلائق، كالجن والدواب والأنعام

⇐ **الدليل الثاني**: إنزل المني هي واحدة من صفات الناس:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ٤٧﴾ [النجم: 45-47]
- ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩﴾ [الواقعة: 57-59]
- ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠﴾ [القيامة: 36-40]

⇐ **الدليل الثالث**، ما هو المصدر الذي اشتق منه كل واحد من هذه المعاني؟ حيث إنني لا أرغب الدخول في جدلية اللغة، والتدليل على كلام الله بما قاله الآخرون، أود فقط أن أجلب انتباه القارى الكريم إلى صيغة الفعل المضارع الذي نحن بصدد تبيانه والخوض فيه كما ورد في كتاب الله نفسه (لا كما يظنه أهل اللغة)، فلقد جاء فعل المنة على النحو التالي:

- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: 17]

وجاءت كذلك على نحو:

- ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾ [النجم: 46]
- ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨﴾ [الواقعة: 58]
- ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37]

إنّ المدقق في صيغة الفعل المضارع في الحالتين يجد حقيقة صارخة وهي على النحو التالي:

جاءت "الميم" في الفعل المضارع لفعل المنّة الذي هو من حق الله وحده مضمومة في جميع السياقات القرآنية على نحو يَمُنُّونَ و تَمُنُّواْ و يَمُنُّ ، وجاءت "الميم" في الفعل المضارع لفعل "إنزال المني" الذي هو من صفات الناس ساكنة على نحو " تُمۡنَىٰ " و" يُمۡنَىٰ ".

وكذلك هي حركة الميم في فعل الأمر: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٩﴾ [ص: 39]. وسنتعرض لهذا الأمر بالتفصيل عند الحديث عن قصة سليمان بحول الله وتوفيقه.

فنسأل الله أن تنفذ مشيئته وأن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه، إنه هو السميع المجيب.

وعند تدبر صيغ الفعل الأخرى كالفعل الماضي مثلاً نجد أنّ الميم في جميع صيغ الفعل الماضي لفعل المنّه جاءت متحركة على نحو مَنَّ ، لنخلص (حسب النص القرآني نفسه) إلى أن الفرق بين الفعلين – كما

نفهمه نحن- هي حركة الميم، فإن كانت متحركة فهي مشتقة من المنّة التي هي من حق الله وحده، وإن كانت ساكنة فهي مشتقة من فعل المنيّ الذي هو من فعل الناس، وبهذا الفهم نعود إلى الآية القرآنية التي بدأنا منها:

- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: 6]

فعند مراقبة حركة الميم للفعل " تَمْنُن " في هذه الآية الكريمة التي حاولنا دارستها هنا نجد أنها ساكنة،الأمر الذي يدعم ما زعمنا في البداية أنه المعنى المقصود في هذا السياق القرآني، وهو عدم الإكثار من"صب المنيّ في رحم المرأة".

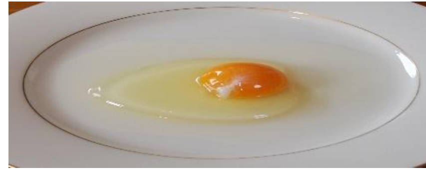
عودة على بدء

المَنّ

علاقة المَنّ (بيض المائدة) بالمنيّ (إنزال ماء الشهوة عند الرجال)

افتراء من عند أنفسنا: لو تدبرنا المائدة السائلة المتكوّنة في داخل كينونة بيض المائدة وقارناها بالمائدة التي تنزل من الرجل بالشهوة، لوجدنا –حسب زعمنا- أنهما متطابقتان في الشكل والتركيب من جهة وفي الوظيفة من جهة أخرى.

أما بالنسبة للشكل، فهو مألوف لمن بلغ الحلم من الرجال ولمن تزوجت من النساء (وربما أتردد أن أضع صورة لماء الرجل، ولكني لا أجد ضيراً من وضع صورة لشكل السائل المتواجد داخل بيض المائدة، وأترك لخيالكم التحليق في عقد المقارنة:



أما بالنسبة للتركيب، فنجد أن ما بداخل صدفة بيض المائدة (egg shell) هو عبارة عن مادتين لزجتين، وهما المادة البيضاء (egg white) والمادة الصفراء (egg yolk)، ونترك لأهل الأعجاز العلمي ليدخلوا المنّ (البيض) والمنيّ (ماء شهوة الرجل) إلى المختبر للتحليل والتمحيص.

الذين لم يتركوا جرثومة على وجه الأرض إلا وأدخلوها عنوة إلى كتاب الله وهم لا زالوا لا يعرفون معاني مفردات كتاب الله، لكن المهم هو أثبات أن ذلك موجود في كتاب الله، فتلك تجارة رائجة، ولا ضير إن ثبت خطأها بعد بضع سنين. (وسنحاول أن نفرد للأمر فصلاً خاصاً لأهميته لاحقاً إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

أما بالنسبة للوظيفة- وهو الأهم بالنسبة لنا هنا- فتكمن في الظن أن وظيفة ماء الرجل الذي ينزل بالشهوة لا تتجاوز وظيفة السائل المتواجد داخل بيض المائدة: إنها الحياة. فحياة الكائن الحي تخرج إما من

الماء الذي ينزله الرجل في رحم المرأة (المنيّ) أو من السائل المتواجد في داخل بيض المائدة (المنّ)، لذا انقسمت الكائنات الحيّة إلى قسمين:

⇐ قسم يتكاثر بالمنيّ (ماء الشهوة الذي يصبه الرجل في رحم المرأة)

⇐ قسم يتكاثر بالمنّ (السائل المتواجد داخل بيض المائدة)

الآية: إن هذا البيض الذي نأكله ونعدّ منه مائدة ذات أطباق متعددة هو نفسه السائل الذي تنبعث منه الحياة، أليس ذلك آية من آيات الله التي يجب على البشرية كلها أن تتفكر به؟!!!

السلوى

سؤال: إذا كان المّن الذي أنزله الله على بني إسرائيل هو البيض (بيض المائدة) كما تزعم، فما هو السلوى؟

جواب: نحن نظن أن السلوى هو الطائر الذي يفقسه بيض المائدة.

الدليل

نحن نزعم أن الدليل على ذلك متوافر في ردة فعل بني إسرائيل على تنزيل المنّ والسلوى عليهم، فجاء قولهم في كتاب الله على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

فبالرغم أن الله قد أنزل على بني إسرائيل شيئين اثنين وهما المن والسلوى إلا أنهم نعتوا ذلك بصفة أنه طعام واحد " لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ "، الأمر الذي يشجعنا على الاستنباط – كما ذكرنا سابقاً- بأن المنّ والسلوى هما شيئان اثنان ولكنهما في الوقت ذاته طعام واحد، فكيف يمكن فهم ذلك؟

رأينا: نحن نعتقد أن ذلك ممكن مادام أنهما طعام بعضه من بعض.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن السلوى من المنّ وأنّ المنّ من السلوى. فكيف يكون المنّ من السلوى وكيف تكون السلوى من المنّ؟

جواب: إن المنّ (بيض المائدة) طعام يمكن تجهيزه وأكله بذاته، ولكن ما أن تفقس تلك البيضة طائراً حتى يصبح ذلك الطائر هو أيضاً جاهزاً للأكل كما المائدة الأصلية التي خرج منها (البيض)، فيكونان بذلك شيئان ولكنهما طعام واحد.

التراث الديني المسيحي

كما تحتفل الطوائف المسيحية جميعاً بعيد المنّ (بيض المائدة) فهي تحتفل كذلك بعيد الديك الرومي (Turkey)، فلقد درجت تلك الطوائف على تقديم مائدة ذلك الطائر على وجه الخصوص في أعياد محددة تأخذ الطابع الديني وهي أعياد رأس السنة الميلادية، فتكاد لا تخلو مائدة العائلة المسيحية من لحم ذلك الطائر في أعياد رأس السنة، ونحن نظن أن ذلك أرث ديني عظيم تمّ نسيان أصله العقائدي مع مرور الزمان، ولكن الحقيقة – في رأينا- تتمثل في استحالة أن تتقبل تلك الأمم على اختلاف ثقافاتها وأعراقها مثل تلك الطقوس لو لم تكن ذات جذور عقائدية.

الديك الرومي طائر لا جنسية له

كنّا في أحدى محاضرات الدراسات العليا في جامعة Ball State University في ولاية Indiana الأمريكية في واحدة من مساقات تحليل الخطاب (Discourse Analysis)، وجاء الحديث مرة عن ذلك الطائر الذي يسمى باللغة الإنجليزية Turkey، ولا زلت أذكر أني سألت أنا شخصياً مدرسة المساق وتدعى Elizabeth Riddle عن سبب تلك التسمية، أي لماذا ينسب أهل اللغة الأنجليزية ذلك الطائر إلى الجنسية التركية (الأتراك). وشرحت لها في الوقت ذاته بأننا نحن العرب نسميه بديك الحبش تارة (نسبة للحبشة أو إثيوبيا حديثاً أو Ethiopian bird) وبالديك الرومي (نسبة إلى روما أوRoman rooster) تارة أخرى. فدفعني ذلك إلى التحري أكثر عن ذلك الطائر عند الأمم الأخرى، فوجدت أن الأتراك أنفسهم والروس والبولنديين وغيرهم يسمونه بالديك الهندي (Bird of India, Bird from India, or just Hindi)، بينما يسميه بعض المصريين بالديك اليوناني (Greek bird)، ويسمونه أهل اللغة العبرية (أي اليهود) بالديك الهندي (rooster of India)، بينما ينسبه أهل اللغة الهندية إلى البرتغال فيسمونه (Peru). ووجدنا أن ذلك الطائر فقط يسمى في لغة التاميل (Tamil) بديك السماء (*Vaan Kozhi*: வான் கோழி) وتعني (Sky Chicken).



السؤال: لِمَ- يا ترى- تنسب كل أمة ذلك الطائر إلى غيرها من الأمم؟

رأينا: لأن ذلك الطائر– نحن نفتري القول- لم يأت من موطن ما على وجه الأرض، وإنما هو كما يسميه التاميليون بديك السماء أو Sky Chicken، فنحن نظن أنه لمّا كان أهل الأرض لا يعرفوه من ذي قبل، حاولت كل أمة أن تظن أن موطنه في مكان آخر، فظننا نحن العرب أنه جاءنا من الحبشة (وهي التي كانت تدين بالنصرانية)، وظننا أنه جاءنا من روما، وظن أهل صعيد مصير أنه جاءهم من اليونان (وهي مواطن قديمة للديانة النصرانية)، وظن أهل غرب أوروبا كالانجليز أنه جاءهم من تركيا (مهد الكنيسة الشرقية)، بينما ذهب اليهود إلى نسبته إلى بلاد الهند، وهكذا.

(انظر الملحق رقم 1 الذي يعرض اسم ذلك الطائر في معظم لغات أهل الأرض كما تم اقتباسه من الموسوعة الالكترونية Wikipedia)

افتراء من عند أنفسنا: لقد انتقل ذلك الطائر مع انتقال أهل الديانة المسيحية وانتشار تعاليمها، فلقد صاحبها منذ حادثة تلك المائدة الشهيرة (أو الذي يسميه بعض الطوائف المسيحية بالعشاء الأخير).

ربما يحتج الكثيرون على هذا المنطق بالقول أن الديك الرومي لم يعرف في الديانة المسيحية إلا مع اكتشاف أمريكيا، فبدأ حينئذ يكون ذلك جزءاً من وجبة رأس السنة، فنقول ربما يكون هذا صحيحاً، ولكنا نتحدث هنا عن التسمية فقط، فتسمية ذلك الطائر في لغات الأرض قد سبقت –لا شك- اكتشاف أمريكيا.

لكن، يثير مثل هذا الطرح تساؤلات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

- لماذا تؤكل بعض لحوم الطيور ولا تؤكل لحوم طيور أخرى؟
- ما هي الطيور التي تؤكل وما هي الطيور التي لا تؤكل؟
- لماذا يؤكل بعض بيض الطيور ولا يؤكل بيض طيور أخرى؟
- هل تختلف شعوب الأرض في هذه العادات؟
- وإن كان كذلك، فلم يأكلون بعض أصناف من الطيور ولا يأكلون أصنافاً أخرى؟

للإجابة على مثل هذه التساؤلات لابد من الخوض في قصة الطيور من بدايتها لنسأل السؤال التالي:ما هي الطيور؟ وكيف تختلف عن الكائنات الحية الأخرى؟

جواب: تعرضنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان "تحريم لحم الخنزير" للتفريق بين الأنعام من جهة والدواب من جهة أخرى. وكان ذلك التقسيم مبنياً على ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 27-28]

وزعمنا القول أن الله قد أحلّ لنا أكل الأنعام فقط:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: 1]
- ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ [الحج: 28-34]

بينما لم يحلّ الله لنا – نحن نزعم القول- أكل الدواب، وذلك لأنها أمم أمثالنا:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

ولو تدبرنا الآية جيداً لوجدنا أن الخطاب جاء ليشمل ليس فقط الدواب، وإنما الطيور التي تطير بجناحيها (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)، فتلك جميعها أمم أمثالنا (إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)، فكيف بنا سنأكل من كان أمة مثلنا؟!!!

وخلصنا عند الحديث عن الدواب والأنعام إلى النتيجة التي مفادها أن أكل الأنعام لا يقتصر على لحومها وإنما يتعدى ذلك إلى شرب لبنها، فقلنا بأننا نأكل من الكائنات الحية الأخرى ما نشرب لبنه: فما يشرب لبنه يؤكل لحمه.

وربما يمكن تطبيق هذا المبدأ على الطيور أيضاً، ولكن كيف؟

أما بعد،

الطيور حسب النص القرآني- نحن نفتري القول- نوعان، قال تعالى:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

لذا فالطيور على نوعين:

⇐ 1.طيور تطير بجنا حيها
⇐ 2.طيور لا تطير بجناحيها

أما الطيور التي تطير بجناحيها فهي بنص الآية الكريمة أمم أمثالنا، لذا نحن نفتري الاستنباط التالي: لا تؤكل لحوم تلك الطيور ولا يؤكل بيضها وذلك لأنها أمم أمثالنا.

أما ما يؤكل من الطيور (والتي ليست أمم امثالنا) فهي الطيور التي لا تطير بجناحيها وهي ما نسميه بالطيور الدّاجنة. ونحن نظن أن السبب يكمن في أن تلك الطيور (التي لا تطير بجناحيها) قد نزلت من السماء كما كان الحال بالنسبة للأنعام:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 6]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 71-73]

فنحن نأكل ونشرب وننتفع من الأنعام لأن الله يقول (أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا)، وأنزلها الله إلينا إنزالاً (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)، فأصبحت تلك الأنعام كلها طيبة من مأكل ومشرب ومنفعة.

السؤال: كيف نزلت تلك الطيور التي لا تطير بجناحيها من السماء؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الطيور هي من فصيلة النِعَم وليست من الأنعام، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: 95]

لو دققنا جيداً في النص القرآني لوجدنا أن الله يتحدث في هذه الآية الكريمة عن كفارة الصيد في الإحرام على أن تكون " مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ "، فهل يا ترى تصطاد الأنعام (البقر والإبل والمعز والضأن) اصطياداً؟

رأينا: كلا وألف كلا، إن ما يمكن أن يتم الحصول عليه بطريقة الصيد هو "نَعَم" وليس أنعام، لأن الأنعام بنص الآية الكريمة هي ما كان قد ذلّل وأصبح ملكية خاصة:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 71-73]

فما هي النّعَم؟

لنعود إلى الخطاب الإلهي الموجه إلى بني إسرائيل في بداية الحديث عن تنزيل المنّ والسلوى حيث قال:

- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: 47]

تدبر- عزيزي القارئ- هذه الآية الكريمة جيداً، فالله يطلب من بني إسرائيل أن يذكروا نعمته التي أنعمها عليهم، أليس كذلك؟

سؤال: هل يستطيع (أو هل يقدر) بنو إسرائيل أن يذكروا نعمة عليهم؟

جواب : كلا، لا يستطيعون.

سؤال: لماذا؟ ألا ترى أن ما تقوله ليس أكثر من محض فتراء؟ فإن كان ما تقوله فيه شيء من الحق، فأين دليلك على أن بني إسرائيل لا يستطيعون أن يذكروا نعمة الله عليهم؟

جواب: لندقق النظر في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]
- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: 18]

فالتساؤل الذي نسعى لإثارته بعد عرضنا لهذه الآيات الكريمة هو: كيف بالله الذي يقرر أنه لا نستطيع أن نعد نعمة الله مهما حاولنا، يطلب من بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم؟

رأينا: لا نستطيع أن نفهم ذلك ما لم نخرج أنفسنا من بوتقة القواعد القديمة التقليدية التي أضلتنا قروناً من الزمن وأبعدتنا عن فهم كلام الله كما يجب. وهذا ما سنتعرض له في بداية الجزء القادم إن أذن الله لنا بشيء من علمه.

دعاء: فنسأل الله جلّ وعلى أن ينفذ كلمته بإرادته ومشيئته لي ولعلي الإحاطة بما لم يحط به غيرنا من علم، وأن يصطفينا بعلم من عنده لا يكون لغيرنا، فنسأله تعالى أن نعلم منه ما لا تعلمون، ونسأله أن يعلمنا الحق فلا نفتري عليه الكذب. إنه هو العليم الحكيم.

الملحق رقم 1:

اسم الديك الرومي في لغات أمم الأرض مأخوذة من صفحة Wikipedia

The names for the **Wild Turkey**, the North American species, in other languages also frequently reflect its exotic origins, seen from an Old World viewpoint, and confusion about where it actually comes from. See Turkey for the etymology of the English name and the scientific name *Meleagris*.

- In Albanian, it is called *gjel deti* meaning “sea rooster” (or *pule deti* meaning “sea hen”). It is also called "biba" (female turkey) and "biban" (male turkey).
- In Arabic, it is called *dīk rūmī* (ديك رومي) meaning “Roman rooster” (in which “Roman” historically referred to the Greek-speaking Eastern Roman Empire and later to the geographic areas that now comprise Turkey), or, less commonly, “Ethiopian bird”.

- In Armenian, it is called *hndkahav* or *hntkahav* (Հնդկահավ), literally meaning “Indian chicken”.
- In Bengali, titir pakhi
- In Blackfoot, it is called *ómahksipi'kssíí*, meaning “big bird”.
- In Bulgarian, it is *Пуйка* (puijka) but a dialect version is *Мисирка* (misirka), which comes from the Arabic word for Egypt.
- In Catalan, it is called *gall d’indi*, literally meaning “Indian chicken”.
- In Cherokee Native language it is called Kv-na(kuh-nuh)
- In Chinese, it is called *huoji* (火雞 / 火鸡) meaning "fire chicken" for the color of the head. Other names in Chinese include *qimianniao* (七面鳥 / 七面鸟) meaning "seven-faced bird", *tujinji* (吐錦雞 / 吐锦鸡) meaning "cough up a brocade chicken" and *tushouji* (吐綬雞 / 吐绶鸡) meaning "cough up a ribbon chicken" due to their red wattles.
- In Cree, it is called misihew (Plains Cree), mišihyew (East Cree), mišilew (Moose Cree), miširew (Atikamekw), etc... All are modern dialectal versions of the historical form, *mišihrew, meaning "large gallinaceous bird."
- In Croatian, it is called *puran*.
- In Czech, it is called *krocan divoký*.
- The Dutch word is "*kalkoen*", derived from the city Calicut in India, likewise Danish, Estonian and Norwegian *kalkun,* Swedish *kalkon*, and Finnish *kalkkuna*, as well as in Papiamento *kalakuna*.
- In colloquial Egyptian Arabic, it is called the "Greek bird".
- In Fijian, it is called *taki* (transliteration from English) or *pipi*, an enigmatic term shared with Samoan with undefined origin in either language.
- In French, it is called *(la) dinde*, which comes from *(poulet) d’Inde* or "(chicken) from India".
- In German, it is called *(der) Truthahn*.
- In Greek, it is *gallopoúla* (γαλοπούλα), which means “French chicken”.
- In Hawaiian, it is called *pelehu*, from the Portuguese. The Hawaiian nobleman Boki acquired turkeys during the South American leg of his world tour and

introduced both the bird and the Hawaiian transliteration of the Portuguese term *peru* to Hawai'i and later, in 1827, to Rotuma.

- In Hebrew, the turkey is called *tarnegol hodu* (תרנגול הודו), literally meaning "rooster of India".
- In Hindi, it is called Peru (पीरू), a borrowing from Portuguese.
- In Hungarian, it is called *vadpulyka*.
- In Indonesian, it is called *kalkun* and derived from Dutch word *kalkoen*.
- In Irish, it is *turcaí*, an English borrowing.
- In Italian, it is called *tacchino*.
- In Japanese, the turkey is called shichimenchō (シチメンチョウ / 七面鳥), which literally means "seven-faced bird".
- In Khmer, the turkey is called *moan barang* (មាន់បារាំង), which translates as "French chicken". (The term "French" is frequently used in Cambodia to refer to things and people of Western origin, as historically Cambodia's primary contact with the West was via French colonization.)
- In Korean, the turkey is called *chilmyeonjo* (칠면조 / 七面鳥), which translates as "seven-faced bird". This is said to reflect the ability of the bird, particularly the male, to change the form of its face depending on its mood.
- In Lakota, it is *waglekšun*.
- In Lithuanian, it is *kalakutas*.
- In Malay, it is called either "Ayam Piru" from the Portuguese name for the bird or "Ayam Belanda" (Dutch chicken).
- In Maltese, it is called *dundjan* (pronounced *doonDYAHN*), another, maybe not so obvious, reference to India.
- In Miami, it is *nalaaohki pileewa*, meaning "native fowl".
- In Nahuatl, it is *oaxolotl*, which is reflected in Mexican Spanish as *Guajolote*.
- In Ojibwe, it is *mizise* (ᒥᓯᐦᓭ / ᒥᓯᓭ) (plural: *miziseg*).
- In Passamaquoddy, it is *nem*.
- In Persian it is called *Booghalamoon* (بوقلمون) which may be an onomatopoeia of the male bird's distinctive gobble.
- In Polish, it is *Indyk*, a reference to India. Similarly it is *indik* (אינדיק) in Yiddish, also referring to India.

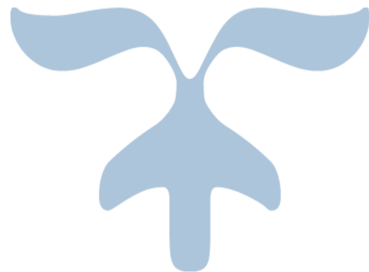
- In Portuguese, the word for turkey is *peru*, which also refers to the country Peru.
- In Romanian, the word for turkey is *curcan* (fem. *curca*)
- In Rotuman, it is called *perehu*, from the Portuguese via Hawaiian *pelehu.* The Hawaiian nobleman Boki acquired turkeys during the South American leg of his world tour. He introduced both the bird and the Hawaiian transliteration of the Portuguese term *peru* to Hawai'i and later, in 1827, to Rotuma.
- In Russian, it is called *indeyka* (индейка), relating to the Native American Indian (индеец).
- In Samoan, it is called *pipi*, an enigmatic term shared with Fijian with undefined origin in either language.
- In Serbian, it is called *misirka*.
- In Scottish Gaelic, it is called *cearc frangach*, meaning “French chicken”.
- In Sinhala, it is called *kalukuma*, derived from Dutch word *kalkoen*.
- In Spanish, the turkey is called pavo, Latin for peafowl. In Mexican Spanish, it is also known as *guajolote*, a name of Nahuatl origin, from *hueyxolotl* meaning ‘big xolotl’; among other names used in specific regions are *cócono*, *pípila*, *güíjolo*, the later cognate with guajolote, used in Sinaloa and Southern Sonora. In Central American Spanish, it is also known as *chompipe*, *chunto* or *chumpe*
- In Swahili, the turkey is called "*bata mzinga*", meaning "the great duck".
- In Tagalog, the turkey is called "*pabo*", from the Spanish word pavo.
- In Turkish, the bird is called hindi which means “from & related to India,"
- In Vietnamese, it is called *gà tây*, meaning “Western chicken”.
- In Urdu, it is called *feel murgh*, meaning “elephant chicken”.
- In Welsh, it is called *twrci*, borrowed from the English word.
- In Tamil, it is called *Vaan Kozhi*,(வான் கோழி), meaning “Sky Chicken”.
- In Telugu, it is called Seema Kodi/Maga Seema Kodi (సీమ కోడి/మగ సీమ కోడి)



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء الثالث

الطَّـير وأنواعها



الجزء الثالث: الطَّير وأنوعها

خلصنا في الجزء السابق بافتراءات عديدة نذكر منها:

- بيض المائدة هو المنّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل
- الطائر الذي لا يطير بجناحيه (الديك الرومي) هو السلوى التي أنزلها الله على بني إسرائيل
- المن (بيض المادة) والمني (ماء الرجل الذي يصبه في رحم المرأة) متشابهان في الشكل والوظيفة، فالبيض (مادة المنّ) يخرج منها الحياة بالضبط كما تخرج الحياة من منيّ الرجل الذي يصبه في رحم المرأة
- المن والسلوى صنفان ولكنهما طعام واحد.
- الطعام الذي يعد من هذين الصنفين يعتبر مائدة وهي التي أنزلها الله على الحواريين مع نبيهم عيسى بن مريم
- الطيور التي تطير بجناحيها هي أمم أمثالنا، لذا لا يؤكل لحمها ولا بيضها
- الطيور التي لا تطير بجناحيها ليست أمم مثلنا، لذا يؤكل لحمها وبيضها
- الطيور التي لا تطير بجناحيها هي من فصيلة النعم وليست من الأنعام

أما بعد،

انتهى الجزء السابق عند دعوتنا التمييز بين مفردتين وردتا في كتاب الله نظن أن علماءنا الأجلاء قد أخطأوا فهمهما قروناً من الزمن وهما مفردتا: النعم و الأنعام، ودعونا إلى الحاجة أن نفهم معنى مفردة النعم كما ترد في كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾ [المائدة: 95]

فزعمنا القول أن النعم ليست أنعاماً لأن النعم يتم اصطيادها اصطياداً، ولكن الأنعام بالمقابل فهي لا تصطاد لأنها مملوكة:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾ [يس: 71]

وهي كائنات قد ذللت ويتم استخدامها في الركوب، فلا تتواجد في البرية:

- ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ [يس: 72]

وبالإضافة إلى أنها كائنات يؤكل منها، فهي كائنات ننتفع بها ونشرب لبنها (أو حليبها كما يرغب أهل الشام أن يسموه):

- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: 73]

وقد دعانا مثل هذا التفريق للغوص في ماهية تلك الكائنات، طارحين السؤال التالي: ما هي النعم؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد زعمنا القول أن النعم هي ما يمكن أن يتم اصطياده، وهي متواجدة في البرية (البر)، لذا تقع الطيور التي لا تطير بجناحيها كالتي أنزلها الله من السماء لتكون طعاماً لأهل الأرض (أي السلوى) ضمن فصيلة النعم.

الدليل

لكي نتمكن من استقصاء الدليل على مثل هذه التحريفات التي هي لا شك من عند أنفسنا حاولنا التعرض لمفردة "نعمة" التي جاءت في الآية الكريمة التالية الموجه إلى بني إسرائيل في بداية الحديث عن تنزيل المنّ والسلوى حيث قال:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47]

وحاولنا إرباك القارئ الكريم بالسؤال التالي: هل يستطيع (هل يقدر) بنو إسرائيل أن يذكروا نعمة الله التي أنعمها عليهم بعد تدبر ما جاء في كتاب الله في الآيتين التاليتين؟

- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]
- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: 18]

فكان التساؤل الذي طرحناه على النحو التالي: كيف بالله الذي يقرر أنه لا نستطيع أن نعد نعمته مهما حاولنا يطلب من بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم؟

فزعمنا الظن أننا لا نستطيع أن نخرج من مثل هذا المأزق – الذي تخيلناه نحن فقط- ما لم نخرج أنفسنا من بوتقة القواعد القديمة التقليدية التي نظن أنها أضلتنا قروناً من الزمن، وأبعدتنا عن فهم كلام الله كما يجب. ولكن كيف؟

انظر إلى تهجئة الكلمة قيد الدراسة في الآيتين السابقتين، ففي حين أن أحداهما جاءت بتاء مفتوحة (نِعْمَتَ) جاءت الأخرى بتاء مربوطة (نِعْمَةَ):

- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]
- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: 18]

للتفصيل في هذه الجزئية انظر مقالاتنا تحت عنوان "علم اللغة" و "هل للغة العربية قدسية خاصة؟"

أما بعد،

لو طرحنا التساؤل التالي: هل كلمة نعمة (أو نعمت) مفرد أم جمع؟ أي هل هي كلمة تدل على شيء واحد أم على أكثر من شيء؟

جواب: ربما لو وجهنا هذا السؤال إلى الغالبية الساحقة من أبناء العربية (الفصيح وغير الفصيح منهم) لوجدنا أنهم لا يترددون بالقول أن كلمة نعمة هي مفرد؟

ولو اتبعنا السؤال بالسؤال لربما حصل الإرباك: فما جمع كلمة نعمة إن كانت هي مفرد؟ أي كيف تجمع كلمة نعمة؟

رأينا: نحن نظن أن مفردة نعمة تجمع على نعمة أيضاً، فكلمة نعمة حسب النص القرآني – كما نزعم- هي مفرد وهي جمع في الوقت نفسه. فالنعمة الواحدة هي نعمة، وأكثر من نعمة هي أيضاً نعمة وليست نِعَم، لأن النِعَم هي كائنات حية يمكن أن يتم اصطيادها:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّـٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾ [المائدة: 95]

بينما جاء قول الحق مطالباً بني إسرائيل بأن يذكروا نعمة واحدها خاصة بهم (دون العالمين):

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ [البقرة: 47]

نتيجة مفتراة: لا شك أن النعمة التي يطلب الله من بني إسرائيل أن يذكروها يمكن أن تعد، وإلا لما طلب منهم أن يذكروها.

وفي الوقت ذاته جاء التأكيد الإلهي في كتابه الكريم أننا لا نستطيع أن نحصي نعمة الله مهما حاولنا:

- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: 34]
- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨﴾ [النحل: 18]

إن هذا الكلام يدعونا إلى أن نستخرج القواعد (إن كان هناك أصلاً ما يسمى قواعد بالمفهوم البشري) من كتاب الله لا أن نضع القواعد التي هي بلا شك من عند أنفسنا في كتاب الله، لنجبر النص (وإن كان كتاب الله) أن يلتزم بما قدمناه من عند أنفسنا.

مثال

لقد كانت هذه الجزئية على الدوام من أهم النقاط التي أحاول إثارتها في قاعة الدرس خاصة في مساقات تحليل الخطاب، وكنت أجد العناء الشديد (لا بل والمقاومة الشرسة أحياناً) في تمرير هذا الظن لـ أناس شربوا تلك القواعد مع حليب أمهاتهم (كما نقول نحن في عاميتنا الأردنية وإن كان هو أصلاً لبنا)، فهم تربوا على أن قواعد أبائهم وأجدادهم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولكن ما هي إلا أمثلة قليلة حتى يبدأ من

أراد العلم منهم بالنظر إلى الأمور من زاوية جديدة، وها هو أحد طلبة تلك المساقات يعود إليّ يوماً بالتساؤل التالي حول الحركة الإعرابية في الآيات الكريمة التالية

- ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٞ ۝﴾ [الواقعة: 20-22]

المشكلة كما راءاها: في حين أن كلمة فاكهة جاءت مجرورة (وَفَٰكِهَةٖ) وجاءت كلمة لحم مجرورة كذلك (وَلَحۡمِ)، كان الرفع من نصيب كلمة وحور (وَحُورٌ)، وقد أكد لي بأنه غير راض عن ما قاله الأقدمون بأن وَحُورٌ مرفوعة على الابتداء، لأن ما كان يقلقه هو: لم ترفع " وَحُورٌ " على وجه التحديد على الابتداء هنا في هذا السياق القرآني على وجه التحديد؟ ما المغزى من ذلك؟ لم لا يبدأ الابتداء عند مفردة اللحم مثلاً ليبدأ الرفع من هناك؟ وقد كان بذلك يردد ما أحاول أن أقوله لطلابي على الدوام هو: مادام أن هناك اختلافا في الشكل، فلابد أن يصاحبه اختلاف في المعنى، فلابد من وجود غرض في النص يبرر اختلاف الحركة الإعرابية (من الجر إلى الرفع). وقد كان يتساءل عن السبب في هذا الاختلاف في الحركة الإعرابية في هذه الآيات الكريمة.

وقد كان ردي له على النحو التالي: قلت له لا أعرف السبب، ولكني متأكد أن هناك سبب وجيه دعا إلى أن يكون الجر (الكسر) من نصيب "الفاكهة واللحم" في هذه الآية الكريمة بينما يكون الرفع خاصاً بالحور.

وقد كان ما أثلج صدري في تلك اللحظة، فلقد فاجأني ذلك الطالب نفسه في المجلس ذاته بالقول أنه ربما يعرف السبب من وراء ذلك، فحاول أن يشرح لي ما فتح الله عليه به من علم على النحو التالي:

قال: لو تدبرنا الآيات نفسها لوجدنا أنها تبين لنا السبب بشكل جلي، فلننظر إلى كل آية منفردة، فعند الحديث عن الفاكهة جاء قول الحق:

- ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝﴾ [الواقعة: 20]

وجاء قول الحق عند الحديث عن الطير على النحو التالي:

- ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝﴾ [الواقعة: 21]

ولو تدبرنا هاتين الآيتين معاً (حيث اشتركا في الحركة الإعرابية وهي الجر) لوجدنا أن الحصول على الفاكهة يتم بالتخيير، فهي (وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)، وكذلك يكون الحصول على اللحم (وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ)، فالإنسان في الجنة يستطيع أن يختار الفاكهة التي يريدها وهو يستطيع الحصول على اللحم الذي يشتهيه من كميات كثيرة ومتنوعة معروضة هناك. ولكن لنتدبر الآن ما جاء حول الحور العين:

- ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝﴾ [الواقعة: 22]

فالمدقق في هذه الآية الكريمة يجد أن الحصول على الحور العين لا يبني في الجنة على مبدأ الاختيار أو الشهوة، فأنت في الجنة لا تختار الحور التي تريد من كثير من الحور المعروضات لأن الحصول على الحور العين يتم بالتزويج:

- ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝﴾ [الدخان: 53-54]

- ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٢٠﴾ [الطور: 19-20]

نعم، هذا ما نقصد باشتقاق ما يرغب أهل اللغة بتسميته بالقواعد من النص القرآني وليس إسقاط القواعد التي نريد على كتاب الله. فكم هناك من الأمثلة في كتاب الله على ما يعتبر خروجاً على قواعد أبائنا وأجدادنا!

لذا، نحن نستميح الآباء والأجداد العذر لنقول لهم بأننا لا نثق "بقواعدكم"، لأننا نصدّق ما في كتاب ربنا أكثر من ما جاء في كتبكم ومؤلفاتكم.

(وسنفرد لما نعتقد أنه "تخاريف قواعدية قديمة" مقالات مستقلة بحول الله وتوفيقه، وقد تعرضنا للعديد منها في مقالاتنا السابقة)

عودة على بدء: علاقة النعمة بالنعم

ما هي النعمة (الواحدة) التي طلب الله من بني إسرائيل أن يذكروها:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ [البقرة: 47]

فهي بلا شك ليست تفضيلهم على العالمين لأن ذلك جاء مصاحباً لتلك النعمة (ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ). فلربما تكون تلك النعمة سبباً لتفضيلهم على العالمين، لكن المهم بالأمر هو فصل تلك النعمة عن قضية التفضيل، فالنعمة شيء والتفضيل شيء آخر.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن واحدة من "النعمة" هي ما أنزل الله عليهم "من النعم"

الدليل

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة: 57]

فالمنّ والسلوى كانت "نعمة" من الله خاصة ببني إسرائيل فقط، ولم ينزلها الله على أحد من العالمين قبلهم، وكذلك كانت المائدة:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: 114-115]

فهذه المائدة كانت خاصة ببني إسرائيل (الحواريين الذين كانوا أنصار الله).

نتيجة مفتراة: لم ينزل طعام من السماء إلى الأرض إلا على بني إسرائيل، فكانت تلك النعمة على وجه التحديد خاصة ببني إسرائيل دون غيرهم من العالمين، لذا نحن نفهم أن الله يطلب من بني إسرائيل أن يذكروا نعمته

التي أنعمها عليهم (في الوقت الذي جاء التأكيد الرباني أننا مهما حاولنا أن نعد نعمة الله فلن نحصيها) على أنها إنزال طعام من السماء إلى الأرض، وكان ذلك إنزال المن والسلوى (على أنه طعام واحد) في زمن موسى، وكان ذلك عبارة عن مائدة في زمن عيسى بن مريم.

من أين جاءت المائدة التي نزلت على نفر من بني إسرائيل زمن عيسى؟
لو تدبرنا كلام عيسى بن مريم نفسه لوجدنا أن المائدة قد جاءت بصريح اللفظ من السماء:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

فكانت الاستجابة الربانية فورية لطلب المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]

نتيجة: المائدة نزلت من السماء

من أين جاء المنّ والسلوى على بني إسرائيل زمن موسى؟
رأينا: من السماء

الدليل: نحن نظن أن الدليل على ذلك موجود في كلمة "أنزل":

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]

فالحركة من السماء إلى الأرض (كما ذكرنا في أكثر من مقالة سابقة لنا) هي حركة نزول مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: 2]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤﴾ [الحديد: 4]

افتراء من عند أنفسنا: عندما ينزل شيء ما نزولا فهو – برأينا- يكون قادما من السماء.

فما الذي أنزله الله من السماء كطعام على بني إسرائيل؟
افتراء من عند أنفسنا: مادام أن الطعام الذي نزل على بني إسرائيل قد جاء من السماء فهو ليس من الطيور التي تطير بجناحيها، لأن تلك الطيور ليست موجودة في السماء وإنما موجودة في جو السماء (وهناك فرق كبير بين ما هو موجود في السماء وما هو موجود في جو السماء).

الدليل

لنمعن التفكير في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور: 41]

ما الذي يمكن أن تستنبطه- عزيزي القارئ- من هذه الآية الكريم بالنسبة للطير؟ هل الطير موجودة في السماء؟ هل الطير موجودة في الأرض؟

رأينا، كلا وألف كلا، لو كانت الطير من مخلوقات الأرض أو من مخلوقات السماء لما كان هناك حاجة أن يكون هناك تكملة للآية الكريمة ولربما جاءت على النحو التالي:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ..... وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

ولكن لمّا كانت الطير مخلوقات ليست أرضية وليست سماوية كان لزاماً أن يأتي ذكرها في الآية الكريمة لتكون مشمولة بخطاب التسبيح:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور: 41]

فالمسبحون لـ لله هم (1) من في السموات و (2) من في الأرض و(3) الطير

سؤال: مادام أن الطير– كما تزعم- ليست من مخلوقات الأرض، ومادام أنها ليست من مخلوقات السماء، فأين هي إذن؟

جواب: هي مخلوقات متواجدة في جو السماء:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩﴾ [النحل: 79]

نتيجة: لابد من التفريق بين ثلاث كينونات حسب مكان تواجدها:

1.مخلوقات متواجدة على الأرض

2.مخلوقات متواجدة في السماء

3.مخلوقات متواجدة في "جو السماء" وهي الطير موضوع حديثنا هنا.

وهذا الزعم يعيدنا مرة أخرى إلى الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

فنحن البشر متواجدون على الأرض وكل ما هو موجود على الأرض هو أمم أمثالنا، ولكن هناك أمة أخرى مثلنا ولكنها غير متواجدة على الأرض: إنها الطير التي تطير بجناحيها.

وهذا يدعونا مرة أخرى للتفريق بين الطير التي تطير بجناحيها وهي موجودة في جو السماء والطير التي لا تطير بجناحيها وهي موجودة على الأرض.

فالطير التي لا تطير بجناحيها ومتواجدة على الأرض تقع في –حسب ظننا- ضمن فئة الدواب، وبشكل أكثر دقة فهي من فصيلة النعم التي يمكن أن تصطاد اصطياداً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: 95]

ونحن إذ نقرأ هذه الآية الكريمة لنستغرب أن تكون فتوى علماء المسلمين لمن قام بفعل الصيد وهو في حالة الإحرام أن يقوم بذبح شيء من الأنعام كالماعز أو الضأن أو البقر أو الإبل ككفارة عن ما فعل، فالآية الكريمة تدل بما لا لبس فيه أن الجزاء هو من مثل ما قتل من "النعم" (فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ) وليس من الأنعام، فمادام أن النعم هي المقتولة التي تم اصطيادها، فكيف تكون الكفارة من الأنعام التي تكون مملوكة؟ أليست الكفارة من مثل ما قتل من النعم؟ فهل يمكن أن يعود الحاج المعتمر ببقرة أو ماعز أو شيء من الضأن أو الإبل ليدعي أنه قام باصطياده؟ فهل تصطاد تلك الكائنات اصطياداً؟

جواب: كلا وألف كلا، إننا نعتقد أن الإنعام هي كائنات مملوكة لا يمكن أن يتم اصطيادها، أما النعم فهي كائنات برية يمكن أن يتم اصطيادها، لذا فالكفارة تكون بمثل ما قتل من النعم، فأنت إن اصطدت أرنباً فكفارته بـ "مثل الأرنب"، وإن أنت اصطدت غزالاً فكفارته بـ "مثل الغزال"، وإن أنت اصطدت حماراً وحشياً، فكفارته بـ "مثل الحمار الوحشي، وهكذا، فكيف يتم ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن الكفارة تكون على نحول " مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ "، وهذا – بكل تأكيد- لا يكون باصطياد نعم أخرى مثل التي قتلها المحرم لأن الحاج لا زال في مرحلة الإحرام، فكيف به أن يقوم بفعل القتل مرة أخرى، فإن هو فعل، فهذا يعني أنه يقوم بالاصطياد مرة أخرى وبالتالي الوقوع في المحظور من جديد، وهكذا. لذا نحن نفتري الظن أن الكفارة تكون بدفع قيمة المثل كما يحكم به ذوا عدل " فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ "، أي إن قام الحاج المحرم باصطياد أرنب بري مثلاً، فإن كفارة ذلك – في رأينا- لا تكون بأن يقوم باصطياد أرنب مثله، ولكن تكون بأن يقدر ذوا العدل قيمة ذلك الأرنب تقديرا (ويكون ذلك بالنقد أو بالطعام) يتم دفعه هدياً بالغ الكعبة أو لإطعام المساكين (أو الصيام إن تعذر دفع المثل).

والحكمة من ذلك - كما نظنها- تتمثل في أن تلك الثروة البرية (النعم) وإن لم تكن ملكية فردية لشخص بعينه إلا أنها ملكية خاصة لأهل تلك الديار التي يمر بها الحاج المحرم، ومادام أن الحجاج يأتون من كل فج

عميق، فليس لهم الحق في التعدي على ممتلكات الآخرين، لذا إن قام الحاج المحرم بقتل شيء من تلك النعم، فعليه أن يدفع تعويضاً لأهل تلك المنطقة لأنه تعدّى على ممتلكاتهم، وخاصة لفقرائهم الذين غالباً ما يعتاشون على ما تجني أيديهم ورماحهم لتوفير قوتهم وقوت عيالهم.

ولكن - بالمقابل- نجد الرخصة بالنسبة لصيد البحر مفتوحة (حتى وقت الإحرام) وذلك لأن البحر في رأينا- ليس ملكية فردية لأحد وهو ليس ملكية خاصة لأهل منطقة معينة وإنما هو ملكية عامة للجميع، لذا عندما تقوم أنت باصطياد شيء من البحر، فأنت لا تعتدي على ملكية الآخرين، والله أعلم.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الطير المتواجدة في جو السماء ليست من النعم وبالتالي لا يجوز اصطيادها وأكلها.

الدليل

لقد أحل الله لنا صيد البحر وحرم علينا صيد البر ما دمنا حرما؟

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: 96]

فلقد استوقفتنا هذه الآية الكريمة طويلاً لأنها أثارت تساؤلاً كبيراً جداً يتعلق بعبارة "صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ"، فما هو صيد البحر وما هو طعامه؟ والأهم من ذلك في رأينا هو لِم لَم تأتِي مفردة وَطَعَامُهُ مع صيد البر، فهناك صيد البر ولكن ليس هناك طعامه (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ) كما الحال بالنسبة للبحر (صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ)؟ فما المقصود بعبارة وَطَعَامُهُ التي جاءت في سياق الحديث عن صيد البحر ولم تأتِي في سياق الحديث عن صيد البر؟

رأينا: نحن نظن أن فهماً صحيحاً لهذا التركيب غير المتوازن بين سياق الحديث عن صيد البر من جهة وصيد البحر من جهة أخرى ربما تحل إشكالية عظيمة في الفكر الديني تخص كل ما يؤكل وما لا يؤكل من الكائنات الحية، ولكن كيف؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري القول أن كلمة الصيد التي وردت في هذه الآية هي المفتاح في هذا السياق القرآني الكريم، لأنها تدل على الفعل الذي نقوم به في البر والبحر، ففعل الصيد يقع في الحالتين في البحر وفي البر، ولكن في حين أنه يقع في البحر على كل ما فيه من كائنات حية، لا يقع فعل الصيد على كل الكائنات الحية المتواجدة في البر، فالصيد يقع على الفريسة التي يتم اصطيادها، لذا نحن نفتري الظن أن كل ما في البحر يمكن أن يكون فريسة، ولكن ليس كل ما في البر يمكن أن يكون فريسة، ولكن كيف؟

رأينا: لو تأملنا ما يجري في البحر لوجدنا أن الكائنات الموجودة في البحر تتغذى على بعضها البعض، فهناك الكائن المفترس (كالحوت مثلاً) وهناك الفريسة (كبقية الأسماك)، فالأسماك في البحر هي – دون أدنى شك- طعام للحيتان، ولكن العكس ليس صحيحاً، فالحيتان (مادامت حية) ليست طعاماً للأسماك الصغيرة، أليس كذلك؟ وهنا يأتي منطقنا الذي نحاول تسويقه على النحو التالي: لقد أحل الله لنا الفريسة والمفترس في البحر، وهو ما يمكن أن نفهمه نحن من عبارة (صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ)، فالآكل والمأكول من كائنات البحر يمكن أن نأكله.

إذا كنا نعرف صيد البحر، فما هو صيد البر؟

رأينا: البر هي الأرض اليابسة التي تقابل البحر ولا تشمل جو السماء:

- ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: 59]
- ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣﴾ [الأنعام: 63]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾ [الأنعام: 97]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾ [يونس: 22]
- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء: 67]
- ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ [الإسراء: 68]
- ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: 70]
- ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾ [النمل: 63]
- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: 65]
- ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: 41]
- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان: 32]

لاحظ كيف أن الله ينجينا من البحر إلى البر، وهو الذي يسيّرنا في البر، وهكذا، لذا لا أظن أن البر يشمل جو السماء.

نتيجة مفتراة: مادام أن البر لا يشمل جو السماء، لذا نحن نفتري القول أن صيد البر لا يكون إلا للكائنات التي تتواجد في البر (اليابسة) ولا تشمل بذلك الطيور التي تطير بجناحيها في جو السماء، لأن تلك الطيور هي أمم أمثالنا لا يجب أن نعتدي عليها.

باب الطيور التي تطير بجناحيها

سؤال: ما هي صفات تلك الطيور التي تطير بجناحيها في جو السماء؟

قال تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

نتيجة: فالطير متواجدة فوقنا، وهي من الصافات، وهي ممن يقبضن، وهن ممن لا يمسكهن إلا الله (الرحمن). وهي بلا شك ممن قد علم صلاته وتسبيحه:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

وهي بلا شك تقع ضمن نطاق الكائنات المسخرة:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

لذا لابد من الخوص في كل هذه الصفات للخروج باستنباطات (نسأل الله أن تكون) صحيحة حول ماهية هذه الكائنات.

أما بعد،

1. الطير فوقنا

سؤال: هل كل الطير متواجد فوقنا؟

جواب: لا، ليس كل الطير متواجد فوقنا، فهناك ما نسميه بالطيور الدّاجنة كالدجاج والديك الرومي التي لا تطير بجناحيها

سؤال: أين تتواجد الطيور التي فوقنا؟

رأينا: هي ليست في السماء وهي ليست في الأرض وإنما في جو السماء:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

أي ما بين السماء والأرض. فالله أكد في أكثر من موضع على ما بين السماء والأرض:

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: 17]

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]
- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85]
- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]
- ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾ [طه: 6]
- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء: 16]
- ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان: 59]
- ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشعراء: 24]
- ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم: 8]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ [السجدة: 4]
- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾ [الصافات: 5]
- ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾ [ص: 10]
- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: 27]
- ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ [ص: 66]
- ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾ [الزخرف: 85]
- ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾ [الدخان: 7]
- ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ [الدخان: 38]
- ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف: 3]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾ [ق: 38]
- ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾ [النبأ: 37]

2. الطيور التي في السماء ما يمسكهن إلا الرحمن

نحن نفتري الظن أن الإمساك هو عكس الحرية، فعندما تمسك بشيء فأنت تحد من حريته، ولابد للإمساك أن يحدث في مكان معين مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: 15]

فإمساك المرأة التي جاءت بفاحشة مبيّنة يكون في البيت، فلا يسمح لها بالخروج منه، ولو حاولنا ربط ذلك بقضية الطيور (والطعام بشكل عام) لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ [المائدة: 4]

فالله يأمرنا في هذه الآية الكريمة أن نأكل مما أمسك علينا (فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ)، فكيف يمكن أن نفهم أن الله قد أمسك علينا نوعاً من الطعام في الوقت الذي يقول عن الطيور التي تطير في جو السماء أنه ما يمسكهن إلا الرحمن؟

رأينا: إذا كان الإمساك كما نعتقد هو الحبس في مكان محدد، فإننا نظن أنه بالإمكان تقسيم الطيور إلى قسمين هما:

⇐ 1.الطيور التي تطير بجناحيها وهي الطيور التي ما يمسكهن إلا الرحمن، لذا لا يمكن أن تدجّن (أي أن تكون طيوراً بيتيه محبوسة في مكان بذاته) لتربيتها والاستفادة منها بالأكل

⇐ 2.الطيور التي أمسكها الله علينا، فكان تدجينها من الله لنا، فأصبحت طيوراً بيتيه يمكن أن تحبس في مكان محدد بذاته لتربيتها والاستفادة منها بالأكل، وهي التي لا تطير بجناحيها في جو السماء.

ولا شك عندنا أن من يمسك بشي هو من يستطيع أن يتصرف به:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج: 65]
- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: 41]

1.الطيور التي في السماء مسخرة (وليست مذلّلة)

والنوع الأول من الطيور التي لا تدجن والتي تطير بجناحيها هي طيور مسخرة بنص الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]

فما معنى أن تكون تلك الطيور كائنات مسخرة؟

جواب: لو استعرضنا التسخير في كتاب الله لوجدنا أن الله قد سخّر لنا ما في السموات والأرض؟

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]

سؤال: إذا كان الله قد سخر لنا ما في السموات والأرض، فهل نأكل كل ذلك؟

الجواب: لا يمكن أن نأكل ما هو مسخر لنا، فالله قد سخّر لنا الشمس والقمر والنجوم:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54]

وسخر لنا الليل والنهار:

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: 12]

وسخر لنا البحر:

- ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: 12]

وبنفس المنطق، يمكننا أن نقول أن الله قد سخر تلك الطيور التي في جو السماء:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

فالتسخير- نحن نفتري القول- لا يعني الأكل، وإنما القيام بوظيفة ما يستفيد منها الإنسان، وليس أدل على ذلك من هدهد سليمان، فالله قد علم سليمان ووالده داود من قبله منطق الطير:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

فكان الطير واحد من الأركان الأساسية الثلاث في جيش سليمان وهي الجن والإنس والطير:

- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: 17]

وقام سليمان بتفقد ذلك الجزء على وجه التحديد، فلم يجد الهدهد حاضراً حينئذ:

- ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: 20]

وذلك لأن ذلك الهدهد كان يقوم بوظيفته في الوقت الذي لم يكن حاضراً في الطابور التفقدي عند سليمان:

- ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: 22]

نتيجة مفتراة: لم يكن الهدهد (كواحد من الطير) متواجداً في جيش سليمان من أجل أن يكون طعاماً للجن والإنس، ولكنه كان من أمة (كما الجن والإنس) مثلنا، يقوم بوظيفة تُوكّل إليه من القائد سليمان. (وسنتعرض

لتفاصيل هذا الطائر عند الحديث عن سليمان في مقالات منفصلة بحول الله وتوفيقه، فنسأل الله أن ينفذ أمره بإرادته ومشيئته لنا الإحاطة بشيء من علمه)

النتيجة: إن الطرح السابق يوصلنا إلى الافتراء التالي: الطيور التي تطير بجناحيها هي كائنات مسخرة وليست كائنات مذلّلة لانّ الكائنات المذلّلة هي – نحن نفتري الظن- الكائنات التي تقوم بوظيفة ولكنها في الوقت ذاته يمكن الاستفادة من لحومها كطعام ويمكن أن تقدم لنا الشراب والمنافع أخرى، ولننظر إلى الدقة المتناهية كيف يصور الله لنا الأنعام في سورة يس:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 71-73]

فالأنعام قد ذللت لأنها لا تقوم فقط بوظيفة كحمل الأثقال، ولكنّنا نستفيد منها بحد ذاتها، ولكن بالمقابل يمكن القول أن ما سخره الله لنا لا نستهلكه بحد ذاته، فالبحر مثلاً قد سُخِر لنا لأننا نستفيد منه في وظيفة ما يؤديها لنا، وكذلك الشمس والقمر والشمس والنجوم، فكلها كائنات مسخرة لنا ولكن الله لم يذلّلها لنا كما الأنعام. وهذا يدعونا إلى أن نفهم أن الطيور المسخرة في جو السماء يمكن أن تقوم لنا بوظيفة ما، لكننا لا نأكلها نفسها.

الطيور التي في السماء صافات ويقبضن

عند الحديث عن الطيور التي في جو السماء، جاءت صفة الصافات ملازمة لتلك الكائنات كما في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

سؤال: ما معنى أن تكون تلك الكائنات صافات؟

جواب: لا بد أن نميز بين لفظين متشابهين وردا في كتاب الله وهما:

- 1.صفاً
- 2.صفاً صفاً

فعند الحديث عنا نحن البشر جاء الخطاب على نحو "صفاً" وكفى، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: 48]
- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 64]

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصف: 4]

بينما جاء الحديث عن الملائكة والملكُ على نحو صفاً وعلى نحو صفاً صفاً

- ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ [النبأ: 38]
- ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: 22]

سؤال: فما الفرق بين صفاً من جهة وصفاً صفا من جهة أخرى

رأينا: نحن نفتري القول أن صفاً تعني الاصطفاف بطريقة أفقية، فالجيش عندما يقاتل صفاً يكون هناك أكثر من صف ولكنهم وراء بعضهم البعض، بغض النظر عن عدد الصفوف التي يكوّنها، وعندما أتذكر الغرفة الصفية التي ندرس وندرس فيها، نجدها عبارة عن عدة صفوف وراء بعضها البعض ولكنها جميعها تشكل صفا واحد كالصف الخامس ب أو السادس ج، وهكذا.

ولكن عندما يكون الاصطفاف صفاً صفا فيكون ذلك- في رأينا- بطريقة أفقية و عامودية معاً، فهناك اصطفاف وراء بعضهم البعض ليكوّنوا "صفاً" وهناك اصطفاف فوق بعضهم بعضاً ليكونوا أيضاً "صفاً"، ولو تفقدنا آية الطير جيداً لوجدنا أنها تتحدث عن الاصطفاف فوقنا:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك: 19]

لذا يميل الاعتقاد إلى اليقين عندنا أن الطير والملائكة (على وجه التحديد) هم مقصود الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾ [الصافات: 1]

والسبب في رأينا يتمثل في أن الملائكة كما الطير هي كائنات أولي أجنحة:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾ [فاطر: 1]

نتيجة مفتراة: من يكون في هيئة الصافات صفاً (أو صفاً صفاً) هو من يملك أجنحة تمكنه من أن يكون على تلك الهيئة في الترتيب الأفقي و العمودي، أما من لا يكون أولي أجنحة مثلنا نحن البشر فهو لا يستطيع أن يصطف صفاً صفا ويكفيه أن يكون صفاً فقط.

عودة على بدء: ما قصة الطيور في كتاب الله؟

لا شك أن حديثنا في هذه السلسة من المقالات كان يتركز على عيسى بن مريم، لذا لا نتردد أن نطرح السؤال على النحو التالي: ما قصة الطير مع عيسى بن مريم؟ فلم كان عيسى يعمل من الطين كهيئة الطير على

وجه الخصوص لينفخ فيه؟ لِم لَم يكن يعمل من الطين كهيئة الكائنات الأخرى كالأنعام والدواب والوحوش والسبع والجوارح، إلخ؟

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]
- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]

فلا شك أن الخالق هنا هو عيسى بن مريم، أليس كذلك؟

السؤال: هل يعقل- يا ترى- أن يخلق عيسى كائنات لتعبده وتسبحه؟ ألا يعبد المخلوق خالقه؟

فها هو إبراهيم نفسه يتوجه إلى خالقه ليقر له بكل نعمة هو عليها:

- ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: 77-83]

فهل -يا ترى- كان عيسى (خالق ذلك الطير) هو من يهديه؟

- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء: 78]

رأينا: لا شك أن عيسى بن مريم لم يكن يخلق من الطير المكلفة التي تطير في جو السماء والتي هي أمم أمثالنا، ولكنه كان –نحن نظن- يخلق من الطير غير المكلفة التي لا تطير في جو السماء

منطق قولنا: لو كان عيسى يخلق من تلك الطيور التي تطير في جو السماء التي ما يمسكهن إلا الرحمن، فكيف به سيمسكهن هو نفسه، وكيف بالقوم سيتعرفون عليها (مادام أنها ستطير في جو السماء) وكيف بهم سيقرون له بذلك الخلق (مادام أن تلك الطيور ما يمسكهن إلا الرحمن).

رأينا: لا شك عندنا أن ما كان يقوم عيسى بخلقه كان يمكث مع القوم وليس فوقهم، فهي من الطيور التي يمكن أن تتعايش مع الناس، وهي كائنات مذلّلة للأكل وغير مكلفة بالعبادة، وهي ليست أمم أمثالنا، لذا لم تكن تدين لعيسى بن مريم بالربوبية. ولا تتوقف قصة الطير عند عيسى بن مريم، فها هو إبراهيم نفسه يتعامل مع الطير أيضاً. فما هو الطير الذي وقع في يدي إبراهيم؟

إبراهيم: يصر إليه أربعة من الطير

ربما لا تخفى قصة إبراهيم مع الطير على أحد، فإبراهيم يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وذلك ليطمئن قلبه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

تساؤلات حول طير إبراهيم

كيف استطاع إبراهيم أن يأخذ بتلك الطيور إن كانت أصلاً من النوع الذي ما يمسكهن إلا الرحمن؟ أي كيف صرّهن إبراهيم إليه؟ وكيف جعل إبراهيم على كل جبل منهن جزءا؟ وكيف عرف إبراهيم أن تلك الطيور التي وضع على كل جبل جزءاً منها هي نفسها التي جاءت إليه تسعى؟ وكيف دعاهن إبراهيم وهو الذي لم يعلّم منطق الطير كما كان الحال بالنسبة لداوود وسليمان؟ ولم كانت تلك أربعة طيور على وجه التحديد؟ لِم لَم تكن خمسة أو ثلاثة مثلاً؟ ولماذا جاءت تلك الطيور إبراهيم ساعية ولم تأتيه طائرة بجناحيها؟

هذه أسئلة سنحاول أن نتناولها جميعاً بشيء من التفصيل بحول الله وتوفيقه، لكننا سنبدأ بالتساؤل الأخير أولاً مادام أن النقاش يتحدث عن تميز أنواع الطير.

أولاً، لماذا جاءت تلك الطيور إلى إبراهيم تسعى عندما دعاها؟

ألا يجب أن تأتي الطيور إلى إبراهيم طائرة بجناحيها ما دام أنها أصلاً من الطير؟ لم جاءته تسعى ولم تأتي إليه طائرة بجناحيها؟

رأينا: لم تكن طيور إبراهيم من النوع الذي يطير بجناحيه (وإلا لجاءته طائرة) ولكنها كانت من الطيور التي لا تطير بجناحيه فجاءته ساعية، وهذا يدعونا إلى النبش في معنى مفردة السعي، لنفتري بعدها القول بأن السعي لا يكون إلا على الأرض.

الدليل

فها هي عصا موسى حية تسعى:

- ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: 20]

وهي هي حبال السحرة يخيّل للناس من سحرهم أنها تسعى:

- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه: 66]

وهذا رجل يأتي من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى من خطر مؤامرة ملأ فرعون:

- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝﴾ [القصص: 20]
- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: 20]

وهذا ولد إبراهيم يبلغ مع والده السعي:

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝﴾ [الصافات: 102]

وها هم المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم:

- ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾ [الحديد: 12]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [التحريم: 8]

وها هو فرعون نفسه يولي ظهره لموسى سعياً بعد أن أراه الآية الكبرى:

- ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝﴾ [النازعات: 20-22]

وها هو الأعمى يأتي النبي محمد وهو يسعى:

- ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾ [عبس: 8-10]

مراد القول: لا أظن أن كل هؤلاء جاءوا بطريقة الطيران، ولكني أظنهم قد جاءوا يمشون على الأرض بطريقة السعي، وهي - في رأينا- الحركة على الأرض التي تكون أسرع من المشي العادي ولكنها أقل من الركض - وأظن أنها طريقة الحركة التي يقوم بها الحاج أو المعتمر بين الصفا والمروة - وأتخيل بالضبط طريقة مشي الطيور البيتية الداجنة التي تحاول السير بطريقة سريعة، فلا تصل إلى درجة أن تكون راكضة، ولكنها أكثر سرعة من المشي العادي. ففيها حث للخطى.

نتيجة مفتراة: إن الطيور التي ذبحها إبراهيم ووضع على كل جبل منهن جزءاً لم تكن من النوع الذي يطير بجناحيه وإلا لجاءته تطير بجناحيها، ولكنها كانت من الطيور المدجّنة التي تسعى في الأرض فجاءته على تلك الشاكلة.

ثالثاً، لماذا كانت أربعة من الطير؟ لِم لَم تكن خمسة أو ثلاثة من الطير؟

رأينا: ولو تدبرنا السياق القرآني نفسه لربما خلصنا إلى إجابة على مثل هذا التساؤل:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

لو تأملنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن إبراهيم كان مأمورا أن يضع على كل جبل منهن جزءا، أليس كذلك؟

لهذا نحن نفتري القول أن عدد الطيور التي كان إبراهيم مأمور أن يصرهن إليه ويجعل على كل جبل منهن جزءاً كان أربعة جبال. فالمنطقة التي كان يتواجد فيها إبراهيم آنذاك هي منطقة محاطة بجبال أربعة، وهذا ينقلنا على الفور إلى دراسة جغرافية تلك المنطقة بالتفصيل، مبتدئين النقاش بالافتراء الخطير التالي:

افتراء من عند أنفسنا: إن المنطقة التي كان يتواجد فيها إبراهيم حينئذ هي المنطقة نفسها التي تواجد بها موسى من بعده، وهي نفسها المنطقة التي وضعت فيها مريم عيسى بن مريم، وهي نفسها التي أسري بمحمد ليلاً من المسجد الحرام إليها: إنها منطقة المسجد الأقصى.

وهذا الافتراء هو ما سنبدأ به الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيقه.

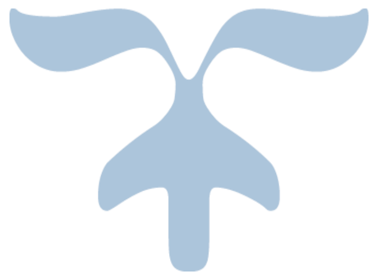
دعاء: فنسأل الله جلّ وعلى أن ينفذ كلمته بإرادته ومشيئته لي ولعلي الإحاطة بما لم يحط به غيرنا من علم، وأن يصطفينا بعلم من عنده لا يكون لغيرنا، فنسأله تعالى أن نعلم منه ما لا تعلمون، ونسأله أن يعلمنا الحق فلا نفتري عليه الكذب. إنه هو العليم الحكيم.



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء الرابع

أين هي جنة المأوى؟



الجزء الرابع: أين هي جنة المأوى

خلص الجزء السابق عند طرحنا التساؤل التالي حول طير إبراهيم: لماذا كانت أربعة من الطير؟ لِم لَم تكن خمسة أو ثلاثة من الطير أو أي عدد آخر؟

رأينا: ولو تدبّرنا السياق القرآني نفسه لربما خلصنا إلى إجابة على مثل هذا التساؤل:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

وخلصنا إلى القول أن إبراهيم كان مأموراً أن يضع على كل جبل منهن جزءا، وافترينا الظن بأن عدد الجبال التي كانت تحيط بإبراهيم آنذاك كانت أربعة جبال، فالمنطقة التي كان يتواجد فيها إبراهيم آنذاك –حسب زعمنا- هي منطقة محاطة بجبال أربعة، وقدمنا الافتراء الخطير التالي الذي هو بلا شك من عند أنفسنا:

افتراء من عند أنفسنا: إن المنطقة التي كان يتواجد فيها إبراهيم حينئذ كانت محاطة بأربعة جبال، وهي المنطقة نفسها التي تواجد بها موسى من بعده، وهي نفسها المنطقة التي وضعت مريم المسيح عيسى بن مريم فيها، وهي المنطقة نفسها التي أسري بمحمد ليلاً من المسجد الحرام إليها: إنها منطقة المسجد الأقصى.

الدليل

لقد أمر الله نبيه ورسوله إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير، فيصرهن إليه ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعهن ليأتينّه سعياً:

- ﴿... قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ ... ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

وقد تحدثنا في الجزء السابق عن معنى السعي، وزعمنا القول أن تلك الطيور لم تكن من النوع الذي يطير بجناحية وإلا لجاءت إبراهيم طائرة بدل أن تأتيه ساعية، فحركة تلك الطيور من أعلى الجبل إلى مكان تواجد إبراهيم بين الجبال الأربعة كانت بشكل السعي (أي المشي السريع على الأرض)، ونحن نطلب من القارئ الكريم أن يتخيل كيف تنحدر دجاجة مثلاً من أعلى الجبل إلى أسفله (فتلك هي حركة السعي، أي المشي السريع الذي لا يصل إلى درجة الركض):

- ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾ [الأنبياء: 12-13]
- ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص: 42]

فالإنسان عندما يشعر بالبأس (الخطر القادم إليه) يركض ولا يمشي أو يسعى.

- ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾ [الأنبياء: 12]

أما الجري فهو للأنهار وعيون الماء:

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: 25]
- ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠﴾ [الرحمن: 50]

وللريح:

- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ [الأنبياء: 81]
- ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: 36]

وللفلك في البحر:

- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22]
- ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾ [هود: 42]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١﴾ [لقمان: 31]

وللشمس والقمر والأفلاك السماوية:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد: 2]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: 29]

نتيجة مفتراة: الحركة على الأرض قد تكون مشياً

- ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]
- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]
- ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾ [السجدة: 26]

وقد تكون سعياً:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص: 20]

وقد تكون ركضاً:

- ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾ [الأنبياء: 12-13]

نتيجة: الطير التي أتت إبراهيم من على رأس الجبال كانت تتحرك سعياً (ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا).

لكن يبقى هناك عدة أمور يجب تجليتها قبل المضي قدماً في النقاش تتمثل في الأسئلة التالية:

1. كيف أخذ إبراهيم أربعة من الطير؟
2. كيف صرهن إليه؟
3. كيف جعل على كل جبل منهن جزءا؟
4. كيف دعاهن؟

السؤال الأول: كيف أخذ إبراهيم أربعة من الطير؟

رأينا: لقد ذكرنا في الجزء السابق أن إبراهيم قد كان مأموراً بأخذ أربعة من الطير، وقد افترينا القول أن ذلك كان من الطير الذي لا يطير بجناحيه لأن ذلك الطير من النوع الذي ما يمسكهن إلا الرحمن. ودلّلنا على ذلك بما ذكرناه سابقاً عن السعي، فزعمنا الظن أنه لو كان ذلك الطير الذي أخذه إبراهيم من النوع الذي يطير بجناحيه لأتاه طائراً عندما دعاه، ولكن لمّا كان ذلك الطير –حسب زعمنا- من النوع المدجّن الذي لا يستطيع أن يطير بجناحيه أتاه سعياً عندما دعاه.

ثانياً، نحن نظن أنه لو كان ذلك الطير من النوع الذي يطير بجناحيه لجاء الخطاب لإبراهيم على نحو أن يمسكه وليس أن يأخذ، فالطير الذي يطير بجناحيه لابد أن يمسك ولا يؤخذ فقط، فالله قد خاطب موسى بأن يأخذ عصاه:

- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: 21]

وأمره كذلك أن يأخذ الألواح:

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

وكذلك كان أخذ آل فرعون لموسى بعد أن ألقاه اليم بالساحل:

- ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 39]

ونحن نفتري الظن بأن الأخذ يتم لما هو موجود أصلاً على الأرض، فحتى العذاب عندما يقع يأخذ من على الأرض:

- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: 11]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102]
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: 14]

نتيجة مفتراة: لقد أخذ إبراهيم الطير أخذاً ولم يمسكهن إمساكاً، فكان ذلك من النوع الذي يتواجد بين الناس على الأرض كالدجاج ونحوه. ولم يكن من النوع الذي يطير في جو السماء التي ما يمسكهن إلا الله (الرحمن)

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]

السؤال الثاني: كيف صرّهن إليه؟ أو ما معنى أن يصرهن إبراهيم إليه؟

تحدثنا في مقالة سابقة لنا (لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟) عن معنى الصرة، وزعمنا القول أن الصرة هي ما يوضع داخل كيس (كحقيبة المسافر)، فامرأة إبراهيم (هاجر) كانت مقبلة على إبراهيم وضيوفه وهي تحمل صرة، وقد كانت قادمة إليهم من بعيد:

- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٩﴾ [الذاريات: 29]

افتراء من عند أنفسنا: إن الذي يهمنا هنا هو زعمنا بأن الله قد طلب من إبراهيم أن يصرّ إليه تلك الطيور لكي تموت خنقاً، وذلك بأن يضعها في صرة، فتموت مخنوقة، لأن الطلب جاء على نحو أن يريه كيف يحيى الله الموتى. وهذا ينقلنا على الفور إلى السؤال الثالث.

السؤال الثالث: كيف جعل على كل جبل منهن جزءاً؟

نحن نفتري الظن بأنه ما أن أخذ إبراهيم تلك الطير حتى صرهن إليه مباشرة، فالوقت بين الأخذ من جهة والصر من جهة أخرى كان قصيراً بدليل وجود حرف الجر "ف" وعدم وجود حرف الجر "ثم" بينهما:

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ... ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

وما أن يأخذهن إبراهيم ويصرهن إليه حتى يصعد الجبل الأول ليضع جزءاً منهن عليه، لينتقل بعد ذلك إلى الجبل الثاني والثالث والرابع، فاستغرق ذلك وقتاً من الزمن، لذا جاء هنا حرف الجر "ثم" سابقاً لجعلهن على الجبال:

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ... ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

ثم، ينزل إبراهيم من رأس آخر تلك الجبال إلى الملتقى بين تلك الجبال الأربعة ليدعو الطير من هناك، فيتطلب منه ذلك قسطاً من الزمن، فهناك فترة زمنية بين جعلهن على الجبال والنزول إلى أسفل الجبال لدعوتهن بدليل وجود حرف الجر "ثم" هنا أيضاً:

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ... ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

ولكن ما أن دعاهن إبراهيم حتى أتينه سعياً على الفور فغاب حرف الجر "ف و غاب حرف الجر "ثم" هنا:

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ... ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

فالفترة الزمنية بين الدعوة والإتيان كان معدومة، ودل على ذلك –حسب زعمنا- غياب حرف الجر "ف" وغياب حرف الجر "ثم"، لذا يمكن ترتيب طول الفترة الزمنية التي استغرقها إبراهيم للقيام بكل واحدة من تلك الأفعال على النحو التالي:

- 1.عدم وجود فاصل زمني، ويدل على ذلك عدم وجود حرف جر كما في "ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا"
- 2.وجود فاصل زمني قصير، يدل عليه وجود حرف الجر "ف" كما في " فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ "

➢ 3.وجود فاصل زمني طويل بعض الشيء، ويدل عليه وجود حرف الجر "ثم" كما في " فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ "

لكن يبقى السؤال هنا قائماً: كيف جعل إبراهيم على كل جبل منهن جزءاً؟

الرأي السائد: غالباً ما ظن كثير من أهل العلم والدراية أن إبراهيم قد قام بتقطيع تلك الطير ليجعلها أجزاءاً متفرقة على تلك الجبال.

رأينا: نحن نفتري الظن أن إبراهيم لم يقم بتقطيع تلك الطيور إلى أجزاء متفرقة وإنما قام بوضع كل طير كوحدة واحدة على واحدة من الجبال، وهكذا. فلقد كانت الطيور كلها مصرة إلى إبراهيم، فقام بوضع واحدة منها على الجبل الأول، وأخرى على الجبل الثاني، والثالثة على الجبل الثالث، والرابعة على الجبل الرابع، فكان إبراهيم يعرف الطير الذي وضعه على الجبل الأول، ويعرف الطير الذي وضعه على الجبل الثاني، والثالث، والرابع، فهو يتوقع – نحن نتخيل- أن تأتيه الدجاجة مثلاً عن الجبل الأول، وأن يأتيه الديك مثلاً عن الجبل الثاني، والبطة عن الجبل الثالث، والوزة عن الجبل الرابع، وذلك – في رأينا- يقلل من فرص أن يحدث ذلك بالصدفة. فيكون دليلاً على صدق قدرة الله على إحياء الموتى.

ثانياً، نحن نعلم أن الطير قد جاءت إبراهيم تسعى، لذا فقد كانت مكتملة التكوين، فالسعي لا يتم – حسب ظننا- إلا لمن كان مكتملاً، فيستحيل أن تكون تلك الأجزاء قد تجمعت من الجبال المتقابلة قبل أن تأتي إبراهيم ساعية. فما أن دعاها إبراهيم حتى أتته تلك الطير تسعى، فلم يكن هناك وقت لكي تتجمع أولاً لتأتي ساعية بعد ذلك، وذلك لأن مفردة الجزء تعني – في ظننا- تقسيم الكمية وليس تقسيم الشيء نفسه، وربما يصدق ظننا هذا ما جاء في قوله تعالى عن الجزء في أماكن أخرى من كتابه الكريم:

- ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: 44]
- ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: 15]

فالناس عندما ينقسموا إلى أجزاء لدخول أبواب جهنم (أو حتى أبواب الجنة) فهم ينقسموا كمجموعة، لكن لا يتم انقسام الواحد منهم إلى أشلاء متفتتة، فالواحد يدخل ككينونة متكاملة، ولكن القسمة إلى أجزاء تكون للمجموعة، وبهذا المنطق نفهم أن إبراهيم الذي كان يملك مجموعة من الطير (أربعة) كان مطلوب منه أن يقسمها إلى أجزاء، لذا فهو قد قام بتقسيم المجموعة، ولكنه لم يعمد – في ظننا- إلى تقسيم الطير الواحد إلى أجزاء متفتتة، وهذا ما سنحاول إثباته بحول الله بعد قليل.

والأهم من ذلك كله هو النظر إلى الأمر من زاوية طلب إبراهيم، فهو يطلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى، أليس كذلك؟

والآن لنقارن طلب إبراهيم هذا بطلب الرجل الذي يمر على تلك القرية الخاوية على عروشها، عسى الله أن يفتح علينا بشيء من علمه.

أما بعد،

إبراهيم يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بينما يطلب ذلك الرجل من ربه أن يريه كيف يحيي تلك القرية بعد موتها، فما الفرق؟

فهذه قصة الرجل الذي يطلب من ربه أن يريه كيف يحيى القرية بعد موتها ترد في الآية 259 من سورة البقرة، قال تعالى:

- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]

وتأتي في الآية التي تليها مباشرة (البقرة 260) قصة إبراهيم في طلب إحياء الموتى من ربه، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

ولو تدبرنا السياقين جيداً لوجدنا أنهما يتحدثان عن إحياء الموتى باختلاف واحد بسيط، فإبراهيم يطلب من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، ولكن ذلك الرجل يستغرب كيف يحيي الله القرية بعد موتها. وهذا يدعونا إلى تقديم الافتراء التالي الذي هو من عند أنفسنا: هناك فرق بين إحياء الشيء الميت وإحياء الشيء بعد موته.

فعيسى ابن مريم كان يحيي الميت ولكنه لم يكن يحيي الشيء بعد موته:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]
- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]

ونحن نظن ذلك لأنه لو كانت عند عيسى القدرة على إحياء الشيء بعد موته، لربما جاء طلب القوم منه أن يحيي لهم آباءهم وأجدادهم، ولكن كانت جلّ قدرة عيسى –حسب زعمنا- تتمثل في أن يحيى من كان

قد مات للتو ولم يكن قد تفتت أجزاءه، أي من لازال حديث العهد بالموت، ولازال جسده كتلة واحدة. وهكذا كان حال من طلب الله منهم ذبح البقرة:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: 73]

فلقد كانت جثة (لنقل تجاوزاً) ذلك المغدور غير متحلّلة بعد، وإلا لجاء الخطاب على أن الله يريهم كيف يحيي ذلك الجسد بعد موته كما كان الحال بالنسبة لمن طلب من الله أن يريه كيف يحيي القرية بعد موتها. فلو تدبرنا قصة ذلك الرجل على وجه التحديد جيداً لوجدنا أن الله لا يريه إحياء الموتى فقط وإنما الأحياء بعد الموت، لذا فلقد أراه كيف ينشز العظام ثم يكسوها لحماً:

- ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

فنشز العظام (إي بعثها وتجميعها) وكسوتها باللحم فذاك أمر يتم –حسب رأينا- لمن كان قد وصل إلى درجة ما بعد الموت، ولكنه لا يحصل لم كان في حالة الميت فقط (أي من لازال كتلة واحدة لم يتحلل بعد). وليس أدل على ذلك من إحياء الأرض بعد موتها:

- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: 164]
- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥﴾ [النحل: 65]
- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت: 63]
- ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾ [الروم: 19]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤﴾ [الروم: 24]
- ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم: 50]
- ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: 9]

- ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية: 5]
- ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد: 17]

نتيجة مفتراة: لمّا كان إحياء الأرض يتم بعد موتها، فنحن نستطيع أن نراقب حركة حياتها خطوة بخطوة منذ أن تكون بذرة في الأرض حتى تصبح زرعاً مستوياً على سوقه، وهكذا سيتم بعث الناس من قبورهم يوم القيامة لحظة أن ينفخ في الصور: " فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ".

افتراء من عند أنفسنا: لم يكن عيسى بن مريم يستطيع أن يحيي الأرض لأن ذلك إحياء من بعد الموت، ولكن جل قدرته كانت تتمثل في إحياء الموتى فقط، لذا نحن نفتري الظن أن هناك فرق بين أن يكون الإنسان ميّتاً أو أن يكون قد وصل إلى حالة ما بعد الموت، فمادام أنه ميتاً فإن علماً كعلم عيسى أو ضربة كضربة ببعض البقرة يمكن أن تحيه، وسنتعرض لقصة البقرة في مقالة منفصلة بحول الله وتوفيقه عند الحديث عن موسى.

فالله تعالى أسأل أن يأذن لي بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب.

ولكن إن وصل إلى حالة ما بعد الموت، فإن الله وحده هو القادر على ذلك، فلا علم عيسى ولا ضربة ببعض البقرة يمكن أن تؤدي الغرض.

السؤال الرابع: كيف دعاهن؟

نحن نفتري الظن أن إبراهيم قد وضع كل واحدة من تلك الطيور على جبل، وكانت تلك الطيور ميتة (ولكنها لم تصل إلى درجة ما بعد الموت)، لذا فإن إبراهيم لن يرى ما راءاه ذلك الرجل الذي مر على القرية ما دام أن طلب إبراهيم كان فقط أن يريه الله كيف يحيي الموتى، ولم يكن طلبه على نحو أن يريه كيف يحيها بعد موتها، فلو كان طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيها بعد موتها، لكانت –نحن نفتري القول- تلك الطيور مفتتة، و لربما كان إبراهيم واقفاً فوقها لحظة أن دبت فيها الحياة ليريه الله كيف ينشز العظام ثم يكسوها لحماً، ولكن لمّا كان طلب إبراهيم هو أن يريه كيف يحيي الموتى فقط، كانت تلك الطيور لازالت كل واحدة منها كتلة واحدة متماسكة لم تتحلل بعد، وكان جل ما فعله إبراهيم هو أن يدعوها، وعندما فعل ذلك، أتته سعياً.

لكنّ مثل هذه التخريصات - التي هي بلا شك من عند أنفسنا- تثير التساؤل التالي: كيف دعاهن إبراهيم؟ أي كيف كانت ماهية دعوة إبراهيم لتلك الطير بعد أن وضع على كل جبل منهن جزءاً، ونزل هو إلى ملتقى تلك الجبال ليدعوهن؟ فهل يا ترى تم ذلك بالمناداة؟

رأينا: نحن نزعم الظن أن دعوة إبراهيم لتلك الطيور لم تتم بالمناداة للأسباب التالية:

⇐ 1.تلك الطيور – كما زعمنا- ليست من الطيور التي تطير بجناحيها، لذا فهي ليست أمم أمثالنا، وليس لها منطق (أي لغة).

⇐ 2.إبراهيم لم يعلّم منطق الطير (كما علم داوود وولده سليمان) حتى يستطيع أن يفعل ذلك بالمخاطبة.

الدليل

ربما لا نحتاج إلى كثير عناء أن نثبت أن إبراهيم لم يُعلَّم منطق الطير، فسليمان ووالده داوود هم من كانوا يعلمون كيف يخاطبون الطير:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

ولا أظن أن هناك دليلاً واحداً في كتاب الله يشير من قريب أو بعيد إلى أن إبراهيم كان قادراً على مخاطبة الطير بمنطقها (أي لغتها). لذا، لا نتردد أن نطرح السؤال على الدوام: كيف إذن دعا إبراهيم تلك الطير؟ كيف تمت مخاطبة ذلك الطير حتى لبّت دعوة إبراهيم لها؟

رأينا: يمكن أن نفهم ذلك بحول الله وتوفيقه إن نحن ركزنا على المفردة نفسها، وهي مفردة الدعوة، فإبراهيم لم يخاطب الطير، وهو لم يناد عليها، ولم يبتهل إلى الله أن يبعثهن إليه، ولكن جل الذي فعله هو أنه دعاهن، فالخطاب القرآني واضح لا يقبل التبديل:

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا

لذا، نحن بحاجة أن نتفكر في معنى مفردة " ٱدْعُهُنَّ "، عسى الله أن يأذن لنا بشيء من علمه لنفهم كيف حصل الأمر على أرض الواقع.

أما بعد،

كيف تتم الدعوة؟

لا شك عندنا أن الدعوة يمكن أن تنقسم في البداية إلى قسمين متضادين وهما:

⇐ 1.دعوة إلى الله

- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ [الإسراء: 110]

⇐ 2.دعوة إلى من دون الله

- ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾ [النساء: 117]

ولا شك عندنا أن الله هو الذي يُجيب الدعوة:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

وذلك لأن الله له دعوة الحق:

- ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد: 14]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: 62]

ولكن لما كان الذين يدعون من دون الله يتبعون الظن (وليس الحق):

- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾ [يونس: 66]

كانوا لا يستطيعون استجابة الدعاء:

- ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ [الأعراف: 194]
- ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: 197]
- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء: 56]
- ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾ [الحج: 12]
- ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج: 13]

ولكن استجابة الله للدعاء مرتبطة بمشيئته:

- ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ۝٤١﴾ [الأنعام: 41]

ودعوة الله تتطلب الإخلاص له بالدين:

- ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ [الأعراف: 29]

ودعوة الله تكون على نحو تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً:

- ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: 55]
- ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣﴾ [الأنعام: 63]

وعلى نحو خوفاً وطمعاً:

- ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56]
- ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ [السجدة: 16]

وعلى نحو رغبا ورهباً:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

ودعوة الله تكون باسمه الأعظم أو بأسمائه الحسنى:

- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ۝١١٠﴾ [الإسراء: 110]
- ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: 180]

(للتفصيل حول قضية الدعاء انظر مقالتنا تحت عنوان صلاة الاستسقاء)

إن الذي يهمنا هنا هو طريقة (أو آلية) الدعوة، أي كيف تتم الدعوة؟

جواب: غالباً ما ظن الناس أن الدعوة تتم بالكلام المباشر من الداعي إلى المدعو، فنوح قام بالدعوة بالكلام:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠﴾ [نوح: 5-10]

فلا شك عندنا أن القوم كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا دعوة نوح لهم. ولكن يبقى السؤال قائماً: هل تتم الدعوة فقط بالكلام المباشر من الداع إلى المدعو؟

جواب: كلا، نحن نظن أن الدعوة قد تتم دون الحاجة إلى الكلام (المنطق) إطلاقاً، فها هو الشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير:

- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: 6]
- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

فكيف كانت دعوة الشيطان لمن استجاب دعوته؟ هل فعلاً حصلت مخاطبة مباشرة بين الشيطان ومن استجاب دعوته؟

الجواب: كلا، لأن الشيطان يحدث ذلك بطرق مختلفة، كالوسوسة كما حصل مع آدم وزوجه:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

والله تعالى قد أعطى الرخصة لإبليس أن يستفزز من الناس من يستطيع بصوته وأن يجلب عليهم بخيله ورجله:

- ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ [الإسراء: 64]

نتيجة: نحن نفتري الظن بأن الدعوة قد تكون بالصوت أو بالوسيط كالخيل والرجل كما في حالة دعوة الشيطان للناس.

وربما ينطبق مثل هذا الظن على دعوة الناس بعضهم البعض، فهم قد يدعون بعضهم البعض بالصوت (المنطق) وقد يكون بالوسيط، فها هي ابنة شعيب مثلاً تنقل دعوة أبيها إلى موسى:

- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصص: 25]

إن مراد القول هو أن شعيب لم يخاطب موسى مباشرة، وأن موسى لم يسمع كلاماً مباشراً من شعيب، ولكن بالرغم من ذلك فهي تعتبر دعوة من شعيب إلى موسى، فلا يتردد الأخير في تلبية دعوة الأول.

وها هي النار نفسها تدعو من أدبر وتولى:

- ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝﴾ [المعارج: 15-17]

فالأصم قد لا يسمع الدعوة إن كانت كلامية (صوتية):

- ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: 45]

ولكنه قد يسمع الدعوة إن لم تكن كلامية مادام أنه ينظر جهة الداع (أي غير مدبر عنه):

- ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝﴾ [النمل: 80]
- ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝﴾ [الروم: 52]

نتيجة مفتراة: ليس شرطاً أن تتم الدعوة بالكلام المباشر (المنطق)، لذا نحن نفتري القول أنه لمّا كان إبراهيم قد دعا الطير لم يكن ذلك بالكلام المباشر (المنطق) وذلك لأن ذلك الطير لم يكن من النوع الذي له منطق (لأنه لم يكن من النوع الذي يطير بجناحيه) ، ولأهم من ذلك لأن إبراهيم نفسه لم يُعَلّم منطق الطير حتى يستطيع أن يخاطبه بمنطقه.

سؤال: إذا كان إبراهيم لم يدع الطير بطريقة الخطاب (المنطق) كما تزعم، فكيف فعل ذلك؟

جواب: نحن نزعم القول أن الدعوة المستجابة يجب أن تتم بمنطق المدعو وليس بمنطق الداع. ولكن كيف؟

أما بعد،

لا شك عندنا أنه عندما تريد أن توصل رسالة (دعوة) إلى شخص ما، فإنك تحاول أن تجعل تكل الرسالة واضحة له ليفهم رسالتك (دعوتك) فيلبيها بالطريقة التي ترغب. لذا فإن إبراهيم – لا شك عندنا– قد دعا تلك الطير بطريقة يمكن لتلك الطير نفسها أن تفهم الدعوة لتلبي رسالة (دعوة) إبراهيم لها.

- ف لكي يتمكن الشيطان من إيقاع الناس في شركه، فلابد أن يوصل دعوته لهم بطريقة يستطيعون هم أن يفهموها، وإلا لمّا كانت الاستجابة منهم إلى دعوته حاصلة.
- ولو جاءت ابنة شعيب إلى موسى وخاطبته بطريقة لا يفهمها موسى، لما استطاع أن يلبي الدعوة إلى بيت والدها، و لربما أخطأ في تفسير رسالتها وفعل شيئاً آخر.
- وتستطيع أن تسمع الصم دعوتك شريطة أن لا يكونوا مدبرين، لأن الأصم يحتاج إلى أشارة يراها بعينه، فلا يفيدك أن تصرخ بأعلى صوتك لتسمع أصم مادام أنه لا ينظر جهتك:

- ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝﴾ [النمل: 80]
- ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝﴾ [الروم: 52]

أما إن كان غير مدبر، فأنت تستطيع أن تستخدم طريقة في الدعوة يمكن للمدعو (الأصم) أن يفهمها.

إن ما يهمنا بالموضوع هو القول بأنك لا تستخدم طريقتك أنت (الداع) لكي تدعو الأصم مثلاً، ولكنك تستخدم طريقته هو (أي المدعو).

نتيجة: أنت تستطيع أن توجه الدعوة (وإن لم تكن كلامية) شريطة أن تأخذ بعين الاعتبار قدرة المدعو على فهم تلك الدعوة.

افتراء من عند أنفسنا: يقودنا مثل هذا المنطق (على ركاكته) إلى الافتراء بأن إبراهيم قد دعا تلك الطير بطريقة يمكن لذاك الطير أن يفهمها ليستطيع بعدئذ أن يلبي دعوة إبراهيم على الفور، فما هي تلك الطريقة؟

جواب: لو استعرضنا السياق القرآني نفسه مرة أخرى وأثرنا هذا السؤال حوله، لوجدنا شيئاً أظن أنه غاية في الغرابة، ولكن كيف؟

ها هو إبراهيم يطلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى وذلك ليطمئن قلبه إبراهيم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

وها هو رب إبراهيم يرد على طلب نبيه منه بأن يأخذ أربعة من الطير فيصرهن إليه ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهن:

- ﴿...قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

التساؤل: مادام أن إبراهيم لا يعرف منطق الطير، ومادام أن الله يطلب من إبراهيم أن يدعوهن، فلم إذن لم يطلب إبراهيم من ربه استفساراً حول كيفية أن يدعوهن؟ أي لِمَ لَمْ يرد إبراهيم على ربه بالقول: وكيف سأدعوهن وأنا لا أعرف منطقهن؟

جواب: لم يفعل إبراهيم ذلك (أي لم يطلب من ربه توضيحاً عن كيفية أن يدعوهن) لأنه بكل بساطة كان –حسب ظننا- يعرف كيف يدعو ذلك الطير. فلو كان إبراهيم لا يعرف كيف يدعو ذلك الطير لما تردد – نحن نفتري القول- أن يطلب توضيحاً من ربه عن الكيفية.

استراحة قصيرة

لو عدنا إلى قصة بني إسرائيل الشهيرة حول حادثة ذبح البقرة، لربما تجلت الصورة حول هذه الجزئية بشكل أكثر، فغالباً ما سوّق أهل العلم والدراية أن بني إسرائيل كانوا كثيرين الجدال، وغالباً ما اقتبسوا قصة البقرة للتدليل على زعمهم ذاك، فهم يرددون القول أن بني إسرائيل ما كفوا عن إتباع السؤال بالسؤال حول ماهية تلك البقرة، فكان ذلك – حسب ظن أسلافنا الكرماء- تضيقاً من بني إسرائيل على أنفسهم.

ونحن إذ لا نريد أن ندخل هنا في جدلية هذا الموضوع، إلا أننا نرغب أن نثير سؤالاً واحداً فقط إن صح ما زعم من سبقونا، ألا وهو: لِمَ لَمْ يجادل بنو إسرائيل نبيهم عندما أمرهم بأن يضربوا المغدور ببعض البقرة:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: 73]

إن مراد قولنا هنا هو: لِمَ لَمْ يتبع بنو إسرائيل هنا الأمر بالسؤال عن بعض تلك البقرة؟ أي لِمَ لَمْ يسألوا نبيهم عن بعض تلك البقرة التي سيضربون به المغدور منهم إن كان ديدنهم كما يزعم أهل العلم والدراية هو الجدال؟ لم توقف جدالهم هنا بالرغم أنه المكان الذي من المتوقع أن يستمر طرح الأسئلة حوله؟ ألم نختلف نحن في معنى ذلك البعض؟

رأينا: نحن نفتري القول أنه لو صح ما قاله الأقدمون (ولحقهم في ذلك المحدثون)، لكان الأولى ببني إسرائيل أن يسألوا نبيهم عن ذلك البعض. ونحن نتخيل الموقف على النحو التالي: فلو أخبرهم أن ذلك البعض هو رِجْلُها مثلاً، لربما سألوه عن أي الرجلين يقصد: اليمنى أم اليسرى؟ ولو قال لهم أن ذلك البعض هو يدها، لطرحوا سؤالاً حول نفس الإشكالية، ولو قال لهم أنه ذيلها، لربما جادلوا نبيهم في أنه لم يكن هناك أصلاً حاجة أن تذبح البقرة ولربما فعلوا ذلك (أي قطع الذيل) وهي لازالت حية؟ ولو كان جوابه على نحو أنه رأسها، لربما سألوه عن كيفية أن يضربوا الميت برأس تلك البقرة، وهكذا.

رأينا: ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة، فصحيح أن بني إسرائيل تلكأوا في ذبح البقرة، ولكن ذلك كان خوفاً من أن تنكشف الحقيقة التي يحاولون أن يخفوها (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَاۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢)، وكان هدف أسئلتهم (خاصة من كان منهم يريد كشف الحقيقة) هو معرفة الكيفية التي يجب أن ينفذ بها الفعل، بينما كان هدف من أراد إخفاء الحقيقة هو إعاقة القيام بالفعل، فقد كان يسأل من أراد الحقيقة لكي يعلم، ولكن الغريب في الحادثة هو ما حصل عندما طلب منهم أن يضربوه ببعضها، فلم يحاول أحد منهم أن يستفسر عن ذلك البعض، وذلك - برأينا- لسبب بسيط وهو أنهم كانوا يعرفون ما هو بعض البقرة. ولو لم يكونوا يعرفون ما هو بعض البقرة لما ترددوا – نحن نفتري الظن- عن طرح السؤال، لا بل وإتباع السؤال بالسؤال.

(وسنحاول أن نبين في مقالة منفصلة ما هو بعض البقرة التي ضرب بها بنو إسرائيل المغدور منهم في مقالة خاصة عند الحديث عن قصة موسى بحول الله وتوفيقه.)

فالله أسأل أن يصطفيني بعلم من عنده لا ينبغي لأحد غيري إنه هو السميع المجيب

نتيجة مفتراة: إن مرادنا من القصة السابقة هو الخروج بالاستنباط البسيط التالي: عادة ما يتم طرح السؤال لاستكشاف المعلومة التي لا تعرف، ولكن إن كنت أنت تعرف المعلومة فلن تقحم نفسك في سؤال وجواب حولها.

عودة على بدء

لذا، نحن نفتري القول أنه لمّا كان إبراهيم يعرف كيف يدعو ذلك الطير الذي وضعه على تلك الجبال وقد كان قد صره إليه من قبل لم يكن بحاجة أن يستجلي من ربه عن كيفية دعوتهن.

فكيف دعا إبراهيم ذلك الطير؟

جواب: نحن نفتري القول أن إبراهيم ما كان ليخرج عن نواميس الكون وسنن الله في خلقه، فإبراهيم يعرف كيف يدعو الطير الذي يعيش حوله (المدجن)، وأظن أنه ما قام بأكثر من ذلك. ولكن كيف؟

قصة شعبية

نحن من سكان القرى (أو الأصح من أهل البداوة) الذين نادراً ما وطئت أقدامهم "المدينة" إلا بعد أن أنهوا تعليمهم المدرسي وانتقلوا إلى التعليم الجامعي، وكنا على الدوام نشاهد كيف كانت نساء الحي يقمن بتربية الدواجن في البيوت الريفية، وكيف كانت تقوم كل واحدة من أولئك النسوة بدعوة دجاجها إليها عند الحاجة، فهي تقوم بحمل الطعام لتنثره في مكان محدد على الأرض، وهي تصدر بعض الأصوات "الدجاجية" (أي أصوات خاصة بالدجاج تختلف عن تلك الخاصة بالحمير أو البقر ونحوها)، وما هي إلا لحظات حتى تتسابق تلك الطير إلى صاحبتها، فيتحلقن حولها، ليلتقطن ما قدّمت لهن صاحبة البيت من طعام وشراب، ولا زلت أذكر تلك القصة الشعبية التي رووها لنا (فنحن لا نتحمل مسؤولية صدق الرواية) عن بيت أحد الأقارب الذي كان متزوجاً من سيدتين، وكان لكل واحدة منهن بضع دجاجات (ولكن كان هناك ديك واحد مشتركاً)، وعندما يتم تقديم الطعام (أو العلف كما نسميه في منطقتنا) للدجاج، تتحلق الدجاجات كل حول صاحبتها، فلا تعتدي دجاجة على علف جاراتها، ويبقى الديك فقط حراً يأكل من الطرفين (فهو مشترك)!!!

نعم، أظن أن دعوة إبراهيم لم تكن أكثر من تقديم الطعام لتلك الطير بالطريقة التقليدية، فما أن نزل إبراهيم إلى الملتقى بين تلك الجبال حتى قام بنثر الطعام (الأكل) لتلك الطير كما كانت عادته اليومية على الدوام، وهناك لم تتردد تلك الطير عن تلبية دعوة إبراهيم لهن بأمر من رب إبراهيم الذي هو يحيي الموتى، فأتته تلك الطير تسعى.

نتيجة مفتراة: بعد هذا السرد الطويل المفترى ربما نستطيع تلخيص ما حصل مع إبراهيم بالسطور القليلة التالية:

إبراهيم يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئن قلبه، فيرد الله على إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير التي كان يربيهن هو في بيته (حوله)، فنحن نتخيل أن إبراهيم كان يربي الكثير منها حوله، فطلب الله منه أن يأخذ أربعة منهن (فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ) فقط وليس كل الطير المتواجد حوله حينئذ، فيقوم بصرهن إليه (أي خنقهن) لينهي الحياة فيهن، ثم يقوم بتوزيع كل واحدة من هنّ على واحد من الجبال التي حوله (وهي

أربعة جبال)، ثم يقوم بعد ذلك بدعوة تلك الطير بالطريقة المعهودة (أي بتقديم الطعام وإصدار الأصوات الخاصة بتلك الكائنات)، فما تتردد تلك الطير بأمر من ربها أن تلبي دعوة إبراهيم لتأتيه ساعية، أي مستعجلة طالبة رزقها كما كانت تفعل قبل أن يقوم إبراهيم بصرهن إليه (أي ينهي حياتها الأولى).

سؤال: أين حدث كل ذلك؟ في أي مكان حصلت تلك القصة؟

لا شك أن هذا السؤال يعيدنا إلى قصة إبراهيم الأولى خاصة هجرته إلى ربه بعد أن أنجاه من نار قومه، وقد تحدثنا عن جزء من تلك القصة في سلسة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟ لذا ندعو القارئ الكريم إلى مراجعة ما جاء في تلك المقالة حول قصة هجرة إبراهيم إلى ربه، وكان من بين افتراءاتنا السابقة زعمنا أن إبراهيم قد خرج من نار قومه، فاتخذ قراره بالهجرة مباشرة إلى ربه، ولم يرجع إلى قومه لأن العذاب كان قد نزل. فكانت وجهته من الشرق إلى الغرب، فقصد بيت المقدس وذلك لظن إبراهيم أنه سيجد ربه هناك:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]

وزعمنا القول أنه لو كان رب إبراهيم متواجد في المكان الذي أشعلت فيه النار لإحراق إبراهيم لما جاء قول إبراهيم على نحو أنه مهاجر ربه، وذلك لأن "الهجرة إلى" يتطلب الانتقال من مكان إلى مكان آخر.

فإبراهيم قصد الهجرة إلى ربه ليجده في مكان غير المكان الذي انطلق منه (كلام خطير جداً، أليس كذلك؟)

فأين يا ترى حط بإبراهيم الترحال؟

- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]

ويميل الظن عندنا إلى الاعتقاد اليقيني أن قصة إبراهيم مع الذي حاجه في ربه قد حصلت بعد هجرته إلى ربه:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة: 258]

فإبراهيم لم يعطى الفرصة من قومه ليحاج غيرهم بعد أن نكّل بأصنامهم، فما أن أقام الحجة على قومه بتجذيذ تلك الأصنام حتى اتخذوا قرارهم بإلقائه في النار، فنجّاه الله منها، وهاجر إلى ربه، وما أن يصل إلى المدينة-وقد ذكرنا سابقاً أن مفردة المدينة في النص القرآني تعني العاصمة السياسية التي يتواجد فيها الحاكم، أما القرية فقد تكون أكبر من المدينة في الحجم إلا أنها لا تكون عاصمة سياسية، فمكة قرية ولكن المدينة المنورة هي المدينة لأنها كانت العاصمة السياسية للدولة الإسلامية الأولى. لمزيد من الأدلة أنظر لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه؟ - التي كان يتواجد فيها لوط معه هناك، حتى التقى إبراهيم بذلك الرجل (الحاكم) الذي حاجه في ربه، وهناك فقط عاد شيء من الشك إلى قلب إبراهيم بعد حجة ذلك الرجل

بأنه هو أيضاً يحي ويميت. وما أن اختلى إبراهيم بنفسه حتى توجه إلى ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وذلك ليطمئن قلبه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

ونحن نفتري الظن أن إبراهيم (كما ذكرنا في مقالة سابقة) قد ترك لوطاً في تلك المدينة، فهم الذين جاءوا لوطاً مستبشرين بضيوفه:

- ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]

وأنتقل إبراهيم بأهله إلى مكان آخر، فالعذاب الذي نزل على قوم لوط لم يقع على إبراهيم وقومه، وهناك حصلت دعوة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى. فأين يا تري يقع ذلك المكان؟

لو تدبرنا قصص الأنبياء جميعاً الذين ذهبوا لملاقاة ربهم (وهم إبراهيم وموسى ومحمد) لوجدنا أن اللقاء كان في موعد محدد بالزمان والمكان. فالله واعد موسى في مكان محدد، وأسري بمحمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (انظر مقالتنا تحت عنوان أين حصلت مناداة الله نبيّه موسى)، وقد افترينا الظن في أكثر من مقالة سابقة لنا أن المكان هو نفسه، وزعمنا أيضاً أنه المكان الأول الذي كان هو جنة المأوى، أي جنة آدم الأولى على الأرض، وهي الجنة التي أخرجه الله منها يوم أن وقع في مكيدة الشيطان، وانتقل من هناك إلى مكان البيت الحرام حيث وضع أول بيت للناس، فآدم وزوجه كانا يسكنا الجنة (كل الجنة) لا يحتاجان إلى بيت يحميهما من تقلبات الطقس، لأن سوءاتهما لم تكن بادية لهما بعد، وما أن أكلا من الشجرة حتى بدت لهما سوءاتهما، فطفقا يخصفان عليهما من ورق تلك الجنة، ولمّا انتقلا للعيش في ذلك الواد غير ذي الزرع احتاجا إلى بيت يوءيهما من تقلبات الطقس، فكان أول بيت وضع للناس هناك في بكة (انظر سلسة مقلاتنا لماذا قدّم نبي الله لوط بناته بدلاً من ضيوفه).

إن ما نودّ أن نطرحه هنا بخصوص عيسى بن مريم هو أن مريم قد وضعت طفلها في ذلك المكان (جنة المأوى) الذي كان جنة آدم الأولى (وأصبح مكان موعد الله نبيه موسى، والمكان الذي أسرى بمحمد إليه، وهو المكان نفسه الذي تواجد به إبراهيم يوم أن طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى). ولكن لا بد من التنبيه أن ذلك المكان قد حصل على جغرافيته تغيراً مهماً، فما هو؟

قبل الخوض في جغرافية ذلك المكان لابد من التعريج على معنى جنة المأوى، لنحاول أن نبين كيف تختلف جنة المأوى عن جنة الخلد التي وعد الله عباده بالغيب.

سؤال: ما الفرق بين جنة المأوى وجنة الخلد؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن الفرق بين المأوى والخلد يتمثل في أن المأوى ليس خلوداً وهو ليس مكوثاً ، فالمكوث هو البقاء لفترة غير محددة من الزمن:

- ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد: 17]
- ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]
- ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾ [النمل: 22]
- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]

وإما بين الحالتين، إي البقاء في مكان محدد لفترة محددة من الزمن.

الدليل

لو استعرضنا السياقات القرآنية التي تتحدث عن المأوى لوجدنا أنها لا تصور الموقف على سبيل الدوام، فها هو ابن نوح يظن أنه يستطيع أن يؤوي إلى جبل يعصمه من الماء، ولا أعتقد أنه يقصد أن يبقى يعيش في ذلك الجبل حتى النهاية، ولكنه سيتخذ من ذلك الجبل –حسب ظنه- مأوى حتى ينقضي الطوفان:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 43]

وها هو لوط نفسه يتمنى مأوى ينجيه من قومه الذين جاءوه يطلبوا ضيوفه:

- ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 80]

وها هو يوسف يؤوي إليه أخيه وأبويه عندما دخل كل واحد منهم عليه:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ [يوسف: 69]
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]

وها هم الفتية الذين آمنوا بربهم يؤون إلى الكهف علّ ذلك ينجيهم من الذين يطاردوهم، ولا أعتقد أنهم كانوا يتصورون أن يبقوا في ذلك الكهف إلى الأبد:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]

وها هو موسى وفتاه يأويان إلى الصخرة فترة من الزمن ثم يتركوها ليتابعوا مسيرهم بحثاً عن الرجل:

- ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ [الكهف: 63]

وها هي مريم وابنها يؤويان إلى تلك الربوة فترة قصيرة من الزمن:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

وها هم المؤمنون جميعاً لهم عند ربهم جنات المأوى (وليس فقط جنة مأوى واحدة):

- ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [السجدة: 19]

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيداً، لربما خرجنا بفائدة عظيمة، تتمثل – في ظننا- أن تلك الجنات هي جنات مأوى (وليست جنات خلد) لأن من يدخلها لا يمكث فيها طويلاً، فالله قد أعد للمؤمنين من عباده جنات مأوى كثيرة، ليبقى المؤمنون الفائزون بها دائمين التنقل من واحدة إلى أخرى. وربما يثبت ظننا هذا هو أنه في حين أن هناك جنات مأوى كثيرات (فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ)، هناك فقط جنة خلد واحدة:

- ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ [الفرقان: 15]

فالجنة بأكملها هي جنة خلد للمؤمنين، ولكن في تلك الجنة الفسيحة الكبيرة هناك جنات مأوى متعددة يستطيع من كان ذو حظ عظيم أن يتنقل بينها لتكون كل واحدة منها له نزلا (فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ)، فهو لا يخرج من جنة الخلد الكبرى، ولكنه يخرج من جنة مأوى لينتقل إلى جنة مأوى أخرى.

نتيجة مفتراة: إننا نزعم الظن أن جنة المأوى التي جاء ذكرها في سورة النجم والتي حاولنا الخوض فيها عنما تعرضنا لرحلة الإسراء التي قام بها النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لم تكن المحطة الأخيرة فيها هي جنة الخلد وإنما كانت جنة المأوى:

- ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم: 15]

لذا لم تكن رحلته قد انتهت إلى السماء (كما يزعم الكثيرون حيث جنة الخلد)، وإنما انتهت (حسب ظننا) عند جنة المأوى حيث البقاء لا يكون فيها على الدوام.

سؤال: أين هي جنة المأوى تلك؟

لو ربطنا حادثة الإسراء تلك بما حل بمريم بعد أن وضعت مولودها لوجدنا أن المأوى موجود هناك، وظروف الجنة المعروفة متوافرة فيه:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

فلقد كان للمسيح وأمه مأوى (وَءَاوَيْنَٰهُمَآ)، وحصل ذلك في مكان مواصفاته على نحو أنه (رَبْوَةٍ) تتصف بأنها (ذَاتِ قَرَارٍ) و (وَمَعِينٍ)، فالمكان مرتفع، أليس كذلك؟

سؤال: ما هي الربوة؟

جواب: نحن نظن أن الربوة هو المكان المرتفع الذي يمكن أن تتوافر به عناصر الجنة:

- ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: 256]

سؤال: كيف كانت الربوة التي وجدت بها مريم نفسها وأبنها فيها؟

جواب: ذات قرار ومعين

سؤال: ما هو القرار؟

يصور الله القرار في السياقات القرآنية التالية:

أولاً: الشجرة لها قرار:

- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾ [إبراهيم: 26]

فلو تخيلنا شجرة قد اجتثت من فوق الأرض، فتلك الشجرة تصبح بلا قرار، لذا نحن نستنبط أن القرار هو التجويف الأرضي الذي يكون داخل الأرض، فما كان من الشجرة تحت التراب (تحت الأرض) فذاك هو قرار الشجرة:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]

فالشجرة التي لازال أصلها ثابت فهي شجرة لم تجتث من فوق الأرض، وهي شجرة لها قرار، وما أن تجتث من فوق الأرض حتى تصبح شجرة لا قرار لها، لأن قرارها يبقى تحت الأرض بعد أن تجتث هي من فوق الأرض، (فتجف شيئاً فشيئاً حتى تموت). فقرار الشجرة هو مبعث حياتها، لأن الشجرة التي لا قرار لها لا حياة فيها.

ثانياً: يتشابه شكل قرار الشجرة مع رحم المرأة الذي تحمل فيه جنينها:

- ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون: 13]
- ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١﴾ [المرسلات: 21]

فتجويف رحم المرأة الذي تستقر فيه النطفة لتبدأ مشوار الحياة في النمو هناك هو قرار، فهذا القرار (كما قرار الشجرة) أصل الحياة، ولو خرجت النطفة من ذلك القرار لهلكت كما تهلك الشجرة التي تجتث من فوق الأرض.

نتيجة مفتراة: المكان الذي يكون هو القرار يكون على شكل تجويف يشبه تجويف الأرض الذي تنبت فيه الشجرة أو ما يشبه رحم المرأة التي تبدأ فيه النطفة.

ثالثاً: لو تأملنا ذلك التجويف لوجدنا أنه ذات حواجز لا يمكن تجاوزها، فقرار الشجرة ينهي مع جذور تلك الشجرة في الأرض، وقرار النطفة له حدود لا تخرج منه تلك النطفة، وهكذا يمكن أن نتخيل جهنم التي تكون مأوى الكافرين:

- ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: 29]

فجهنم هي نهايتهم وهي محيطة بهم لا يستطيعون النفاذ منها، والصورة نفسها يمكن أن تنطبق على الآخرة بأكملها:

- ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: 39]

وهكذا يمكن أن نتخيل الأرض بالنسبة لنا نحن البشر:

- ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل: 61]
- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر: 64]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نتخيل المكان الذي يكون على شكل قرار على أنه مكان يشبه التجويف (وإن كان مفتوحاً) يمكن الخروج منه من اتجاه واحد فقط، فالشجرة تخرج من قرارها باتجاه الأعلى والجنين يخرج من قراره باتجاه الأسفل، ومن دخل جهنم لا يخرج منها إلا من اتجاه محدد، والناس لا شك تخرج من الدنيا باتجاه محدد، وهكذا.

ولو حاولنا إسقاط هذا التصور على المكان الذي كانت تتواجد فيه مريم وابنها لوجدنا أنه مكان مرتفع، لا يمكن الخروج منه إلا باتجاه واحد.

المعين

لاشك أن المعين هو أجود المشروب من الماء، ويمكن الحصول عليه بالكأس:

- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝٤٥﴾ [الصافات: 45]
- ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝١٨﴾ [الواقعة: 18]

فهو ماء قريب لم يصبح غوراً، لأن الماء الغور هو عكس الماء المعين:

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: 30]

ومتى أصبح الماء غورا أصبح الوصول إليه متعذراً:

- ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾ [الكهف: 41]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نتخيل المكان الذي تواجدت به مريم مع طفلها على أنه مكان مرتفع محاط من كل جانب، ولا يمكن الخروج منه إلا باتجاه واحد، ويتوافر فيه ماء معينا (سهل الحصول عليه). وقد كان ذلك المكان مثالياً لمريم لأنه يمكّنها من أشياء كثيرة هي بحاجة لها، نذكر منها:

- الأمان، فالمكان مرتفع لا يتم الوصول إليه إلا من اتجاه واحد، لذا تبقى مريم مترقبة باتجاه واحد لا تخشى أن يراها أحد من كل اتجاه، فلا تنشغل بمراقبة المكان بدل أن تنشغل بنفسها.
- وجود الماء الذي تحتاجه للشرب والتنظيف
- وجود الطعام، وهذا ما سننتقل للحديث عنه في الحال.

سؤال: من أين كانت مريم تحصل على الطعام؟

تحدثنا في الأجزاء السابقة كيف أن الله قد كف رزق السماء عن مريم لحظة أن وضعت المسيح، وزعمنا القول أن مهمة مريم (كتحضير جسمها الفيزيائي) قد انتهى عند هذه المحطة، فلم تعد مؤهلة لرزق خاص من السماء، وأصبح باستطاعتها أن تأكل مما يأكل منه الناس وتشرب مما يشربون ، فنحن نعلم أنه ما أن فرغت مريم من وضع طفلها حتى أمرت بأن تهز إليها بجذع النخلة لتساقط عليها رطباً جنياً،

- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25]

فتأكل منه وتشرب من الماء القريب منها:

- ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

سؤال: كيف تستطيع مريم أن تهز إليها بجذع النخلة؟

لنحاول الآن أن نتخيل شكل النخلة التي يمكن أن تحمل الرطب، فكيف يمكن أن نفهم أن مريم تؤمر أن تهز إليها بجذع النخلة (وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ)، انظر الشكل التالي:



إن ما نود إثارته هو استحالة قدرة مريم البدنية أن تهز بجذع النخلة ناهيك أن تستطيع أن تهزه إليها، فكيف قامت بذلك؟

جواب: نحن نفتري القول أن الجذع ليس ما نعرفه نحن على أنه ساق الشجرة الذي يخرج من الأرض، فمريم لا تستطيع أن تهزه (فذاك أمر ربما ينوء بالعصبة أولى القوة من الرجال)، ناهيك أن تكون مريم مأمورة أن تهزه إليها، فهل يا ترى تستطيع مريم أن تهز بذاك الساق الغليظ الثابت إليها لتساقط عليها رطباً جنيا؟

رأينا: كلا وألف كلا، مريم كانت مأمورة أن تهز إليها بجذع النخل، لذا علينا أن نفهم ما هو جذع النخلة، وهذا يعيدنا على الدوام إلى الافتراض الذي نتبناه وهو فهم معاني مفردات القرآن كما أرادها الله في كتابه لا كما فهمها آباؤنا وأجدادنا.

ما هو الجذع؟

رأينا: هناك فرق بين الجذع من جهة والفرع من جهة أخرى، فنحن نزعم القول أنه لابد أن يكون للشجرة أكثر من جذع، وذلك لأن للشجرة فرع واحد فقط:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24]

إن الاستنباطات التي نود أن نخرج منها من هذه الآية الكريمة والآيات السابقة هي على النحو التالي:

⇐ الجزء الذي تحت الأرض من الشجرة – كما ذكرنا سابقاً- هو قرارها:

- ﴿ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: 26]

فما تبقى من الشجرة في الأرض بعد أن تكون قد اجتثت من فوق الأرض هو قرارها

⇐ الجزء الثابت من الشجرة فوق الأرض الذي لا يتحرك هو أصل الشجرة:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24]

⇐ الجزء الذي يرتفع في السماء من الشجرة هو فرعها، فالفرع يبدأ عند آخر أصل الشجرة حيث يبدأ ذلك يتحرك بتأثير عامل خارجي كحركة الرياح مثلاً ولو بحثت القرآن كله لا تجد أن كلمة فرع تجمع، فهناك في النص القرآني مفردة فرع وليس هناك مفردة فروع، ولكن بالمقابل هناك جذع (مفرد) وهناك جذوع (جمع).

⇐ الجزء المتدلي من الشجرة الذي يحمل الرطب (الثمر) من الشجرة هو الجذع (أو ما نسميه نحن خطأ بالغصن)، لاحظ أن مفردة غصن (وجمعها غصون) غير متوافرة في النص القرآني، لذا نحن نظن أنها تقع في باب الأسماء التي سمتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان.

⇐ لا شك عندنا أنه في حين أن للنخلة فرع واحد، لها أكثر من جذع، فها هو فرعون يتوعد السحرة بعد أن آمنوا برسالة موسى ليصلبنهم في جذوع (مفرد جذع) النخل:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: 71]

ولو راقبنا النص جيداً لوجدنا أن فرعون سيقوم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم يقوم بعد ذلك بتصليبهم في جذوع النخل، فكيف – يا ترى- تستقيم صورة التصليب التي غرسها أسيادنا من أهل العلم والدراية في أذهاننا والقوم قد قطعت أيديهم وأرجلهم؟

رأينا: نحن نفتري القول بأن فرعون كان يظن أنه يستطيع أن يقطع أيدي السحرة وأرجلهم من خلاف أولاً، ثم يقوم بعملية التصليب في جذوع النخل، فيأخذ كل واحد منهم ليضعه في أعلى النخلة ليتدلى بين جذوعها المتعددة (أي غصونها)، والهدف هو أن يكون عبرة لغيره، فلا يستطيع أحد أن يقترب من المصلوب لأن ذلك يتطلب الصعود إلى أعلى النخلة وإنزال المصلوب من بين جذوعها. ولا ننسى أن فرعون يستخدم حرف الجر في ليدل على أن الشخص المصلوب سيكون متواجد في الداخل، فوجوده بين جذوع النخلة يدل عليه حرف الجر "في" (انظر مقالتنا تحت عنوان معنى حرف الجر على).

والآن لنحاول أن نتخيل كيف هزت مريم إليها بجذع النخلة (أي غصن النخلة بلغتنا المحرّفة)، فنحن نتخيل الصورة على النحو التالي:

مريم موجودة على ربوة (حيث المكان المرتفع والماء القريب)، النخلة تنبت من أدنى الربوة وتتسلق جذوعها التي تحمل الثمر لتصل أعلى الربوة حيث تجلس مريم مع طفلها، فتتدلى تلك الجذوع على مريم لتوفر لها الظل من أشعة الشمس (فالبشر عادة ما يستظلون بظل الشجرة ليبتعدوا عن الحر: وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ) فها هو موسى يتولى إلى الظل بعد أن سقا لهما:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: 24]

وما دام أن هناك رطباً بالنسبة لمريم فهو وقت أواخر الصيف حيث تكون الحرارة لازالت مرتفعة.وتكون تلك الجذوع التي تحمل الرطب قريبة إليها، فتمسك مريم بواحدة من تلك الجذوع لتهزه إليها (أي باتجاهها)، فتساقط الرطب عليها لتأكل هي منه.

فأين هو ذلك المكان؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه المكان الذي توافرت به عناصر الجغرافيا السابقة التي تعرضنا لها، وهو المكان الذي تغيرت جغرافيته بسبب حدث جلل وقع عليه من ذي قبل، وهذا ما سنحاول الخوض فيه في الجزء القادم ،إن أذن الله لنا بشيء من علمه.

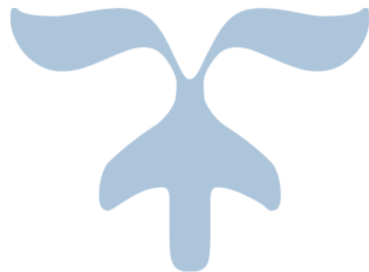
فالله أسأل أن يهدينا إلى الحق فلا نفتري عليه الكذب، وأن تنفذ كلمته بإرادته بمشيئته لنا الإحاطة بعلم لا ينبغي لغيرنا، إنه هو السميع المجيب.



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء الخامس

المسيح كلمة من الله



الجزء الخامس: المسيح كلمة من الله

حاولنا التعرض في الجزء السابق للسؤال المربك التالي: لماذا طُلِب من مريم هذه المرة أن تهز بنفسها الشجرة لتساقط عليها الرطب فتأكل منها بعد أن كان الرزق يأتيها إلى المحراب من عند الله مباشرة؟

وزعمنا القول أن مهمة مريم (كتحضير جسمها الفيزيائي) قد انتهت عند هذه المحطة، فلم تعد مؤهلة لرزق خاص يأتيها من السماء مادام أنها قد انتهت من حمل المسيح ووضعه. فأصبح باستطاعتها أن تأكل الآن مما يأكل منه الناس وتشرب مما يشربون ، فنحن نعلم أنه ما أن فرغت مريم من وضع غلامها حتى أمرت بأن تهز إليها بجذع النخلة لتساقط عليها رطباً جنياً

-  ﴿٢٥﴾ [مريم: 25]

فافترينا القول بأن الجذع ليس ما نعرفه نحن على أنه ساق الشجرة الذي يخرج من الأرض، فمريم لا تستطيع أن تهزه، فذاك أمر ربما ينوء بالعصبة أولى القوة من الرجال، ناهيك أن تكون مريم مأمورة أن تهزه إليها (وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ)، فإن كان هز الجذع ممكنا، فهل هزّه إليها (أي باتجاهها) يمكن أن تقدر عليه من هي في حالتها تلك؟ من يدري!!!

فانتهينا إلى الاستنباطات التالية المفتراة من عند أنفسنا:

⇐ الجزء الذي تحت الأرض من الشجرة – كما ذكرنا سابقاً- هو قرارها:

-  ﴿٢٦﴾ [إبراهيم: 26]

فنحن نفهم من الآية الكريمة أن ما تبقى من الشجرة في الأرض بعد أن تكون قد اجتثت من فوق الأرض هو قرارها

⇐ الجزء الثابت من الشجرة فوق الأرض الذي لا يتحرك هو أصل الشجرة

⇐ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]

⇐ الجزء الذي يرتفع في السماء من الشجرة هو فرعها، فالفرع يبدأ عند آخر أصل الشجرة حيث يبدأ ذلك يتحرك بتأثير عامل خارجي كحركة الرياح مثلاً

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]

⇐ الجزء المتدلي من الشجرة الذي يحمل الرطب (الثمر) من الشجرة هو الجذع (أو ما نسميه نحن خطأ بالغصن)

- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25]

⇐ لا شك عندنا أنه في حين أن للنخلة فرع واحد، فإن لها أكثر من جذع، فها هو فرعون يتوعد السحرة بعد أن آمنوا برسالة موسى ليصلبنهم في جذوع (مفرد جذع) النخل:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: 71]

وحاولنا بناء على ظنونا هذه أن نتخيل عملية هز مريم لجذع النخلة على النحو التالي:

مريم موجودة على ربوة (حيث المكان المرتفع والماء القريب: وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)، النخلة تنبت من أدنى الربوة وتتسلق جذوعها التي تحمل الثمر لتصل أعلى الربوة حيث تجلس مريم مع طفلها، فتتدلى تلك الجذوع على مريم لتوفر لها الظل من أشعة الشمس (فالبشر عادة ما يستظلون بظل الشجرة ليبتعدوا عن الحر: وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ). وتكون تلك الجذوع التي تحمل الرطب قريبة إليها، فتمسك مريم بواحدة من تلك الجذوع لتهزه إليها (أي باتجاهها)، فتساقط الرطب عليها لتأكل هي منه.

وانتهى ذلك الجزء من هذه المقالة عند الحديث عن المكان الذي وضعت فيه مريم غلامها المسيح عيسى بن مريم، وقد بدأنا ذاك النقاش منطلقين من بعض جوانب حياة مريم بنت عمران خاصة ما جاء عنها في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: 50]

فلقد كان للمسيح وأمه مأوى (وَءَاوَيْنَٰهُمَآ)، وحصل ذلك في مكان مواصفاته على نحو أنه (رَبْوَةٍ) تتصف بأنها (ذَاتِ قَرَارٍ) و (وَمَعِينٍ)، فتخيلنا المكان الذي تواجدت به مريم مع طفلها على أنه مكان مرتفع محاط من كل جانب، ولا يمكن الخروج منه إلا باتجاه واحد، ويتوافر فيه ماء معين. وقد كان ذلك المكان مثالياً لمريم حينئذ لأنه يمكّنها من أشياء كثيرة هي بحاجة لها، نذكر منها:

- الأمان، فالمكان مرتفع لا يتم الوصول إليه إلا من اتجاه واحد، لذا تبقى مريم مترقبة باتجاه واحد لا تخشى أن يراها أحد من كل اتجاه، فلا تنشغل بمراقبة المكان بدل أن تنشغل بنفسها
- وجود الماء
- وجود الطعام

وانتهى ذلك الجزء من المقالة بطرح التساؤل التالي: فأين هو ذلك المكان؟

وسنحاول (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نتابع الحديث عن قصة مريم مبرزين بعض التساؤلات التي نظن أن الفكر الديني السائد قد أخفق في تبيانها، ولنبدأ الحديث عن المكان الذي وضعت فيه مريم غلامها المسيح عيسى بن مريم، فأين - يا ترى- هو ذلك المكان؟

رأينا: نحن نظن أن وضع مريم لغلامها المسيح عيسى بن مريم قد حصل في ذلك المكان القصي الذي انتبذت به مريم وليدها الذي كانت تحمله، كما نفهم من الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: 22]

وحصل كل ذلك بعد أن جاءها رسول ربها ليهب لها غلاماً زكيا:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19]

السؤال: أين هو ذلك المكان القصي الذي انتبذت به مريم غلامها؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن أنه المكان نفسه الذي أسري بمحمد إليه:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

وهو المكان نفسه الذي نادى فيه ربك موسى:

- ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء: 10]

وفيه توجد تلك الربوة التي تطلّ على الواد المقدس الذي نادى ربك موسى فيه:

- ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾ [النازعات: 16]

حيث أمره فيه أن يخلع نعليه عند تلك النار التي آنسها:

- ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢﴾ [طه: 10-12]

فالنار كانت مشتعلة مِن جانب الطور:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]

وحصلت المناداة لموسى مِن جانب الطور الأيمن:

- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ٥٢﴾ [مريم: 52]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46]

وهو الطور الذي رفعه الله فوق بني إسرائيل بعد أن أخذ ميثاقهم:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣﴾ [البقرة: 63]
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٩٣﴾ [البقرة: 93]

- ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النساء: 154]

حيث حصلت المواعدة لبني إسرائيل عنده:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]

وهناك كان أيضاً ميقات موسى وسبعين رجلاً من قومه مع ربهم:

- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

وهناك بعثهم الله من بعد موتهم:

- ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة: 56]

وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]

ولو راقبنا مفردة الغمام في النص القرآني لوجدنا أن الغمام يأتي مصاحباً على الدوام للذات الإلهية:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]
- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: 210]
- ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ [الفرقان: 25-26]

وذلك المكان يقع – برأينا- على مشارف القرية التي طلب الله من بني إسرائيل أن يسكنوها ويأكلوا منها حيث شاءوا، ويقولوا حطة، ويدخلوا الباب سجدا:

- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]

وهناك بدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم:

- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: 162]

فرفضوا أن يدخلوها، فحرمها الله عليهم أربعين سنة:

- ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 21-26]

وعندما حصل ميعاد الله لموسى -كما افترينا في أكثر من مقالة سابقة لنا- حصل ذلك أيضاً في الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وهي الأرض التي تقع بين مدين من جهة ومصر من جهة أخرى. فالمتدبر للنص القرآني يجد أن لقاء موسى الأول مع ربه حصل وهو عائد إلى أرض مصر مع أهله من أرض مدين، وأن لقاءه الثاني تم بعد خروج موسى مع قومه من أرض مصر متوجهاً إلى الأرض التي كتب الله لهم، أليس كذلك؟ فموسى إذاً – نحن نفتري القول- يعلم المكان الذي سيجد به ربه، فذهب مسرعاً إلى ذلك المكان، فهو يقع على الطريق بين مدين ومصر، ولكن أين هو؟

وعلى مشارف تلك القرية يقع – برأينا- ذلك الطور الذي أقسم الله به:

- ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ [الطور: 1-2]
- ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ [التين: 1-2]

وهي المنطقة الجغرافية نفسها التي حصلت فيها قصة إبراهيم مع الطير بعد هجرته إلى ربه:

- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 71]

فالله هو من أمر إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير على وجه التحديد ليجعل على كل جبل منهن جزءاً لأن تلك المنطقة كانت – برأينا- محاطة بجبال أربعة، فلقد كان لكل جبل منهن جزءا:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

فإبراهيم قد هاجر من بلاده الأصلية وحط به الترحال هناك:

- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]

وعلى الرغم من أن الاثنين (إبراهيم ولوط) انتهت بهما الرحلة إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، سكن إبراهيم في قرية وسكن لوط في قرية أخرى، فوقع العذاب على قوم لوط ولم يقع على قوم إبراهيم. ونحن نفتري الظن أن إبراهيم قد سكن في تلك القرية التي أسري بمحمد إليها، ووضعت مريم غلامها فيها، وواعد الله موسى فيها.

كما نزعم الظن بأنها هي جنة المأوى حيث أسكن الله آدم وزوجه فيها بعد أن خلقهما ونفخ فيهما:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

افتراء خطير جداً جداً: ونحن نفتري الظن بأنه في ذلك المكان كانت الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه فانتهت بشريتهما وابتدأت إنسيتهما فيها، ومن الشجرة نفسها – نحن نفتري القول- أمرت مريم أن تأكل بعد أن انتهت مهمتها في حمل المسيح عيسى بن مريم كلمة الله.

تحديد المكان على الخريطة

أولاً، لو تدبرنا السياقات القرآنية في تحدد أسماء الأماكن الجغرافية كما يقررها الله في كتابه العزيز (وتجاوزنا تقسيمات اتفاقية سايكس- بيكو للمنطقة قليلاً) لوجدنا أن هناك ثلاث مناطق رئيسية وهي:

- مصر: حيث فرعون (وهو المكان الذي ولد فيه موسى ونشأ حتى بلغ أشده وآتاه الله حكماً وعلماً وهرب منه بعد أن قتل الرجل)
- مدين: حيث شعيب (والمكان الذي هرب إليه موسى فرعى فيه الغنم وتزوج فيه)
- المنطقة الفاصلة بينهما: حيث رب موسى (المكان الذي واعد فيه موسى ربه، وهي نفسها التي آنس عندها النار)، وهذه المنطقة الجغرافية هي محط بحثنا هنا، وهي التي نظن جازمين أنها تسمى بالنص القرآني بسيناء

فلو حاولنا إسقاط هذا الفهم على الخارطة الجغرافية لزعمنا القول أن المنطقة التي تقع إلى الغرب من نهر النيل هي أرض مصر، وأن الأرض التي تقع إلى الشرق من نهر النيل حتى نهر الأردن شرقاً هي سيناء، أما الأرض التي تقع إلى الشرق من نهر الأردن فهي مدين(وهي وتشمل –برأينا- بادية الشام وشمال جزيرة العرب)



ثانياً، كما حاولنا أن نسوّق في مقالة سابقة لنا (ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته 14: باب القطر) بأن سبأ تقع إلى الجنوب من جزيرة العرب، وهي المنطقة التي جاءت منها المرأة صاحبة العرش العظيم التي تملك قومها إلى سليمان الذي كان يسكن في ظننا المنطقة الواقعة على أطراف جزيرة العرب الشرقية والمطلة على بحر العرب والمحيط الهندي. كما ظننا أن المنطقة التي تقع بين سبأ من جهة الجنوب والأرض التي باركنا فيه للعالمين من الشمال هي تلك القرى الظاهرة التي ترد في الآيات الكريمة التالية، وهي – في ظننا- بلاد عاد وثمود من بعدهم:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾
ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا
فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 15-18]

انظر الخريطة السابقة مرة أخرى:



ثالثاً، لو أمعنا التفكر في الآيات الكريمة التي تتحدث عن ما حصل في ذلك اللقاء الشهير لموسى مع ربه، ربما نستطيع التعرف على جغرافية المنطقة قيد البحث أكثر. فبعد أن شعر موسى بالقرب الإلهي منه تجرأ ليطلب الرؤيا المباشرة للذات الإلهية، ولو كان موسى يستطيع أن يتحمل المشهد لحصل له ذلك، ولكننا نعلم من صريح اللفظ القرآني أن الله قد تجلى للجبل كاختبار لقدرة موسى على التحمل، وما أن تجلى الله لذلك الجبل حتى جعله دكاً

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]

ولو حاولنا أن نربط ذلك بمكان تواجد موسى حيث هو في الواد المقدس طوى:

- ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: 12]
- ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: 16]

ربما نستطيع أن نستنبط أن المكان (الواد المقدس) كان محاطا بتلك الجبال الأربعة، ولكن الله طلب من موسى أن ينظر إلى واحدة منها (لأن موسى لا يستطيع أن ينظر إلى الجبال الأربعة معاً مادام أنه متواجد في الواد الذي يجمع بينهما)، وما أن يتجلى الله لذلك الجبل حتى يجعله دكاً. لتكون النتيجة الافتراضية على النحو التالي: لقد غاب واحد من الجبال الأربعة وبقيت المنطقة محاطة بجبال ثلاث فقط.

والذي يمعن التفكر في الموقف الذي حصل لموسى يدرك على الفور أن موسى كان ينظر إلى الجهة التي لم يكن يتواجد فيها الإله لأنه لا يستطيع أن ينظر مباشرة إلى التجلي الإلهي مادام أن الله قد طلب منه أن ينظر إلى الجبل، فموسى ينظر الآن إلى الجبل الذي سيتجلى الله له، ولا شك عندنا أن الإله سيتجلى للجبل من الجهة المقابلة، أي التي لم يكن موسى ينظر إليها، فأين كان الإله بالنسبة لموسى؟

نحن نعلم من سياقات قرآنية كريمة أخرى أن قدوم الإله يأتي دائماً من الجهة الشرقية:

- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: 69]

ومن تلك الجهة الشرقية يتشقق الغمام المصاحب لقدوم الذات الإلهية:

- ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: 25]
- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: 210]

فتتحقق بذلك الإحاطة الإلهية من الوراء:

- ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ٢٠﴾ [البروج: 20]

لذا يكون موسى – نحن نتخيله في تلك الساعة- ينظر إلى الجهة الغربية، مادام أن مصدر التجلي الإلهي قادماً من الشرق، وربما يصدق ظننا هذا ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44]

وهناك في المكان نفسه، نحن نفتري الظن- حصلت الرؤية المحمدية في النزلة الأخرى:

- ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦﴾ [النجم: 1-16]

نحن نظن أن الرؤية الأولى حصلت عندما جاءه الوحي أول مرة في مكة، فكانت تلك هي النزلة الأولى، وحصلت الرؤية مرة أخرى عند هذه النزلة الأخرى حيث جنة المأوى.

وهو المكان نفسه – برأينا- الذي وضعت فيه مريم غلامها المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

ومن تحت تلك الربوة حيث الواد المقدس والنار، جاءها صوت المنادي:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: 24]

فكان السري الذي جعلها الله تحتها يحرسها حتى رحلت في اليوم التالي، تاركة المكان ومتجهة إلى محرابها الذي كان موجوداً بين القوم:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]

وإذا ما صدّقنا افتراءنا بأن مريم قد أكلت في تلك اللحظة من تلك الشجرة، فإنها قد أكلت من الشجرة التي تخرج من طور سيناء وتنبت بالدهن وصبغ للآكلين:

- ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون: 20]

وفي تلك اللحظة فقط انتقلت مريم إلى طور جديد فأصبحت من الأناسي، وما بقيت على بشريتها الأولى حيث كانت تأكل من رزق من عند الله:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

فظننا أن مريم لم تكن تأكل من طعام أهل الأرض قط، لذا كانت بشرا خالصاً بالضبط كما كان آدم عندما خلقه ربه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: 28]

وما أن أسكنه الجنة حتى أمره أن يأكل منها هو وزوجه حيثما شاءا باستثناء شجرة واحدة:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

وما أن أكل آدم من تلك الشجرة حتى نسي وأصبح إنسيا (بعد أن كان بشرا):

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: 115]

وهذا في ظننا المفترى ما حصل مع مريم بنت عمران، فلقد بقيت محافظة على بشريتها (فلم تكن من الأناسي) حتى استطاعت أن تحمل كلمة الله المسيح عيسى بن مريم الذي هو بمفردات القرآن الكريم بشر (وليس إنسيا)، فالمقارنة عقدت في كتاب الله بين عيسى بن مريم وآدم فقط:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن عيسى بن مريم لم يكن يوماً إنساناً عاديّا مثلنا، أو بكلمات أكثر دقة نقول أن عيسى بن مريم ليس من الناس بدليل الاستنباط الذي يمكن أن نخرج به من الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13]

فمن كان من الناس فعليه أن يكون قد خُلِق من ذكر وأنثى، وهذا بالضرورة يجعل التالية أسماءهم يخرجون من هذه القائمة، وهم:

⇐ آدم
⇐ زوج آدم
⇐ عيسى بن مريم

فهؤلاء جميعاً – برأينا- ليسوا من الناس، وقد تحدثنا في مقالات منفصلة عن النساء، وزعمنا القول بأن النساء (ومنهم زوج آدم) ليسوا من الناس بدليل قوله تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

(للتفصيل انظر مقالاتنا: ثلاثية المرأة، زواج المتعة، تعدد الزجات1، تعدد الزوجات2، ماذا ستفعل النساء في الجنة؟)

لذا سينصب النقاش هنا على آدم وعيسى فقط، مفترين القول بأنهما ليسوا من الناس مادام أنهما لم يخلقا من ذكر وأنثى.

ولكن قبل الولوج في هذا المبحث فلابد من العودة على تأكيد الفكرة التي طرحناها بخصوص مريم بنت عمران وهي أنها عاشت منذ يومها الأول ترزق برزق من عند ربها، فكانت تهيأ جسميا لأن تحمل المسيح عيسى بن مريم (كلمة الله)، فكان المسيح بشرا (ولم يكن إنسيا)، وما أن فرغت من حمله ووضعه حتى عادت لتؤمر بأن تأكل من أكل أهل الأرض، وكان أقرب شيء إليها في ذلك المكان هي تلك الشجرة التي تخرج بالدهن وصبغ للآكلين:

- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: 20]

فأصبحت تعاني مما تعاني منه نساء الأرض وهو المخاض:

- ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾ [مريم: 23]

فجاءها الأمر الإلهي بأن تأكل من الرطب الجني لوحدها:

- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: 26]

ولكنّها لم تؤمر أن تطعم المسيح منه، لأن المسيح كان يأكل من مائدة السماء (أي من رزق من عند ربه)، وهذا الذي نظن أنه قد دفع بالحواريين أن يطلبوا منه المائدة:

- ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ [المائدة: 112]

فالمائدة التي أكل منها المسيح مع الحواريين كانت هي المناسبة الأولى والأخيرة التي شارك فيها عيسى بن مريم غيره طعامه، لذا نحن نرد مفهوم الفكر المسيحي السائد حول قصة العشاء الأخير ظانين أنه كان العشاء الأول والأخير، فالحواريون بنص القرآن طلبوا أن تنزل عليهم المائدة للأسباب الواردة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝١١٣﴾ [المائدة: 113]

لذا نحن نتخيل الموقف على النحو التالي: يرى الحواريون رسولهم عيسى بن مريم لا يشاركهم الطعام، فيتعجبون من أمره، ويسألوهم عن ذلك، فيرد عليهم بالقول بأنه يأكل من رزق من عند ربه (كما كانت تفعل والدته في المحراب)، وهنا يطلب الحواريون البرهان ليروا تلك المائدة بأم أعينهم، فيأكلوا منها (**نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا**)، ولا يبقى في قلوبهم شك من ذلك (**وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا**) ويصدّقوا قول نبيهم (**وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا**)، وليكونوا هم الشهداء على ذلك للعالمين (**وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ**).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن ما يهمنا طرحه حتى اللحظة هو افتراءنا الخطير الذي مفاده أن المسيح عيسى بن مريم ليس بإنسان مثلنا (كما صور ذلك معظم أهل الدراية من أمة الإسلام)، ونحن نظن أيضاً أنه ليس بإله (كما افترى كذباً أهل العلم من النصارى)، ولكنه – برأينا- بشر، وكفى.

باب المسيح: تساؤلات

إن نقاشنا هذا يفضي إلى طرح تساؤلات كبيرة جداً، نذكر منها:

- من هو المسيح؟
- لماذا سمي بالمسيح؟
- من الذي سمّاه المسيح؟
- لماذا سمي بعيسى بن مريم أيضا؟
- كيف يختلف المسيح عنا؟
- الخ

من هو المسيح؟

جواب: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل موجودة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

المسيح هو إذن:

⇐ عيسى بن مريم ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ

⇐ رسول الله رَسُولُ ٱللَّهِ

⇐ كلمته ألقاها إلى مريم وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ

⇐ روح منه وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ

وسنحاول في هذا الجزء من المقالة الخوض في هذه القضايا تباعاً، فالله وحده أسأل أن يأذن لي الإحاطة بشيء من علم من لدنه لم أكن أعلمه من قبل، ولا ينبغي لأحد غيري، إنه هو السميع العليم.

أما بعد،

لا شك عندنا أن المسيح هو نفسه عيسى بن مريم وأن عيسى بن مريم هو المسيح نفسه، لكن هذه الحقيقة تجلب في ثناياها التساؤل التالي: لماذا يحمل هذا الرسول الكريم اسمين اثنين (ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الرسول الكريم كان اسمه ٱلۡمَسِيحُ قبل أن يصل إلى بطن مريم ليصبح عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ، فقد جاء – في ظننا- من عند ربه بهذا الاسم (أو لنقل الصفة)، وما أن ألقي إلى مريم حتى أصبح اسمه عيسى بن مريم، لذا فإن فإننا نظن أن هذا الرسول الكريم قد مرّ بمرحلتين:

- المرحلة الأولى عندما جاء به رسول رب مريم كـكلمة فألقاها إلى مريم وحينها كان اسمه المسيح فقط
- المرحلة الثانية بعد أن ألقي إلى مريم فأصبح عيسى بن مريم

لكن هذا الطرح يثير على الفور التساؤل التالي: ما معنى المفردة (ٱلۡمَسِيحُ)؟ أو بكلمات أكثر دقة: لماذا سمي ٱلۡمَسِيحُ أصلاً؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى طبيعة خلق المسيح عيسى بن مريم، ولكن كيف ذلك؟

جواب: نحن نظن أنه من أجل فهم طبيعة آلية خلق المسيح فلابد من ربطها بطريقة خلق آدم من ذي قبل، فالمقارنة بين المسيح وآدم معقودة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]

فالمدقق في الآية الكريمة يجد أن تمثيل عيسى بآدم جاء في هذه الآية الكريمة ليبين صراحة طريقة الخلق، وهي التراب (خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ)، لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء الخطير التالي: لقد كانت مادة خلق عيسى (كما كانت مادة خلق آدم) هي التراب.

وهذا برأينا يجلي اختلافاً جوهريا واضحاً بيننا نحن الناس من جهة والمسيح من جهة أخرى تتمثل في أن المسيح لم يمر بمرحلة النطفة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج: 5]

فكلاهما خلق من تراب، ولكن هناك اختلاف في آلية الخلق التي حصلت لكل منهما، فكيف تم خلق كل منهما؟

رأينا: لقد تم تحويل التراب الذي خلق منه آدم إلى طين:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: 71-72]

ولا شك – عندنا- أن الله هو من وضع يديه بنفسه في خلق آدم:

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ [ص: 75]

وهنا يثار التساؤل التالي الذي نحاول جاهدين الوصول إليه وهو: إذا كان الله قد خلق آدم بيديه، فهل خلق ٱلْمَسِيحُ بيديه؟

رأينا: كلا، لكننا نظن أن الذي حصل في حالة المسيح هو أن الله قد مسح على التراب الذي خلق منه ٱلْمَسِيحُ بيديه، بدليل أنه أصبح المسيح، فالمتدبر لمادة مفردة "ٱلْمَسِيحُ " يجد أنها مشتقة من المسح كالتي تحصل في حالة التطهر من الجنابة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾ [النساء: 43]

أو التطهير للصلاة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: 6]

فالمسح يتطلب- برأينا- استخدام اليد لتقع على الممسوح كما في حالة الوضوء، لذا نحن نتصور المشهد على النحو التالي: يأتي الأمر الإلهي بخلق المسيح، يحضر التراب الذي سيخلق منه المسيح، يمسح الله بيديه على ذلك التراب ليطهره، فيكون ٱلْمَسِيحُ بأمر ربه بكن فيكون (خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)، وما أن يتطهر ذلك التراب بعد أن مسحه الله حتى يحمله رسول رب مريم ليهب لتلك المرأة غلاماً زكيا:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: 19]

فينفخ ذلك الرسول التراب في فرج مريم:

- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: 12]

فتحمل مريم ذلك التراب (أو المسيح) في بطنها، وتنتبذ به مكاناً قصيا:

- ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ [مريم: 22]

وعند تلك النخلة يأتيها المخاض، وتضع رسول الله وكلمته ٱلْمَسِيحُ ، فيكون (بالإضافة إلى أنه المسيح يكون) عيسى بن مريم.

باب المسيح: كلمة من الله

سؤال: إذا كان المسيح تعني أن الله قد مسح على التراب الذي خلق منه المسيح بيديه، فكيف يكون كلمة منه وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ؟

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران: 45]

وكانت واحدة من مهام يحيى بن زكريا أن يصدق بتلك الكلمة:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]

سنتحدث بعد قليل عن العلاقة بين المسيح ويحيى طارحين التساؤل التالي: لماذا تواجد يحيى بن زكريا في نفس زمن المسيح؟

ففي حين أن المسيح هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم (بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ) كان دور يحيى بن زكريا يقتصر على تصديق تلك الكلمة (بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ)، لذا سنطرح التساؤلات الآن على النحو التالي:

- لماذا المسيح وحده هو كلمة من الله؟
- لِم لَم يكن محمد أو موسى أو إبراهيم، الخ كلمة من الله؟
- لم جاء يحيى ليصدق بتلك الكلمة؟
- الخ.

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن تستنبط من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: 4]

فمما لا شك فيه عندنا أن المسيح كمحمد وكموسى وكإبراهيم هو رسول الله (إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ)، ولكن السؤال الذي تثيره الآية الكريمة السابقة هو: أين هم قوم المسيح إن كان رسول الله؟ أليس

كل رسول يرسل بلسان قومه كما تشير الآية الكريمة (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ)؟ فهل كان لعيسى بن مريم قوم ليبين لهم بلسانهم؟

رأينا: كلا وألف كلا، لم يكن لعيسى بن مريم قوم ليبين لهم بلسانهم، فهو قد بعث إلى بني إسرائيل ولكنه ليس من بني إسرائيل، انظر الآية الكريمة التالية جيداً:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

فالآية تشير بصريح اللفظ أن عيسى كان رسولا إلى بني إسرائيل ولم يكن رسولاً من بني إسرائيل كما كان الحال بالنسبة لجميع رسل الله. انظر مثلاً صيغة الخطاب عن نوح:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: 71]

وعن إبراهيم:

- ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ [العنكبوت: 16]

وعن موسى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]

وعن لوط:

- ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: 80]

وعن محمد نفسه:

- ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود: 49]

وعندما تفقدنا صيغة الخطاب على نحو " يَٰقَوۡمِ " وجدنا أنها قد وردت في كتاب الله على لسان كل رسول أرسله الله إلى الناس باستثناء عيسى بن مريم:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف: 65]

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: 73]
  ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85]

السؤال: فهل هذا – يا سادة- من قبيل المصادفة؟ ولماذا لم ترد هذه الصيغة على لسان عيسى بن مريم؟ ولو تدبرنا الخطاب الوارد في كتاب الله عن عيسى بن مريم لوجدنا الفصل واضحاً بينه وبين بيني إسرائيل الذي أرسل إليهم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نعتقد أن عيسى لم يتوجه إلى بني إسرائيل على أنهم قومه، لذا نحن نظن جازمين أن عيسى بن مريم لم يكن له قوم، فهو لا ينتمي لنا نحن الناس، ولكنه – كما أسلفنا- بشر، وكفى.

تبعات هذا الظن

السؤال: ماذا يفيد مثل هذا الهراء الذي تقول؟ يرد صاحبنا.

رأينا: نحن نظن أن هذا التصور ربما يساعدنا (إنْ صحّ) في تفسير كثير جداً من الظواهر التي رافقت رسالة المسيح عيسى بن مريم، وربما تساعدنا في تصحيح الغلط الذي نظن أن أهل الديانة النصرانية قد وقعوا فيه، وكثير من الغلط الذي نعتقد جازمين أن أهل الدراية من أهل الإسلام قد أشكل عليهم. وسنحاول أن نتعرض لها تباعاً.

المبحث الأول: عيسى بن مريم لم يتحدث لغة قوم قط

المبحث الثاني: وجود يحيى متزامنا من عيسى

المبحث الثالث: عيسى بن مريم هو الوحيد الذي له حواريين

المبحث الرابع: عيسى بن مريم هو الوحيد الذي جاء كتابه (الإنجيل) بأكثر من نسخة

المبحث الأول: عيسى بن مريم لم يتحدث لغة قوم قط

نحن نفتري الظن بأن عيسى بن مريم لم يكن يتحدث لغة الناس (لسان) الذين حوله قط، وهذا الظن نابع من المشاهدات التالية:

⇐ مادام أن كل رسول قد أرسل بلسان قومه، لم يكن لعيسى بن مريم قوم حتى يتحدث بلسانهم، فهو قد أرسل إلى بني إسرائيل، ولكنه لم يكن يتحدث لغة بني إسرائيل، وإلاّ لكان كتابه (الإنجيل) الذي جاء به عبرانياً ككتاب موسى

⇐ لقد تحدث عيسى ابن مريم منذ اليوم الأول لولادته، لذا فهو لم يتعلم لسان قوم بعينهم، وهنا برأينا وقع الغلط الأكبر في الفهم عند كل من سبقنا من أهل الدراية، فهم قد ظنوا أن عيسى بن مريم قد تحدث بلسان قوم أمه الذين أتتهم مريم تحمله إليهم:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ٢٧﴾ [مريم: 27]

فظن المفسرون أن عيسى قد تحدث بلغة القوم عندما أشارت إليه أمه:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩﴾ [مريم: 29]

ولعلي أحسب أن علماءنا الأجلاء قد ظنوا أن القوم قد تحدثوا مع عيسى، وأنهم قد فهموا ما قاله الصبي لهم.

افتراءات من عند أنفسنا: نحن نحاول أن نسوق للفهم البديل المفترى التالي:

⇐ لم يتحدث عيسى بلسان القوم الذين أتتهم أمه تحمله إليهم، ولكنه تحدث بلسانه الخاص به،

⇐ لم يفهم القوم ما قال المسيح عندما تحدث بلسانه الخاص به.

الدليل

إن المتدبر للنص القرآني يجد على الفور أن القوم لم يتكلموا مع الصبي قط، فهو الذي بادرهم بالحديث مباشرة بعد أن أشارت إليه أمه:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣﴾ [مريم: 30-33]

ونحن نظن أنه كان يجب على من يقرأ مثل هذا في كتاب الله أن يتساءل قائلاً: لِم لَم يرد القوم الخطاب على الصبي؟ لِم لَم يحصل حوار بينهم وبينه؟ فهل يمكن أن يترك علماء بني إسرائيل – يا سادة- هذه الفرصة الذهبية لتطير من بين أيديهم دون أن يستفيدوا منها؟

رأينا المفترى: لقد غرق الفكر المسيحي في الحديث عن حياة عيسى في طفولته وخاصة عن مولده، ثم تراهم يغرقون حتى الثمالة من جديد للحديث عن عيسى بن مريم الشاب في سن ما يسمونه "بالكرازة"، أي فترة بث تعاليمه الجديدة. فهم إذاً يتحدثون عن عيسى الصبي الذي في المهد، ويتحدثون عن عيسى الشاب

المعلم المحدّث الناشر لتعاليم الدين الجديد، ولكن كتبهم لا تكاد تذكر شيئاً عن حياة المسيح في صباه (أي ما بعد سن المهد وقبل سن الكرازة)، فأين يا ترى هذا الصبي الذي يتحدث في المهد؟ كيف نشأ بين القوم؟ وهل كان علماء بني إسرائيل سيغفلون عن هذا الصبي طيلة هذه الفترة من الزمن؟ هل كانوا سيتركونه وشأنه وهم الذين يعلمون خطره على ديانتهم اليهودية؟

وبالمثل، بماذا حدّث الفكر الإسلامي الشائع عن حياة المسيح الوسطى؟ إن جلّ ما تناقله الفكر الإسلامي السائد عن هذا الرسول الكريم هو ميلاده ووفاته (بالضبط كما فعل أهل الديانة النصرانية من قبلهم)، فأين يا ترى قصة المسيح في صباه وشبابه؟ ألم يتعرض القرآن الكريم مثلاً لقصة موسى بالتفصيل الكامل حتى قبل بعثته؟ ألم يخبرنا ماذا فعل موسى عندما هرب من بيت فرعون؟ ألم يتحدث القرآن عن قتل موسى للرجل وهروبه إلى مدين وزواجه هناك ورعايته الغنم؟ وماذا عن قصة يوسف أيضاً؟ ألم تكن أحسن القصص في كتاب الله؟

السؤال المربك لي: لماذا اكتفى الفكر الإسلامي بسرد قصة المسيح في بدايتها (ولادته) وفي نهايتها (وفاته) فقط؟

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا: نحن نظن أن طرحنا الجديد المفترى من عند أنفسنا (والبديل للفكر السائد الذي نظن أنه خاطئاً) ربما يحل مثل هذه الإشكالية، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: إذا استطعنا أن نتصور أن المسيح لم يكن يتحدث لسان (لغة) قوم ما، فإننا نستطيع أن نفهم السيناريو على النحو التالي: عندما أتت مريم قومها تحمل المسيح، استغرب القوم وجود الغلام بين يديها وهي تحمله، فاستفسروا منها عنه:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]

فأشارت إلى الغلام ليخاطبوه ويتحدثوا معه:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 29]

فكان الاستنكار والاستغراب هو ردة فعلهم الأولى، أي مستغربين أن يتحدثوا لمن كان في المهد صبيا، فهم لم يعهدوا أحداً يتحدث في المهد من ذي قبل، وهنا يلجم لسان القوم مباشرة عندما بادرهم الغلام من تلقاء نفسه بالحديث قائلاً:

- ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: 30-33]

ونحن نظن أنه قد نطق بهذا الكلام بلغته الخاصة وليس بلغتهم، فتعجبوا من أمره لأنه بالفعل يتحدث بلسان (لغة) ولكنه ليس كلسانهم (كلغتهم)، وإلاّ لربما جرى – برأينا- تبادل الحديث بينهم وبين الغلام. لذا كان

هذا هو السبب- في ظننا- الذي ربما أسكتهم فلم يستطيعوا أن يردوا له الخطاب، ولتوضيح الفكرة نضرب المثال التالي:

تخيّل نفسك في السوق، ووجدت قوماً يتحلّقون حول غلام يتحدث بلغة ليست بلغة القوم أهل ذلك السوق، ألا تعلم حينها أن الغلام يتحدث بلغة ما (لسان) وأنه قادر على الكلام؟ لكن السؤال الذي يجب أن يثار عندها:

- هل فهمت كلام الغلام ما دام أنك لا تعرف لغته؟
- وهل تستطيع أن ترد عليه القول مادام أنك لا تفهم ما يقول؟

رأينا: كلا وألف كلا. وهذا ما نظن أنه قد حصل في حالة المسيح مع القوم. لقد تحدث المسيح بكلام، فعلم القوم أنه يتحدث بلسان مختلف عن لسانهم، لذا لم يفهموا ما قال الغلام حينئذ، ولم يستطيعوا أن يردوا عليه القول. فسكت الغلام وسكت القوم أجمعون.

ونحن نظن أنه لو فهم بنو إسرائيل الكلام الذي قاله الغلام حينئذ لما تركوه وشأنه حتى يكبر ويشتد عوده، لأن الغلام أعلنها منذ اللحظة الأولى أن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيا:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم: 30]

ونحن نتخيل أنه لو فهم نفر من بني إسرائيل ما قاله الغلام في تلك اللحظة لما ترددوا في قتله، فمن كانت سيرتهم قتل أنبياء الله، ومن فعلوا المستحيل للتخلص من عيسى بن مريم يوم أن حدّثهم بتعاليم الدين الجديد ما كانوا سيترددون عن فعل ذلك لو علموا خبر ما قال لهم المسيح في تلك اللحظة:

- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧﴾ [النساء: 155-157]

ولكن لمّا سمع القوم قولاً لم يفهموا فحواه، لم يستطيعوا أن يبتوا أمرهم فيه. فبعد أن تفقدنا السياقات القرآنية وجدنا ملحوظة نظن أنها غاية في الأهمية في طبيعة خطاب الرسل مع أقوامهم، والملحوظة تتمثل في أن الخطاب كان يجري بين الرسول على نحو أن الرسول يقول للقوم شيئا، فيرد القوم عليه بقول من عندهم كما حصل في حالة نوح:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾ [هود: 32]
- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشعراء: 116]

وإبراهيم:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]

ولوط:

- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: 167]

و شعيب:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: 87]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: 91]

و صالح:

- ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: 77]

وموسى:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: 22]

ولكننا لم نجد مثل هذه الصيغة قد وردت في كتاب الله بخصوص المسيح عيسى بن مريم، فليس هناك نص يبين أن القوم قد توجهوا بالخطاب مباشرة إلى رسولهم، وما حصل ذلك إلا مع الحواريين بعد أن أوحى الله إليهم مباشرة:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 111-112]

فالمتدبر للنص القرآني يجد أن الحوار جرى بين عيسى بين مريم وهؤلاء النفر من الناس (الحواريين) بعد أن حصل الوحي المباشر من الله لهم، فكانوا حواريين. (وسنرى بعد قليل بحول من الله وتوفيق منه سبب تسميتهم بالحواريين)

ولكن بنو إسرائيل لم يكونوا ليتقبلوا رسولاً ليس من قومهم، ولما كان عيسى بن مريم ليس منهم (بل رسولا إليهم)، ولما كان عيسى لا يتحدث لغة يفهموها، كان لابد من وجود شخص موثوق من بينهم يصدق بعيسى بن مريم ككلمة من الله، فما حصل ذلك إلا على لسان يحيى (بن زكريا) ليصدق بتلك الكلمة:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

سنتحدث بعد قليل عن العلاقة بين المسيح ويحيى طارحين التساؤل التالي: لماذا تواجد يحيى بن زكريا في نفس زمن المسيح؟

المبحث الثاني: وجود يحيى متزامنا من وجود المسيح

غالباً ما تناقل أهل الديانة النصرانية خبر يحيى (أو يوحنا المعمدان كما تفضل بعض طوائفهم تسميته) على أن مجيئه كان ضرورة لتصديق رسالة عيسى بن مريم، ولكننا نطرح عليهم التساؤل التالي: هل يحتاج عيسى بن مريم إلى شخص آخر ليثبت صدقه؟ فهل من كانت مكانته بمكانة المسيح (ابن الله كما يظنون) يحتاج إلى إنسان عادي ليثبت له تلك المكانة؟ فهل أحتاج أنا كمسلم مثلاً أن أبحث عن ما قاله أبو بكر أو ما قاله عمر ليثبت لي صدق محمد؟ وماذا يشكل كلام أبي بكر أو عمر أو أي شخص آخر مقارنة بكلام محمد؟

فافهموا - يا سادة- ما سأقول لكم: إن كلام محمد بالنسبة لي كمسلم هو حجة على كل من سواه من بني البشر، وليس هناك إنسان مهما بلغ من العلم يمكن أن يضيف إليّ يقينا إذا ما قال محمد شيئا. وهذا بالضبط ما أظن أنه يجب أن ينطبق في حالة المسيح عيسى بن مريم، فكلام المسيح بالنسبة لي حجة بحد ذاته، وهو لا يحتاج إلى كلام غيره ليثبت صدق ما يقول، فما دام أن المسيح قد قال فهو صادق، والمسيح – لاشك- صادق فيما يقول سواء شهد له غيره بذلك أم لم يشهد.

والحالة هذه، كيف يمكن أن يكون يحيى بن زكريا مصدقاً بكلمة الله المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا: نحن نظن أن طرحنا السابق ربما يحل هذه الإشكالية على النحو التالي: عندما لم يكن المسيح يتحدث بلسان القوم (قوم زكريا)، فهم لم يجزموا أمرهم فيه، والمسيح نفسه لم يتحدث إليهم بلسانه إلا في حالتين كما تشير الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: 45-46]

ونحن نفهم أن كلام عيسى بن مريم للناس لم يحصل إلا في هذين الموطنين وهما:

⇐ عندما كان في المهد (وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ)

⇐ عندما كان كهلا (وَكَهْلًا)

ونحن نفتري الظن بأن كلام المسيح عيسى بن مريم في هذين الموطنين قد جري بلسان عيسى بن مريم نفسه وليس بلسان القوم الذين من حوله، لذا كان يصعب عليهم أن يفهموا ما يقول وإن كانوا متيقنين أنه كان يقول شيئا ما، وبكلمات أخرى نقول: لقد كان حديثاً من عيسى بلسانه إلى القوم الذين لا يعرفون لسان عيسى بن مريم، وقد كان جل كلام عيسى منصباً على القول:

⇐ في المهد: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: 30]

⇐ كهلا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا

بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

ولما كان بنو إسرائيل لا يستطيعون أن يفهموا كلام عيسى هذا لأنه كان بلسان غير لسانهم، كانوا بحاجة إلى من يستطيع أن "يفسر" لهم كلام المسيح عيسى بن مريم، فكان يحيى هو حلقة الوصل بين المسيح وبني إسرائيل، فهو الذي صدق بتلك الكلمة (أي قطع شك بني إسرائيل باليقين أن هذا الغلام هو المسيح نفسه الذي جاء ذكره في كتبهم)،ونحن نفتري الظن أنه في تلك اللحظة فقط بدأ نفر من بني إسرائيل يدبرون المكيدة ضده، وكان الحواريون هم حلقة الوصل بين المسيح والناس كافة.

المبحث الثالث: وجود الحواريين مع عيسى بن مريم

نحن نعلم من مجمل العقيدة بأن عيسى بن مريم هو رسول الله الوحيد الذي كان له حواريين، فلم يكن لنوح ولا لـ إبراهيم ولا لـ موسى ولا حتى لـ محمد حواريين، فلم - يا ترى- كان لعيسى بن مريم على وجه الخصوص حواريين؟

رأينا: نحن نظن أن وجود الحواريين مع عيسى بن مريم كانت ضرورة قصوى مادام أن عيسى بن مريم لم يكن من قوم بعينهم ليتحدث لسانهم، لذا كان بحاجة إلى من "يشارك" في إيصال رسالته إلى الناس الذين لا يتحدث لسانهم، فكان بحاجة إلى أشخاص محددين يستطيعون أن يكونوا حلقة الوصل بين عيسى من جهة والقوم الذين أرسل إليهم من جهة أخرى، فكان الحواريون:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]

أولاً، إن المتدبر للنص القرآني يجد أن عيسى بن مريم لم يسمع قول الكفر من أفواه القوم ولكنه فقط أحس بذلك (فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ)، السؤال: كيف أحس عيسى الكفر منهم؟

رأينا: نحن نظن أن الإحساس لا يتم بالقول ولكنه يحدث بالشعور:

- ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152]
- ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾ [الأنبياء: 12]

ثانياً، لقد طلب عيسى من نفر من الناس أن يكونوا أنصاره إلى الله:

قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ

فلم يجد أحدا ليكون له نصيرا إلى الله، ولكنه وجد الحواريين يقولون له بأنهم أنصار الله مباشرة:

قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ

نتيجة: لم يكن الحواريون أنصاراً لعيسى بن مريم ولكنهم كانوا أنصار الله.

ولما كان الحواريون أنصار الله مباشرة وجدنا في كتاب الله الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

نتيجة: جاء الوحي مباشرة من الله للحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله، فآمنوا وأصبحوا مسلمين.

وهناك حصل مباشرة أن طلب الحواريون أن يأكلوا مما كان يأكل رسولهم منه، فجاء في الآية التي تلت الآية السابقة قول الحق:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

وكان تعليلهم لذاك على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]

فكانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: 114]

نتيجة: أكل الحواريون من المائدة واطمأنت قلوبهم وعلموا أن رسولهم قد صدقهم وكانوا على ذلك من الشاهدين.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كان الله هو نفسه من أوحى إلى الحواريين، استطاع الحواريون أن يفهموا لغة الوحي، وبالتالي استطاعوا أن يفهموا كلام رسولهم ويفصلوه (ويترجموه) إلى الناس بلسانهم، فكانوا بمثابة حلقة الوصل بينه وبين الناس بما أوحى الله إليهم.

المبحث الرابع: لماذا الإنجيل على وجه التحديد متوافر بأكثر من نسخة واحدة؟

لعل في هذا المبحث أخطر الافتراءات التي نقدمها من عند أنفسنا على العقيدة، لذا فإني أطلب من القارئ الكريم أن لا يتابع القراءة بعد هذا السطر (إلا إن رضي أن يأخذ هذا الكلام على أنه رأي فكر فقط).

أما بعد،نحن نظن أن أهل الدراية من أبناء المسلمين قد افتروا على أهل الديانة النصرانية ما لا يمكن لأحد أن يتحمله، عندما ظنوا أن أهل هذه الديانة قد عمدوا إلى كتابهم الإنجيل فغيروا به ما شاءوا أن يبدلوه حتى انتهى به أن يكون أكثر من نسخة. فأهل الدراية من أبناء المسلمين يستخدمون الحجة في تعدد نسخ الإنجيل على أنه دليل على صدق دعواهم بأن أهل هذه الديانة قد "بدلوا" كلام الله، أليس كذلك؟

رأينا: نحن نظن أن هذه هي الأكذوبة الأكبر التي تسلح به من ظن نفسه أنه من أهل الدراية من أبناء المسلمين، فطعن في معتقدات الآخرين زورا وظلما، متهما إياهم بخيانة الأمانة، ونسب إلى نفسه فقط مسؤولية حفظها. فتسلح بالآية الكريمة التالية ليروج لفكره الذي نظن أنه خاطئ بأن الله قد تعهد لهم فقط (دون خلق الله جميعا) حفظ كتابهم:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

وتسلحوا – بالمقابل- بالآيات الكريمة التالية ليروجوا لفكرهم الذي نظن أنه أيضاً خاطئ بأن غيرهم من الأمم قد شطت بعيدا فلم تحفظ كلام الله الذي أنزل إليهم:

﴿۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ٧٥﴾ [البقرة: 75]

- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا٤٦﴾ [النساء: 46]
- ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]

رأينا

⇐ **أولا**، لم يُجِبْ أهل الدراية من أبناء المسلمين عن التساؤل الجوهري التالي: لماذا يتعهد الله لهم من دون الأمم الأخرى بحفظ كتابهم؟ ولم لم يتعهد لغيرهم بذلك؟ أليست تلك هي فكرة شعب الله المختار ولكن بمنطقهم؟

⇐ **ثانياً**، لم يُميّزْ أهل الدراية من أهل الإسلام بين التحريف والتبديل، فتحدثوا عن التحريف بمعنى التبديل وخلطوا المعاني فضاعت الأفكار. فالآيات الكريمة السابقة تتحدث عن تحريف الكلم وليس عن تبديله (وهذا ما سنتناوله بعد قليل بحول الله وتوفيقه)

⇐ **ثالثاً**، أتهم أهل الإسلام النصارى بالتبديل لوجود أكثر من نسخة للإنجيل، وغفلوا في الوقت ذاته أن التوراة (وهي الأقدم) لا زالت نسخة واحدة. فهل يعقل أن يحصل التبديل على الإنجيل ليخرج بأكثر من نسخة بينما يبقى التوراة نسخة واحدة؟ فمن الذي بدل وغيّر بالإنجيل؟ ولم لم يفعل ذلك في التوراة؟

⇐ **رابعاً**، لو دقق أهل الدراية النظر في الآيات الكريمة السابقة التي تتحدث عن التحريف لوجدوا أن من قام بذلك هم اليهود وليس النصارى:

- ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ [المائدة: 41]

السؤال: مادام أن اليهود هم من قاموا بفعل التحريف، فلِم لَم تصبح التوراة (كما الإنجيل) أكثر من نسخة؟

جواب: ربما يرد بعض أهل الدراية من مشايخنا العلماء بالقول بأن اليهود قد حرّفوا وبدلوا في الإنجيل الذي لم يكن كتابهم ولكنهم لم يبدلوا كتابهم التوراة؟

رأينا: لكن يا سادة، هل أمة النصارى سلبية لهذه الدرجة ليتركوا غيرهم يفعلون ما يشاءون بكتابهم وهم في سبات عميق؟ فهل يستطيع أحد أن يحرف كتابنا نحن (المسلمين) مادمنا موجودين؟ أنا أفهم أن من يقوم بالتحريف أو التبديل هو من تقع عليه المسؤولية، فلا أظن أن أمة تقبل أن يقوم غيرها بفعل شيء في معتقداتهم وحتى في تراثهم الشعبي ويبقوا هو صامتين لا يحركون ساكنا. من يدري!!!

فهمنا البديل: لماذا يتوافر الإنجيل بأكثر من نسخة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإنجيل على وجه التحديد يجب أن يكون أكثر من نسخة، ونعتقد جازمين أن القرآن الكريم – حسب فهمنا بالطبع- يثبت هذه الحقيقة. ولكن كيف ذلك؟

⇐ **أولا**، نحن نظن بادئ ذي بدء أن الله عادل لا يمكن أن يتحيز لأمة على حساب أمة أخرى، فإذا كان الله قد تعهد بحفظ كتابنا (كما يظن أهل الإسلام) فلابد أنه قد تعهد بحفظ كتاب غيرنا.

⇐ **ثانيا**، نحن نظن أن الله لم يتعد بحفظ قرآننا قط، ولكنه تعهد بحفظ الذكر، والآية الكريمة صريحة بلفظها:

- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

وشتان- في رأينا- بين الذكر والقرآن، فلو كان الله قد تعهد بحفظ القرآن، لوجدنا آية صريحة في كتاب الله تتحدث عن ذلك بصريح اللفظ (للتفصيل في الفرق بين القرآن والذكر، انظر مقالتنا تحت عنوان ماذا كتب في الزبور؟)

⇐ **ثالثاً**، لابد من التميز بين التحريف الذي تحدث النص القرآني عنه، وهو ما قامت به الأمم السابقة:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]

والتبديل الذي لا يستطيع بشر أن يقوم به مادام أن الله قد أثبت استحالة ذلك في أكثر من موطن من كتابه الكريم:

- ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]
- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]
- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: 115]
- ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٧﴾ [الكهف: 27]

نتيجة: لا يستطيع اليهود ولا النصارى ولا المسلمون أن يبدلوا كلام الله لأن تلك سنة كونية اختطها الله بنفسه، ولكنهم يستطيعون جميعاً أن يحرفوا كلام الله.

⇐ **رابعاً**، نحن نحمل العقيدة التي مفادها أننا نحن (المسلمين) قد حرفنا كلام الله كما حرفت الأمم الأخرى كلام الله. فالتحريف لا يقتصر على أمة بعينها بدليل قوله تعالى:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]

⇐ **خامساً**: التحريف هي صنعة العلماء، فلا يمكن أن يتم التحريف إلا من قبل من كان عنده علم:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]

نتيجة مفتراة مهمة جداً: لقد حرّف اليهود والنصارى كلام الله ولكنهم لم يبدلوه، لذا فإننا نعتقد جازمين أن الإنجيل (كما التوراة) لم يتبدل فيه كلمة واحدة لأن ذلك مستحيل مادام أن الله قد تعهد بنفسه بأن لا تبديل لكلماته.

ولكن تلك الكلمات قد حُرِّفت. ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد جازمين أن التحريف يكون بتغير المعاني وليس بتغيير الألفاظ، لذا فإن الرسالة اليهودية قد شُوِّهت بمعانيها، وكذلك الرسالة المسيحية، وكذلك رسالة الإسلام، فكلنا في الهمّ شرق (كما يقول حكيمنا).

التحريف والتبديل

غالباً ما تغنى أهل الإسلام بأن القرآن نسخة واحدة، بينما الكتب الأخرى كالإنجيل مثلاً هو أكثر من نسخة، وقد ثارت تساؤلات عديدة حول هذه القضية: هل الإنجيل كالقرآن؟ هل قام عيسى بن مريم بتفصيل الكتاب بلسان قومه؟ لماذا نحن المسلمين نملك نسخة واحدة من القرآن بينما لدى أهل الديانة المسيحية أكثر من نسخة من الإنجيل؟ وهكذا.

جواب: لا أريد أن أدخل في جدلية صحّة الكتب المقدسة، ولكني سأقصر الإجابة هنا على سؤال واحد وهو: لماذا يوجد نسخة واحدة من القرآن بينما يوجد أكثر من نسخة من الإنجيل على وجه الخصوص؟

للإجابة على مثل هذا التساؤل نرى وجوب رد التهمة التي يلقيها أهل الإسلام جزافاً على الأمم الأخرى أولاً، ولكن لماذا؟

رأينا: غالباً ما ظن أهل الإسلام أن أتباع الديانات السماوية الأخرى قاموا بتحريف كتبهم بطريقة تبديل الكلمات، وقد حاولنا في مقالات سابقة لنا تبيان استحالة أن يقوم بشر بتبديل كلمات الله، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: 64]
- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: 34]
- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: 115]
- ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف: 27]

لذا، نحن نظن أن أهل الديانات الأخرى قد حرفوا كلمات الله ولكنهم لم يبدلوها لأنهم ببساطة لا يستطيعون القيام لأن الله قد تكفل بنفسه بأن لا تبدّل كلماته. لكننا نعود إلى رد التهمة التي يلقيها أهل الإسلام

على غيرهم بطرح السؤال التالي: إذا كان هؤلاء القوم (كما يظن أهل الإسلام) يحرفون كلام الله (بمعنى التبديل الذي يفهمه أهل الإسلام) فلماذا فعلوا ذلك بالإنجيل ولم يفعلوا ذلك بالتوراة؟ أي لماذا هناك أكثر من نسخة من الإنجيل بينما لا يوجد إلاّ نسخة واحدة من التوراة؟

جواب: لو كان كلام أهل الإسلام صحيحاً في أن ديدن تلك الأقوام هو تحريف كلام الله بمعنى تبديله، لفعلوا بالتوراة ما فعلوه بالإنجيل، ولربما كان هناك نسخ عديدة من التوراة كما أن هناك نسخ عديدة من الإنجيل. ولا ننسى أن التوراة كانت بين أيديهم فترة أطول من الزمن، فلو قام القوم بتبديل كلمات الله (بالمعنى الذي يفهمه أهل الإسلام)، لكان الأحرى أن يفعلوا ذلك على مدى الآلاف السنين والتوراة بين أيديهم، ولو راقبنا النص القرآني جيداً لوجدنا أن التحريف كان من صنعة يهود:

- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرٗا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النساء: 46]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٞۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ [المائدة: 41]

وهنا سيطرح الجميع علينا التساؤل التالي: ما الذي فعلته الأمم السابقة إن لم تكن فعلاً قد أدخلت وحذفت وبدّلت ما أنزل الله عليهم؟

الجواب: لقد حرفت الأمم السابقة كلام الله ولكنها لم (ولن تبدله)، وكفى.

سؤال: ما الفرق بين التبديل والتحريف؟

جواب: التبديل هو – كما ذكرنا سابقاً- إحلال شيء جديد مكان شيء قديم سبقه، وهناك آيات كثيرة في كتاب الله ربما تثبت ظننا هذا، كإحلال الذي هو أدنى محل الذي هو خير (وذلك باستبداله):

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

وكذلك إحلال الكفر محل الإيمان:

- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾ [البقرة: 108]

وتبديل الخبيث بالطيب:

- ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾ [النساء: 2]

وتبديل الجلود بجلود غيرها:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا٥٦﴾ [النساء: 56]

واستبدال قوم بقوم غيرهم:

- ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ٣٩﴾ [التوبة: 39]

أو تبديل هذا القرآن بغيره:

- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ١٥﴾ [يونس: 15]

أو تبدل الأرض بغير الأرض في ذلك اليوم المعلوم:

- ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ٤٨﴾ [ابراهيم: 48]

أو تبديل غلام بغلام خير منه:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا٨١﴾ [الكهف: 80-81]

أو إحلال الأمن مكان الخوف:

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: 55]

أو إحلال الحسنات محل السيئات:

- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: 70]

أو تبدل زوج مكان زوج:

- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا٥٢﴾ [الأحزاب: 52]
- ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا٥﴾ [التحريم: 5]

أو تبديل الجنتين بجنتين:

- ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾ [سبأ: 16]

نتيجة: التبديل يكون عن طريق إحلال شيء جديد مكان شيء سابق.

أما التحريف فهو قصة أخرى تحصل بطريقة مختلفة عن التبديل، لذا سنطرح التساؤل التالي على الفور: ما هو التحريف؟

لننطلق في نقاشنا الذي نحاول من خلاله الوصول إلى معنى التحريف من الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: 75]

لنثير التساؤل التالي: كيف يشهد الله بأن فريق منهم كان يسمع كلام الله ثم يحرفونه (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ)؟ ولا ننسى كذلك أن الآية الكريمة تؤكد أن هذا التحريف كان يحصل بعد أن يعقلوه (مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، فهو تحريف عن علم (وليس عن عدم دراية أو عن جهل)، أليس كذلك؟

إن هذه الآية الكريمة تجلب إلى انتباهنا حقيقتين كبيرتين جداً حول التحريف الذي حصل للكتب السابقة وهما:

⇐ أن التحريف لم يكن صنيعة كل من اتبع تلك الديانات وإنما هو صنيعة فريق منهم (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ)، لذا سنثير التساؤل التالي: إذا كان من يقوم بالتحريف هو فريق منهم، فماذا كان يفعل الفريق الآخر (أو الفرق الأخرى إن كان هناك أكثر من فريقين)؟ إننا نفتري الظن بأنه من باب الاستحالة أن يكون كل أتباع تلك الديانات قد قبلوا ما قام به فريق منهم. فلو قام فريق منهم بالتحريف (كما فهمه أهل الدراية من أتباع ديانة الإسلام) لما سكت عن ذلك بقية الناس من أتباع تلك الديانة.

⇐ أن التحريف لم يكن عن جهل وإنما كان مقصوداً لذاته بعد أن كان من يقوم بتلك الصنعة على علم (ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

والآن لنطرح السؤال التالي: من الذي كان يقوم بالتحريف إذاً؟

الجواب: إن صحّ ما نزعم فإن التحريف كان صنيعة أهل العلم في تلك الديانات، أي العلماء.

ولو أمعنا التفكير في كل الآيات التي تتحدث عن تحريف الكتب السابقة لوجدنا أن الذي كان يقوم بتلك الصنعة هم أهل العلم فقط، أو (لنقل) من وضعوا أنفسهم في موضع المدافع عن الدين، وهم لا شك من يسمّون أنفسهم بأهل الشريعة، الذين تنقاد لهم العامة انقياد القطيع للراعي:

- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: 46]
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: 41]

إذاً، فهم أصحاب القرار الديني الذين يوجّهون الناس على أخذ هذا وترك ذاك " يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ "، إنهم أهل الفتوى الدينية أو أهل صكوك الغفران في العقائد السابقة، ولا أخال أن العامة يستطيعون التصدي لمثل تلك المهمة، لأنّه لابد أن تكون لمن يقوم بمثل هذا العمل الخطير شرعيّة وقبول عند الناس، فآية الله على الأرض- أو من هو في مكانته كالقسيسين والرهبان والحبر الأعظم ومن هم من هيئة كبار العلماء- هو فقط من يستطيع القيام بتحريف كلمات الله.

ولكن توقف يا رجل، ما الذي تقول؟ أتق الله! وهل يحرف أهل الشريعة كلام الله؟ وكيف يفعلون ذلك؟

فنرد بالقول: تمهل لترى بنفسك، ولكن بشرط أنْ نفهم أولاً معنى تحريف الكلام، أي كيف يتم تحريف الكلام؟

إنّ تحريف الكلام – حسب فهمنا للنص القرآني- لا يتم بتبديله، ولكنه يتم بطرق أخرى: أولها استبدال المعاني وليس استبدال الألفاظ، وثانيها إخفاء ما يسبب الإشكال عند الناس. وهذا ما سنناقشه تباعاً في الحال.

التحريف باستبدال المعاني وليس باستبدال الألفاظ

قد لا يختلف الكثيرون في أنّ واحدة من أهم مهام أهل الشريعة هي تبيان معاني الألفاظ في الكتب المقدسة للناس، فعلماء المسلمون يفسرون ألفاظ القرآن لأتباع هذه الديانة، وهكذا يفعل علماء اليهود والنصارى، وربما جاءت الحاجة إلى ذلك بسبب ما وقع الناس فيه من إشكالية في فهم النص الديني، فلا يستطيع كل الناس فهم النص الديني كما يجب من تلقاء أنفسهم (لأنهم ببساطة قد أوكلوا لغيرهم القيام لهم بالمهمة)، عندها يلجئون- مضطرين- إلى من يسمون أنفسهم أهل الشريعة لتبيان معاني الألفاظ الموجودة في الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل والقرآن. وهنا تبدأ قصة التحريف الأولى. خصوصاً عندما يقوم كل من تصدى لهذا العلم بإعطاء رأيه دون دليل عليه من الكتاب نفسه. ولنقدم بعض الأمثلة على ذلك.

- فلو ذهبنا إلى أهل الدين لنسألهم عن مفردة في كتاب الله، لوجدنا كل فرقة وكل طائفة تفهمها وتحاول أن تقنع الناس بفهمهم ذاك، فلو ذهبنا إلى أهل الشريعة في الإسلام وسألناهم عن معنى البقرة التي وردت في قصة موسى مع بني إسرائيل لما عدمنا فرقة منهم أن تقول أن البقرة هي عائشة زوج النبي، ولكن لو سألناهم عن دليلهم على ذلك لما وجدناهم يقدمون دليلاً على زعمهم ذاك من كتاب الله نفسه، بل جلّ ما يفعلوه هو أن يرددوا على أسماعنا بأن هذا ما قاله فلان وذاك ما قاله علاّن (من مشايخهم الذين تلقوا العلم عنهم)، فيا سبحان الله: البقرة هي عائشة عند بعضهم (رضي من رضي وغضب من غضب)، وهي بالتأكيد ليست عائشة عن الفرق الأخرى (رضي من رضي وغضب من غضب)، أليس هذا تحريف لكلام رب العالمين؟ من يدري!!!
- ولو سألنا عن (ما يرغب أن يسميها أهل الإسلام بـ)حادثة الإفك، لوجدنا فرقة منهم تقول أن آيات التبرئة من الإفك قد نزلت بحق عائشة، بينما لا تنفك فرق أخرى أن تقول أنها نزلت بحق مارية القبطية، ولو سألنا كل طرف عن دليله، لما عدم كل طرف أن يحشد عشرات الأدلة على قوله، ولكن الحقيقة التي لا يمكن المجادلة فيها هي أن أدلتهم تخلو جميعاً من دليل واحد من كتاب الله نفسه، أليس هذا تحريف لكلام الله؟ من يدري!!!
- ولو سألتهم عن معنى مفردة الأهل في قوله تعالى:

- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

لقالت فرق منهم أنّ ذلك بيت النبي محمد باستثناء زوجته عائشة، فالأهل بالنسبة لهم هم أبناء النبي وبناته وأحفاده وحتى خالاته وعماته وأبناء عمومته (خصوصاً فرع العباس) إلاّ عائشة، سبحان الله!، ولكن ألم تقرءوا – يا سادة- قول الله تعالى:

- ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: 32]

فإذا كانت مفردة الأهل لا تشمل الزوجة، فلم يضطر الإله أن يذكر زوجة لوط بصريح اللفظ، لقد كان الأولى بالإله – إن صح قولكم- أن يقول لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ وكفى، فالزوجة –حسب فقهكم- يشمل الجميع إلا الزوجة، أم هي فقط عائشة على وجه التحديد؟! أليس ذلك تحريف لكلام الله؟ من يدري!!!

ثم ألم تقرءوا - يا سادة- في كتاب الله أن موسى قد سار بأهله من مدين، فمن يا ترى كان برفقته إن لم تكن زوجته التي تزوجها في مدين:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾ [القصص: 29]

- ولو سألنا جميع علماء الفرق الإسلامية سؤالاً كهذا: لماذا تزوج الرسول بذاك العدد من النساء في مخالفة واضحة لما فهموه من النص الديني لتعدد الزوجات الذي يقتصر على العدد أربعة؟ لقالوا تلك

خصوصية للنبي، وفي الوقت ذاته هم يعلّمونا ليل نهار أن الخير كل الخير في إتباع سنة محمد، وذلك بأن لا نترك صغيرة ولا كبيرة فعلها النبي إلا ونفعلها، لم إذاً تمنعونا – نحن نتساءل فقط يا سادة- من أن نتزوج بمثل العدد الذي تزوج به محمد؟ هل عندكم من دليل من كتاب الله يستند إليه قولكم؟ أم هو فقط ما ورثتموه عن مشايخكم؟ أليس هذا تحريف لكلام الله؟ من يدري!!!

➢ ولو سألناهم عن عمر نوح لقالوا أنه عاش 950 عاماً في الوقت الذي نجد أن الله يقول في كتابه:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

ولو استدركتهم بالقول أن الله لم يقل أن نوح قد عاش 950 عاماً، بل ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولا يجوز أن نطرح العام من السنة، لردوا على الفور: وما الفرق؟ ولرأيت في وجوهم الحيرة ويكأنهم يقرؤون الآية الكريمة لأول مرة بعد أربعة عشر قرناً من التنزيل، أليس هذا تحريفاً لكلام الله؟ من يدري!!!

➢ ولو سألنا غالبية علماء المسلمين (وخاصة أهل السنة والجماعة الذين يروجون للتمسك بحرفية الدين) عن معنى مفردة رجالاً في قوله تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ٢٧﴾ [الحج: 27]

لما ترددوا في القول أن ذلك يعني راجلين (أي يمشون على أرجلهم)، فنقول لهم: كيف لنا – إن صح زعمكم- أن نحج بالسيارة أو الطائرة أو الباخرة إذاً؟ ألا يدعونا الله إلى الحج راجلين، فما بالنا نركب كل وسائط النقل من الدابة حتى الطائرة؟ وكيف بمحمد نفسه (وهو من نزلت عليه هذه الآية) يحج البيت راكباً على دابته إن كان فعلاً ما تقولونه صحيحا؟ والأهم من ذلك، دعنا ننظر إلى خارطة العالم: أليس هناك قارات بأكملها تفصل بينها وبين جزيرة العرب محيطات من الماء، فكيف بأولئك القوم سيقدمون إلى الحج راجلين (ماشين على أقدامهم)؟ أليس هذا تحريف لكلمات الله؟ من يدري!!!

➢ فلو سألنا الغالبية الساحقة من أبناء المسلمين عن معنى مفردة عاقر في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا٥﴾ [مريم: 5]

لظنت الغالبية الساحقة من أبناء المسلمين أنها تعني المرأة التي لا تنجب، ولو استدركتهم بالسؤال التالي: فما العقيم إذاً كما ترد في الآية الكريمة التالي:

- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٩﴾ [الذاريات: 29]

لرأيت الدهشة بادية على وجوهم وكأنهم يقرؤون تلك الآيات للمرة الأولى في حياتهم. نعم، بعد أكثر من 1400 سنة من ترداد هذه الآيات صباح مساء لازلنا نعجز عن إجابة أسئلة بسيطة جداً مثل هذه، ولكن لماذا؟

الجواب: لأننا انشغلنا عن ألفاظ القرآن نفسها بتحريفات من يظنون أنفسهم أنهم أهل العلم مصداقاً لقوله تعالى:

ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن التحريف – يا سادة- لا يكون بتغير اللفظ أو استبداله، بل بترك اللفظ على ما هو عليه وإشغال الناس بمعناه الخاطئ الذي أراده أهل العلم أن يكون في النص الديني، وليس المعنى الصحيح للفظ الحقيقي الموجود في كتاب الله كما أراده الله. لقد قال لنا نفر من أهل الدراية (سادتنا العلماء) أن هذا يعني كذا، وذاك يعني كذا، فصدّقناهم وأنزلنا كلامهم درجة من القداسة التي أصبح من المتعذر معها أن نضعها مرة أخرى للنقاش، وأصبح رأيهم وكأنه حجة على كلام الله، فمن يستطيع البوح أن ابن عباس قد أخطأ أو أن أبن عمر قد جانب الصواب أحياناً؟ ومن يجرؤ أن يدّعي أن واحداً من أهل البيت قد كانت طبائعه أقرب إلى طبائع أهل الأرض؟ ومن يستطيع البوح أن هناك – ولو من الناحية النظرية- مجالاً متوافرا في هذا الدين لمذهب خامس يختلف ويضيف إلى مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأبن حنبل؟ ومن يستطيع أن يبوح – ولو من باب ما رأى في المنام- أن أهل العلم قد أخطئوا جميعاً في مسألة ما من أحكام الوضوء أو الصلاة أو الحج أو الصدقة أو الذبيحة أو النكاح أو ما يؤكل وما لا يؤكل، الخ؟

نحن نظن أنه لو فعل واحد من أبناء المسلمين وأدعى شيئاً من ذلك، لنصّب أهل الشريعة من أنفسهم آلهة على الأرض، وأصدروا عليه الحكم الأزلي بالخلود في نار جهنم (هذا إن كنت تستحق عناء المحاكمة أصلاً كما فعلوا لرشيد الجراح وأمثاله). نقول لهؤلاء جميعاً مقولتنا التي كررناها مرات ومرات: أسألكم بالله إذا كانت مفاتيح الجنات في جيوبكم فلا تفتحوا لنا أبوابها متى طرقناه عليكم بعد يوم الحساب)

الدليل

وقد يقول من يريد الحجة (وليس المجادلة): وأين الدليل على كلامك بأن التحريف هو حمل الكلام على غير معناه الصحيح مع الاحتفاظ باللفظ؟

الجواب: نقول بأننا يمكن أن نستنبط ذلك من قول الحق في كتابه الكريم:

- ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال: 16]

فالمتحرّف للقتال لا يترك ساحة المعركة وإنما يحاول أن يغير طريقته في القتال، فهو عندما يجد أن الأعداء قد يتغلبوا عليه إن هو أصر على المكوث في وضعه ذاك وهو ولم يعد قادراً على مواجهتهم من هذا الجانب وبالحال التي هو عليها، ما يكون منه إلا أن يتحرف للقتال، أي يحاول المواجهة بطريقة أخرى، فيصبح التحريف أقرب إلى المناورة والمراوغة، وهكذا يفعل – برأينا- سادتنا ومشايخنا ممن يسمون أنفسهم بالعلماء، فهم ما أن يجدوا أن ما نشئوا عليه من أفهام عشرات بل مئات السنين لم يعد يخدم مصالحهم، وأصبح فجوة واضحة في موقفهم، لا يترددون قيد أنمله في أن يطرحوه وراء ظهورهم، وينتقلوا إلى الهجوم من جديد ولكن بأدوات وأسلحة وطرق جديدة، وبكلمات أكثر دقة، فهم على الدوام قادرون أن يتحرّفوا.

ثانياً، لو قرأنا الآية الكريمة التالية من كتاب الله لوجدنا أنها تصوّر – برأينا- حالهم أحسن تصوير:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: 11]

فالذي يعبد الله على حرف لا ينفك أبداً عن تغيير مواقفه حسب الظروف والأحوال، فإن كان خيراً رأيت منه كل إمارات الاطمئنان والثبات، وما أن تصيبه فتنة من الله حتى ينقلب على عقبيه على الفور وكأن خيراً لم يصبه قط. أليس هذا هو التقلب في الأهواء حسب الأحوال؟ أليس هذا هو التحريف.

تحريف الكلام بإخفائه وعدم إظهاره للناس

أما الطريقة الثانية في تحريف الكلام فتكون بإخفائه وعدم إظهاره على الناس، وقد أكد الله أن هذه الفعلة الشنيعة كانت من صنيعة أهل الكتاب:

- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: 15]
- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: 91]

نعم، لقد كانت تلك سياسة متبعة عند بني إسرائيل: إخفاء كثير من الكتاب (وليس تبديل الكلمات)، فالكلمات الأصلية موجودة في الكتاب ولكن قلّ من يعلمها من الناس بسبب محاولة علماؤهم الدءوبة على إخفاءها، فهم يروجون فقط لما ترغب أنفسهم أن يروجوا له، ويخفون ما لا يريدون للعامة أن يطّلعوا عليه.

- فلو أنت حدّثت عامة المسلمين عن حديث رضاع الكبير، لوجدت الوجوم على وجوههم متى أخبرتهم أن هذا حديث في الصحاح.

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث الْقَاسِمِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها:

(أنَّ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ كَانَ مَعَ أَبِي حُذَيْفَةَ وَأَهْلِهِ فِي بَيْتِهِمْ ، فَأَتَتْ تَعْنِي ابْنَةَ سُهَيْلٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : إِنَّ سَالِمًا قَدْ بَلَغَ مَا يَبْلُغُ الرِّجَالُ وَعَقَلَ مَا عَقَلُوا وَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْنَا، وَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ، وَيَذْهَبْ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ"، فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ : إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُهُ ، فَذَهَبَ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ).

- ولو أنت حدثتهم عن محاولة النبي الصعود إلى رؤوس الجبال في محاولة للانتحار، لكان الاستغراب أكبر على وجوههم متى أخبرتهم أن هذا موجود في حديث الوحي الذي يبدأ به أحد الصحاح، ولكن، هل قرأ أحدهم ما في هذه الكتب؟

روى البخاري في حديث عائشة في حديث بدء نزول الوحي، قال: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب، وحدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر، قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " ... ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي فترةً حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقا. فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل، تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك)

ألم يتركوا ذلك لأهل العلم ليقرؤوه لهم؟ ولكن هل أخبر أهل العلم القصة كلها للناس؟ أم اكتفوا فقط بما يرغبوا هم أن يطلعوا العامة عليه؟ أليس هذا هو فعل إخفاء ما في الكتاب الذي جاء ذمّه صريحاً في كتاب الله؟ من يدري!!!

إننا نرى في قول الحق مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ دليلا واضحا على أنهم لم يبدلوا ما في الكتاب (أي لم يزيدوا عليه ولم ينقصوا منه شيئاً)، وذلك لأن من يقوم بفعل الإخفاء لا يستطيع أن يقوم بذلك إن لم يكن هناك شيء موجود أصلاً ليتم إخفاءه. ولنستطرد قليلاً في محاولة منا فهم معنى الإخفاء كما يرد في النص القرآني، ولنستعرض الآيات الكريمة التالية لنرى أنه عندما تخفي شيئاً فلا بد أن يكون موجوداً أصلاً:

- ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]

فكيف يمكن أن تخفي صدقة إن لم يكن هناك صدقة أصلاً؟

والإخفاء يتطلب استخدام وسيلة لتغطية الأمر، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

فالمرأة تخفي زينتها، ولا بد من استخدام حاجز أو وسيلة لتغطية الأمر، فالمرأة تستخدم جلبابها (أو ثوبها أو خمارها، سمّه ما شئت) لإخفاء زينتها. نستطيع أن نزعم – بناءً على ما فهمناه من هذه السياقات القرآنية- أنه لابد من توافر أمرين اثنين في استخدام مفردة الإخفاء: أولهما أنك عندما تريد أن "تخفي"، لا بد أن يكون هناك شيء موجود أصلاً لكي تخفيه، قال تعالى:

- ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾ [الأحزاب: 54]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ [آل عمران: 5]

- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: 38]

وثانيهما استخدم وسيلة لتغطية ذلك الأمر، وتتمثل تلك الوسيلة بالحاجز الذي يحول دون الوصول إلى الشيء المخفي كغطاء المرأة:

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 31]

وقد يتم إخفاء الشيء في النفس:

- ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284]
- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154]
- ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: 37]

أو في الصدر:

- ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: 29]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]
- ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 19]

نعم، لقد أخفى علماء اليهود والنصارى في أنفسهم وفي صدورهم الكثير من علم ذلك الكتاب عن العامة، فليس كل ما في صدورهم وأنفسهم مدار نقاش ومعرفة لعامة الناس. وقد احتلت هذه السياسة "القذرة" حيزاً كبيراً في تفكير كثير ممن نصّبوا من أنفسهم علماء أهل الإسلام تحت ما روّجوا له بفقه "عدم إثارة الشبهات" أو "التقيّة"، فما يدور بينهم قد لا ينقل الكثير منه إلى العامة، وكأن لسان حالهم يقول: قولوا للناس هذا ولا

تقولوا للناس ذاك، ويكأن دين الله بالنسبة لهم شيء وللعامة شيء آخر. أليس هذا تحريف لكلام الله؟ من يدري!!!

لا بل فقد وصلت الجرأة بالكثير الكثير منهم إلى نعت من يحاول أن ينبش في قضية شائكة (لأنهم قد عجزوا عن فهمها) بأنه شخص يثير الشبهات حول الدين، ولا أظن أنهم وجدوا تهمة لإلصاقها بكل شخص يتعرض لمثل هذه القضايا (كـ رشيد الجراح وأمثاله) أفضل من تهمة إثارة الشبهات، فهو (ومن على شاكلته) في رأيهم شخص يثير الشبهات حول دين أبائهم وأجدادهم، وهدفه – حسب ظنهم- هو أن يصد الناس عن دين الله، لذا فهو شخص مارق، غالباً ما يكون – في نظرهم- منفّذاً لأجندة الأعداء المتربصين بهذا الدين. وكما قال أحد مشايخهم في برنامج تلفزيوني (يرعاه المتكسبين باسم الدين كما يتكسب غيرهم بقنوات الدعارة والخلاعة) إن هذا الدكتور الذي في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة اليرموك (بجوز مش أنا!) لم يعهد مثله في عشيرته الطيبة التي يعرفها هو (أي شيخنا الجليل) خلال حياته العسكرية الطويلة التي صاحب خلالها أناساً طيبين من هذه العشيرة، ولكنه – يضيف ذلك العالم الجليل- لا زال لا يفهم كيف يخرج مارق مثل هذا الزنديق (يقصد دكتور اللغة الإنجليزية) من هذه العشيرة الطيبة! إذاً، الدين عندهم - يا سادة – مرتبط بالعشيرة. فهل ترون أن فكر هذا الشيخ الجليل يختلف عن فكر سادة قريش الذين جهزوا الجيوش لمحاربة دين محمد لأنه ببساطة سفه عقائدهم؟!

فإذا ما نبش رشيد الجراح وقال تعالوا نتدارس ما يشذ عن قواعدكم اللغوية الموجودة في كتاب الله، قالوا أن هذا الشخص إنما يقصد إثارة الشبهات حول الدين. ونسوا (أو ربما تناسوا) أننا نحاول أن نذكرهم بـ "التفاهات" التي وضعوها من عند أنفسهم وربطوها بكتاب الله، حتى أصبح الكثير منهم (والعامة من الناس من ورائهم) يظنون أن القدح فيها قدح في كلمات الله. فهم قد شقوا عن صدور العالمين، وعلموا أن هؤلاء الناس (من مثلي) ينطبق عليهم قول الحق:

- ﴿... فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ ...٧﴾ [آل عمران: 7]

لكنهم هم بالطبع من لهم الحق بالنبش بما يريدون وترك ما لا يريدون لأنهم من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله:

- ﴿... وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ...٧﴾ [آل عمران: 7]

رأينا: لما كان دين الله هو الحق، فإننا نعتقد أن ليس فيه ما يجب إخفاءه، ولما كان محمد هو المتبع الأول لشريعته فليس في سنته ما يستوجب السكوت عنه، لذا فإننا نرفض جملة وتفصيلاً فقه "عدم إثارة الشبهات" عن الطرف الأول من أهل الإسلام كما نرفض جملة وتفصيلاً فقه "التقية" عند الطرف الآخر. فهذه ليست من عقيدتنا، فدين الله يجب أن يطّلع على تفاصيله كل عباده بغض النظر عن درجة علمه، ونحن نعتقد جازمين أن من يخفي شيئا من العقيدة (صغيرا كان أم كبيرا) ينطبق عليه قول الحق الذي جاء ليفضح ما كان يفعل أقرانهم من أهل العلم في الشرائع السابقة:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: 91]

عودة على بدء: إننا نظن أن ما يقوله أهل الإسلام عن معنى "تحريف" الكتب السماوية الأخرى ليس أكثر من محض هراء لا حجة عليه من كتاب الله، ولكن هذه النتيجة تعيدنا مرة أخرى إلى السؤال نفسه ولكن بطريقة جديدة: لماذا يوجد هناك أكثر من نسخة من الإنجيل على وجه التحديد بينما لا يوجد إلاّ نسخة واحدة من التوراة ونسخة واحدة من القرآن؟

رأينا المفترى: لمّا كان عيسى بن مريم لا يتحدث لغة قوم بعينهم، لم يكن هو من فصّل الكتاب إنجيلاً آراميا.

انظر كيف أن القرآن قد فصّل عن الكتاب عربياً:

- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٣﴾﴾ [فصلت: 3]

فعيسى بن مريم لا ينتمي إلى قوم حتى يفصّل لهم ما نزّل إليهم بلسانهم وذلك لأنّ مهمة الرسول أن يبين للناس ما نزّل إليهم بلسان قومه:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: 4]

فعندما وجه عيسى بن مريم الخطاب إلى بني إسرائيل، لم يتوجه لهم بالخطاب على أساس أنهم قومه:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

وعندما توجه الله بالخطاب إلى عيسى ابن مريم، جاء كلامه على نحو أن من كان حوله هم الناس (وليس قومه):

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

نتيجة وافتراء: لم يكن لعيسى بن مريم قوم حتى يبيّن لهم ما نزّل إليهم من ربهم بلسانهم.

سؤال: من الذي بيّن لبني إسرائيل ما نزّل إليهم من ربهم بلسانهم إن لم يكن فعلاً هو عيسى بن مريم؟

جواب: إننا نظن أن القرآن الكريم يقدّم لنا إجابة قد تستنبط من قوله تعالى:

- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

فالوحي جاء للحواريين من الله، لذا فهم من كانوا يملكون ما جاءهم الوحي به (وهو – في رأينا- الذكر)، الأمر الذي مكّنهم من القيام بنقل كتاب الله كما آتاه الله لعيسى بن مريم إلى قومهم (مادام أن عيسى بن مريم ليس منهم):

- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]

إلى كتب يفهمها الناس الذين كانوا حول عيسى بن مريم، ولما كان هناك أكثر من واحد من الحواريين الذين جاءهم الوحي من ربهم، كان من الطبيعي أن يخرج كل واحد منهم بنسخته من الإنجيل الذي آتاه الله عيسى بن مريم.

السؤال: لماذا هناك أكثر من نسخة من الإنجيل إذاً؟ ولماذا هناك فقط نسخة واحدة من التوراة ونسخة واحدة من القرآن؟

افتراء خطير جداً جداً جداً: نحن نظن أن ذلك يعود إلى من أوحيت إليه تلك الكتب، ولكن كيف ذلك؟

رأينا:

- ⇐ لقد أوحي التوراة إلى موسى، فخرجت على لسان موسى نسخة واحدة فقط بلسان قوم موسى (عبرانياً)
- ⇐ لقد أوحي القرآن إلى محمد فخرج القرآن نسخة واحدة على لسان محمد بلسان قوم محمد (عربياً)
- ⇐ لقد أوحي الإنجيل إلى الحواريين فخرج أكثر من نسخة على لسان الحواريين بلسان قوم الحواريين (آراميا)

إن هذا الطرح يقودنا إلى الافتراء الأكثر خطورة في تاريخ أمة الإسلام وهو: القرآن كلام الله ولكنه قول محمد

سنحاول في كتب قادمة (بحول الله وتوفيقه) التعرض للتضارب الظاهري الذي تثيره الآيات الكريمة التالية متى ما قرئت معاً:

- ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [التوبة: 6]
- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ [الحاقة: 40]

وجل النقاش سيكون حينئذ منصباً على التفريق بين القرآن كـ كلام والقرآن كـ قول

(فالله ربي أسأل أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لغيري إنه هو العليم الحكيم)

باب: عيسى بن مريم كلمة الله

نحن نقرأ في كتاب الله أن المسيح عيسى بن مريم هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم، أليس كذلك؟

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45]
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

السؤال: كيف يكون المسيح كلمة؟ وما معنى أن يكون المسيح كلمة من الله؟

رأينا: للإجابة على هذا التساؤل فلابد من معرفة معنى الكلمة، فنحن نظن أنه غالباً ما خلط الناس بين الكلام والكلمة، فظنوا أن الكلام يحمل على الكثرة بينما الكلمة هي المفردة الواحدة من الكلام، وهذا ما نظن أنه قد سبب – برأينا- الإرباك والضبابية في الفهم، ولكن كيف ذلك؟

⇐ **افتراء من عند أنفسنا** 1: نحن نظن أن الكلمة لا تعني المفردة الواحدة، فمفردة "كتاب" مثلاً ليست كلمة وإنما هي مفردة فقط.

⇐ **افتراء من عند أنفسنا** 2: نحن نظن أن الكلمة هي القول الكثير شرط أن يؤخذ جملة واحدة فلا يتجزأ.

الدليل

أولاً، نحن نظن أن الدليل على زعمنا هذا يمكن استنباطه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64]

فالمتدبر للنص القرآني يجد أن الكلمة التي يجب أن ندعو أهل الكتاب إليها هي: أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن هذا القول بمجمله هو كلمة (تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ)؟

ثانياً، إذا كانت الكلمة تعني المفردة الواحدة (كما قد يظن البعض)، فكيف يمكن أن نفهم ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

السؤال: ما هي كلمة الله التي هي بلا شك العليا؟ وما هي كلمة الذين كفروا التي هي بلا شك السفلى؟ أليس كل ما جاء من عند الله من قول هو الكلمة العليا؟ أليس كل ما قاله الذين كفروا هي كلمتهم السفلى؟ ثم إن شئت، اقرأ قوله تعالى:

- ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: 4-5]

ثم أليست هذه هي كلمة (أو على الأقل جزء من) الكفر:

- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: 74]

ثم انظر إلى هذه الكلمة الطويلة التي قالها بعضهم:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: 99-100]

فهل هذه مفردة واحدة أم قول كثير؟

ثم انظر – إنْ شئت- إلى ما قاله إبراهيم ككلمة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: 26-28]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن القول (بغض النظر عن عدد مفرداته) يشكل كلمة مادام أن مصدره واحد وفحواه واحد:

- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: 115]

فقول ربنا هو كلمة، وهو لا شك أنه الكلمة التامة صدقا وعدلاً. كما أن كل جزء من قول ربنا هو أيضاً كلمة، فما سبق من قول ربنا هو كلمة:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: 19]

- ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119]
- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: 19]

وكلمة العذاب هي كلمة:

- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: 71]

وكلمة الفصل هي كلمة:

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21]

وكلمة التقوى هي كلمة:

- ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26]

نتيجة: نحن نظن أن كلمة العذاب كجزء من كلمة ربنا هي كلمة، وكلمة الفصل هي كلمة، والكلمة التي سبقت من ربك هي كلمة، وكلها بمجموعها تشكل الكلمة التامة صدقاً وعدلاً، ولتوضيح الفكرة أكثر نحن نتصورها كالشجرة التي ضربت بها مثلاً في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 24-25]

فكلمة الله هي بمجملها كلمة طيبة كالشجرة الطيبة، وأن قرارها وأصلها وفرعها وكل جذع فيها هي أيضاً كلمة طيبة.

وبالمقابل فإن كلمة الذين كفروا كالشجرة الخبيثة بمجملها، وبقرارها وبأصلها وبفرعها وبجذوعها:

- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26]

السؤال: كيف يكون المسيح كلمة من الله؟

نحن نظن أن المسيح بمجملة كان (كما نتصوره) جذع من تلك الشجرة الطيبة التي أصلها طيب وفرعها في السماء، وكان ذلك الجذع بحد ذاته كلمة.

ولتبسيط الصورة نضرب المثال التالي: إذا ما كان هناك حفل خطابي تم إدراج أكثر من خطيب على لائحة المتحدثين، فإن كل منهم سيلقي كلمة في ذلك الحفل، فنحن لا زلنا نقول في لغتنا الدارجة بأن الخطيب قد ألقى كلمة في المؤتمر مثلا، فهل يعني ذلك أنه قد تلفظ بمفردة واحدة؟

رأينا: كلا وألف كلا، لأن كلمة الخطيب قد تمتد ساعات، وقد تكون مكتوبة على صفحات كثيرة من الورق، ففي البارحة مثلاً ألقى محمد مرسى (رئيس جمهورية مصر العربية المنتخب) ألقى كلمة استمرت حوالي ساعتين ونصف، فتخيل معي عزيزي القارئ حجم المفردات التي خرجت على لسانه عندما ألقى تلك الكلمة. ولكنها في نهاية المطاف كانت كلمة، أليس كذلك؟

وبمثل هذا المفهوم الذي نتصوره نقول أن المسيح منذ اليوم الأول لولادته وحتى وفاته لم يصدر عنه إلا طيبا، ولم يقع في محظور قط، ولم "يعاتبه" الله في شيء إطلاقا، فكان كلمة واحدة.

الدليل

نحن نفهم أن المسيح كان رسول الله كما كان نوح وإبراهيم وموسى ومحمد:

- ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

ولكن المتدبر لسيرة رسل الله جميعا (باستثناء المسيح عيسى بن مريم) يجد مفارقة عجيبة بين جميع رسل الله من جهة والمسيح بن مريم من جهة أخرى، وتلك الملحوظة تتمثل – كما نفهمها- في أن جميع رسل الله قد وقعوا في حياتهم في محظور ما، فها هو نوح يخاطب ربه في ابنه، فينهاه الله بأشد عبارات الزجر، ويتوعده بأن لا يكون من الجاهلين:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 45-46]

وها هو رب إبراهيم يخاطب إبراهيم ليبدي ما كان في قلب إبراهيم من الريبة:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

وها هو موسى يكز الرجل فيقضي عليه، ويقر بالظلم الذي ارتكبه بحق نفسه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 15-16]

وها هي المواقف تتالى على محمد:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب: 1]

والله نفسه هو من أبدى ما أخفاه محمد في نفسه:

- ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

والله نفسه هو من أوقف محمد عند حده حتى لا يذهب بعيدا، فشرع له أن يتحلل من يمينه:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: 1-2]

والله هو نفسه من أكد أن محمد كان من قبل هذا القرآن من الغافلين:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: 3]

وهو نفسه من أخبرنا أن محمداً كان ضالا فهداه الله:

- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: 7]

السؤال المربك لي: لِم لَم يأتي شيء كهذا بحق المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود لأن المسيح كان كلمة من الله، فلا أظن أن من كان جذعاً مأخوذاً من تلك الشجرة الطيبة يمكن أن يصدر عنه شيء إلا ويكون طيباً، ونحن نتخيل المسيح عيسى بن مريم (في هذا الجانب) بالضبط كالقرآن الكريم، ففي حين أن القرآن الكريم هو كلمة الله التي نطق بها محمد، فخرجت تامة صدقاً وعدلاً، كان المسيح بحد ذاته كلمة الله بصبغتها البشرية. لذا لمّا كان كل ما جاء في القرآن صحيحاً على إطلاقه كان المسيح بن مريم بحد ذاته صحيحاً على إطلاقه، فحياة المسيح على – عكس جميع رسل الله- كانت كلها بمثابة قرآن يستشهد به. وهذا لا يصير لأي رسول آخر.

نقول لمن أراد أن يجادل في ذلك، ويرى أن هذا يصير لمحمد مثلاً، نقول له عليك بالعودة مثلاً إلى حديث تأبير النخل:

قال الإمام مسلم في كتاب الفضائل:

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّقَفِيُّ وَأَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ وَهَذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ قَالاَ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلاَءِ؟ فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَى فَيَلْقَحُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِذَلِكَ فَقَالَ:

إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وقال الإمام أحمد في المسند:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ سِمَاكٍ أَنَّهُ سَمِعَ مُوسَى بْنَ طَلْحَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ مَرَرْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي نَخْلِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى أَقْوَامًا فِي رُءُوسِ النَّخْلِ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ قَالَ يَأْخُذُونَ مِنَ الذَّكَرِ فَيَجْعَلُونَهُ فِي الْأُنْثَى يُلَقِّحُونَ بِهِ فَقَالَ مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا فَبَلَغَهُمْ فَتَرَكُوهُ وَنَزَلُوا عَنْهَا فَلَمْ تَحْمِلْ تِلْكَ السَّنَةَ شَيْئًا فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ إِنْ كَانَ يُغْنِي شَيْئًا فَاصْنَعُوا فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ

وقال الإمام مسلم أيضا:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرُّومِيِّ الْيَمَامِيُّ وَعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْعَنْبَرِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْمَعْقِرِيُّ قَالُوا حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ وَهُوَ ابْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا أَبُو النَّجَاشِيِّ حَدَّثَنِي رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ قَالَ قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ مَا تَصْنَعُونَ قَالُوا كُنَّا نَصْنَعُهُ قَالَ لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا فَتَرَكُوهُ فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ قَالَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ قَالَ عِكْرِمَةُ أَوْ نَحْوَ هَذَا قَالَ الْمَعْقِرِيُّ فَنَفَضَتْ وَلَمْ يَشُكَّ

وقال أيضا:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَمْرٌو النَّاقِدُ كِلَاهُمَا عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ أَبُو بَكْرٍ حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ

أو حديث القضاء بين الناس بما كان يسمع منهم (وإن كنا نحن نتحفظ على ما جاء في متن هذا الحديث):

حدثنا أبو بكر قال حدثنا وكيع قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلي ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة .

حدثنا أبو بكر قال حدثنا وكيع قال حدثنا أسامة بن زيد الليثي عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم يختصمان في مواريث بينهما قد درست ليس لهما بينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إلي ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار ، يأتي بها إسطاما في عنقه يوم القيامة ، قالت :

فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي ، فقال رســول الله صــلى الله عليه وســلم : أما إذ فعلتما فاذهبا واقـتسـمـا وتـوخـيـا الـحـق ثـم لـيـحـلـل كـل واحـد مـنـكـمـا صـاحـبـه .

حدثنا أبو بكر قال حدثنا محمد بن بشر الغنوي قال حدثنا محمد بن عمرو قال حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فمن قطعت له من حق أخيه قطعة فإنما أقطع له قطعة من النار]ص[357 :

فنحن نرى أن متن هذا الحديث يتعارض مع صريح اللفظ في قوله تعالى:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]

باب الإنجيل: ما هو الإنجيل؟

لو تدبرنا الإنجيل (أو العهد الجديد بنسخه المتعددة) لوجدنا أنه في مجمله سرد لسيرة حياة المسيح عيسى بن مريم، فليس فيه أحكاما للميراث والطلاق ونحوها، أو الشعائر كالصلاة والصدقة والحج والصوم، الخ. لذا نحن نظن أن الإنجيل بأكمله (وبنسخه المتعددة) هو التعبير المباشر لتلك الكلمة وهي المسيح نفسه (التي امتدت سنوات من الزمن). فهو عبارة عن تفصيل ذاك الجذع من الشجرة الطيبة. فكل نسخة من ذلك الكتاب المقدس تروي جانباً من تلك الكلمة (المسيح). وكلها مجتمعة تشكل تلك الكلمة التي ألقاها الله إلى مريم، لذا لا يجوز أن يؤخذ بعضها ويترك بعضها لأن في ذلك تحريف لتلك الكلمة. فحتى يُفْهَم المسيح ككلمة من الله، لابد من التعرض لنسخ الإنجيل جميعها كوحدة واحدة، وللتمثيل على ذلك نضرب المثال التالي من القرآن:

نحن نعلم أن قصة نبي الله ورسوله موسى مثلاً قد وردت في كتاب الله في سورة البقرة، ووردت في سورة النمل وطه والقصص، وعشرات السور الأخرى، وهنا نطرح السؤال التالي: هل نستطيع أن نفهم قصة موسى بمجملها من مكان واحد في كتاب الله؟ هل نستطيع أن نكتفي بما جاء في كتاب الله عن قصة موسى في البقرة؟ هل نأخذ سورة القصص مثلاً كتفصيل لقصة موسى؟

رأينا: كلا وألف كلا، فحتى نستطيع أن نفهم قصة عيسى بن مريم بجميع جوانبها وتفصيلاتها، فلابد من التعرض لها في كل موطن جاء ذكر لها في كتاب الله. والأهم من ذلك هو ربطها بالسياقات القرآنية الأخرى التي تشكل معها جميعا كلمة الله التامة صدقاً وعدلاً. وهذا بالضبط ما نفهمه من قصة المسيح عيسى بن مريم ككلمة من الله، فلابد من أن تؤخذ تلك الكلمة من كل نسخ الإنجيل التي كتبها الحواريون.

لكن هذا الطرح سيثر تساؤلات جمة حول الموضوع نذكر منها:

- من هم الحواريون؟
- لماذا جاءت تسميتهم بالحواريين؟
- كم كان عددهم؟

- لماذا كتبوا الإنجيل؟
- بم كتبوا الإنجيل؟ بأي لغة كتبوه؟ وبأي وسيلة؟
- لِم لَم يكتب عيسى الإنجيل بنفسه؟
- أين ذهب الحواريون بعد وفاة عيسى بن مريم؟
- هل يعقل أن من تآمر على عيسى بن مريم سيترك الحواريين وشأنهم؟ وهل يعقل أن من أقدم على قتل يحيى (كما تقول رواياتهم) سيترك الحواريين وشأنهم؟
- أين ذهبت تلك النسخ من الإنجيل التي كتبها الحواريون؟
- ما هي اللغة التي كتبت بها؟
- كم عدد تلك النسخ؟
- لم اختفت تلك النسخ من الإنجيل بلغتها الأصلية؟
- ما علاقة الحواريين بيحيى؟
- ما علاقة عيسى بن مريم بيحيى؟
- لماذا جاء يحيى في زمن عيسى بن مريم؟
- وماذا كان يمكن أن يحصل لو لم يكن هناك يحيى نبيا من بني إسرائيل في نفس زمن عيسى بن مريم الذي كان رسولاً إلى بني إسرائيل؟
- الخ

هذه هي التساؤلات التي سنتعرض لها (بحول الله وتوفيقه) في الجزء القادم .

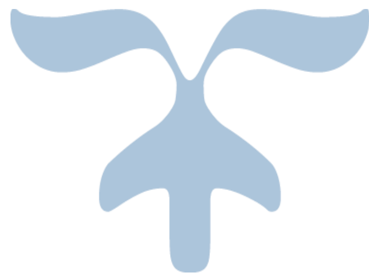
فالله وحده أسأل أن يأذن لي بعلم لا ينبغي لغيري إنه هو السميع المجيب.



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء السادس

من هم الحواريون(1)



الجزء السادس: من هم الحواريون (1)

خلص الجزء السابق من بحثنا هذا عند التعرض لمفردة الحواريين وعلاقتهم بكتابة الإنجيل، وطرحنا عندها التساؤلات المثيرة التالية:

- من هم الحواريون؟
- لماذا جاءت تسميتهم بالحواريين؟
- لماذا كتبوا الإنجيل؟
- بم كتبوا الإنجيل؟ بأي لغة كتبوه؟ وبأي وسيلة؟
- لِم لَم يكتب عيسى الإنجيل بنفسه؟
- أين ذهب الحواريون بعد وفاة عيسى بن مريم؟
- كم كان عددهم؟
- هل يعقل أن من تآمر على عيسى بن مريم سيترك الحواريين وشأنهم؟ وهل يعقل أن من أقدم على قتل يحيى (كما تقول رواياتهم) سيترك الحواريين وشأنهم؟
- أين ذهبت تلك النسخ من الإنجيل التي كتبها الحواريون؟
- ما هي اللغة التي كتبت بها؟
- كم عدد تلك النسخ؟
- لم اختفت تلك النسخ من الإنجيل بلغتها الأصلية؟
- ما علاقة الحواريين بيحيى؟
- ما علاقة عيسى بن مريم بيحيى؟
- لماذا جاء يحيى في زمن عيسى بن مريم؟
- وماذا كان يمكن أن يحصل لو لم يكن هناك يحيى نبيا من بني إسرائيل في نفس زمن عيسى بن مريم الذي كان رسولاً إلى بني إسرائيل؟
- الخ

وسنحاول في هذا الجزء السابق متابعة النقاش السابق في محاولة منا الإجابة على بعض هذه التساؤلات.

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

المبحث الأول: من هم الحواريون؟

جواب: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية تسلط الضوء على الحواريين من جوانب متعددة، فلنحاول أن نتدبرها من هذا الجانب:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]

فالآية الكريمة تبيّن أن الحواريين هم أنصار الله، كما توضح كذلك الفصل بين الحواريين من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى. فعندما أحس عيسى من بني إسرائيل الكفر توجه بالطلب المباشر أن ينصره البعض:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

فما جاء ردٌ على طلبه هذا إلا من الحواريين الذين قالوا أنهم أنصار الله:

- ﴿... قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

نتيجة: الحواريون كانوا أنصار الله.

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لما اختار الحواريون أن يكونوا أنصار الله جاءهم الوحي الإلهي المباشر:

- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

تلخيص: لقد أوحى الله بنفسه إلى الحواريين (وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ) أن يؤمنوا به وبرسوله (أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي)، فآمنوا (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا) وأشهدوا الله على ذلك (وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ)، وربما يكون المعنى هنا أنهم أشهدوا المسيح على ذلك.

نتيجة مهمة جدا سنحتاج إليها لاحقاً: بالإضافة إلى أن الحواريين كانوا أنصار الله فقد كانوا مؤمنين

وهنا نتوقف لنثير جملة من التساؤلات الخطيرة والخطيرة جداً، نذكر منها:

- هل الله يحتاج إلى من ينصره؟
- كيف كان الحواريون أنصار الله؟
- وكيف أوحى الله إلى الحواريين؟
- لماذا أوحى الله إليهم؟
- الخ.

جواب: نعم، نستطيع نحن البشر أن ننصر الله كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد: 7]

سؤال: وكيف تكون النصرة؟

جواب: نحن نظن أن النصرة تأتي في ساعة العسرة:

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾ [التوبة: 117]

إن المدقق في هذا السياق القرآني يجد أن الأنصار قد اتبعوا النبي في ساعة العسرة، أليس كذلك؟

فنحن نفتري الظن بأن الذين اتبعوا النبي في ساعة العسرة كما تشير الآية الكريمة ربما هم الأنصار وليس المهاجرين، فالفصل بين المهاجرين من جهة والأنصار من جهة أخرى واضح في السياق القرآني التالي:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]

والنصرة في ساعة العسرة واضحة في السياق القرآني التالي:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: 40]

ولو حاولنا أن نربط ذلك بطلب عيسى النصرة ممن هم حوله لربما افترينا القول بأن عيسى بن مريم ربما كان في ساعة عسرة عندما طلب النصرة ممن حوله.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن أيضاً بأن النصرة ربما تأتي بعد أن يكون الشخص قد أخرج من المكان الذي تواجد فيه، فالرسول محمد قد أخرج من مكة، وما أن أخرج من مكة ولم يجد من ينصره كان الله هو وحده الذي نصره بعد أن أخرجه الذين كفروا. وهذا المعنى ربما يؤكده ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: 40]

وربما هذا المصير لم يكن لمحمد وحده، وإنما لرسل من قبله:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: 13]

نتيجة: نحن نفتري الظن أن عيسى بن مريم طلب النصرة ربما لأن القوم حاولوا إخراجه من بينهم (كما فعلوا مع محمد)

ونحن نفتري الظن أن النصرة تأتي عندما يكون هناك تهديد قد يلحق الأذى بالجسم:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

فالذي طلب النصرة من موسى كان في قتال مع شخص آخر، انتهى في نهاية المطاف بمصرع أحدهما:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

افتراء خطير من عند أنفسنا: نحن نؤمن بأن طلب عيسى النصرة ممن حوله قد جاء بعد أن أحس الكفر من بني إسرائيل مباشرة (فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ) ، عندها ربما شعر عيسى – برأينا- بأن القوم لا محالة مخرجوه من الأرض وربما مقدمون على إلحاق الأذى الجسدي به (وهذا ما حصل فعلاً لاحقا).

ونحن نظن أن نصرة النبي (بمن فيهم عيسى بن مريم) قد جاءت واضحة في السياق القرآني التالي:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: 146-148]

والنصرة من الله تأتي لمن وقع عليه الظلم:

- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: 39-40]

ونحن لا نشك قيد أنملة بأن النتيجة ستكون على نحو نصرة من الله تثبّت بها الأقدام:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 7]

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أننا نصل بهذه الآية الكريمة إلى الافتراء الأكبر الذي نريد تسويقه هنا وهو: مادام أن الحواريين قد اختاروا أن يكونوا أنصار الله (قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ)، فلا شك أن الله قد نصرهم وثبّت أقدامهم. لذا، لكي نتعرف على شخصية هؤلاء النفر ممن كان حول المسيح عيسى بن مريم فلابد أن نبحث عنهم من بين أولئك الذين نصرهم الله وثبت أقدامهم، فمن هم يا ترى؟

⇐ **أولاً**: نحن نؤمن أن من جاءه النصر من الله لا يمكن أن يكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ [البقرة: 86]

نتيجة: يستحيل أن يكون الحواريون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، بل على العكس تماماً فهم قد اشتروا الآخرة بالحياة الدنيا.

لذا يجب أن نبحث عنهم بين أولئك الذين باعوا حياتهم الدنيا في سبيل الآخرة.

⇐ **ثانياً**: نحن نؤمن أن من نصره الله لا يمكن أن يغلبه أحد:

- ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: 160]

نتيجة: مادام أن الحواريين قد نصروا الله (فنصرهم)، فيجب أن نبحث عنهم بين الذين لا غالب لهم

⇐ **ثالثاً**: نحن نؤمن أن نصر الله لا محالة قادم لمن بغي عليه ولم يعتد:

- ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحج: 60]

نتيجة: نحن نظن أننا بحاجة أن نبحث عنهم بين من بغي عليهم فجاءهم نصر من الله

⇐ **رابعاً**: نحن نظن أن بعض الأذى يمكن أن يلحق بمن نصره الله:

- ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ [آل عمران: 111]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحواريين لم يشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وإلاّ لما نصرهم الله، كما نظن أن من الاستحالة بمكان أن يكونوا قد غلبوا، فمن ينصر فالله لا محالة ناصره، وبالتالي فلا غالب له، ولا شك أن الله قد ثبت أقدامهم، ولكن ربما يكون القوم مِنْ حولهم قد بغوا عليهم فألحقوا بهم بعض الأذى حتى جاءهم نصر من الله. فكان الحواريون ممن ظلموا ولم يكونوا من الظالمين.

السؤال: من هم هؤلاء النفر من الناس؟

من يدري!!! لننتظر سائلين الله أن يهدينا سواء السبيل وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم.

الباب الثاني: لماذا جاءت تسميتهم بالحواريين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة الحواريين ربما لها علاقة بمصدرين رئيسين وهما:

⇐ الحور

- ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤﴾ [الدخان: 54]
- ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٢٠﴾ [الطور: 20]
- ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ۝٧٢﴾ [الرحمن: 72]
- ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة: 22-23]
- ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: 14]

إن صح افتراضنا بأن لمفردة الحواريين علاقة بمفردة الحور، فإننا نقدم الافتراء الخطير التالي: لو حاولنا ربط مفهوم الحور (في الجنة) بقصة الحواريين لربما صح لنا أن نقول بأن الحواريين يتشابهوا مع الحور العين في أنهم لم يقدِموا على الزواج قط، لأنهم لمّا نذروا أنفسهم لنصرة الله فقط، آثروا أن يقصروا أنفسهم في مكان محدد بعينه، فنحن نظن أن قصة الرهبان (الذين لا يتزوجون) في الديانة النصرانية قد جاءت من قصة الحواريين أتباع عيسى بن مريم الذين نذروا أنفسهم لرسالة المسيح، فآثروا خدمته على التمتع ببعض ملذات الحياة الدنيا.

⇐ الحوار

- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝٣٤﴾ [الكهف: 34]
- ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ۝٣٧﴾ [الكهف: 37]
- ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1]

إن صح افتراضنا بأن لمفردة الحواريين علاقة بمفردة الحوار، لربما صح لنا أن نعيد الافتراء القديم الذي قدمنا في الجزء السابق وهو أنهم (أي الحواريين) هم فقط من استطاعوا التحاور مع عيسى بن مريم بوحي

مباشر من الله، وذلك لأن عيسى بن مريم – كما افترينا القول سابقا- لم يكن يتحدث لغة الناس الذين من حوله، مادام أنهم ليسوا بقومه، فالحواريون هم فقط من استطاع أن يفهم لسان عيسى بن مريم بوحي مباشر من الله. ولو دققنا في القرآن كله لما وجدنا خطابا ورد الخطاب (على شكل حوار) بين عيسى من جهة وقوم آخرين من جهة أخرى إلا مع الحواريين. فمنذ كان عيسى صبيا في المهد وهو يخاطب بني إسرائيل ولكننا لا نجد أنهم قد خاطبوه إطلاقا.

السؤال: من هم هؤلاء النفر من الناس؟

من يدري!!! لننتظر سائلين الله وحده أن يهدينا سواء السبيل وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم.

الباب الثالث: لماذا كتب الحواريون الإنجيل أنفسهم؟

غالباً ما طرح أهل الفكر المسيحي السؤال التالي: لِم لَم يكتب عيسى الإنجيل بنفسه؟ فهم يعترفون بأنفسهم بأن الإنجيل لم يكن الصياغة الحرفية لكلام عيسى بن مريم بنفسه، وظن الكثيرون منهم أن النسخ الأولى منه قد ظهرت بعد وفاة عيسى بن مريم بزمن ليس بالقصير.

وقد كانت هذه من بين الحجج التي ظن المنتقدون للفكر المسيحي أنها تؤيد موقفهم، فهم يعتقدون أن في إقدام نفر من الناس ممن كان حول المسيح بنقل رسالته إلى الناس سببا كافيا في إلقاء ظلال الشك على مصداقيتها.

موقفنا: نحن نظن أن المسيح لم يكن يستطيع أن ينقل رسالته للناس بنفسه، لأنه لم يكن يتحدث لسان القوم الذين من حوله (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ) ماداموا أنهم ليسوا بقومه، عندها تولى الحواريون بوحي من الله (فهم أنصار الله) نقل رسالة المسيح إلى الناس، فكانوا هم من كتب الإنجيل، فخرج الإنجيل بأكثر من نسخة، لتكون كل نسخة هي الصورة التي نقلها كل واحد من الحواريين عن عيسى بن مريم.

وهنا سيطرح التساؤل التالي على الفور: لِم لَم يكتب عيسى الإنجيل بنفسه؟

رأينا: لمّا كان عيسى بن مريم لا يتحدث لسان قوم بعينهم، لم يكن يستطيع أن يكتب الإنجيل بلغة أي قوم لأنه سيعتبر عندها منهم:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم: 4-5]

فالمتدبر لهذا السياق القرآني يجد أن موسى كان له قوم وهم بنو إسرائيل، فكان يتحدث لسانهم لأنه ببساطة منهم، ولكن عيسى بن مريم لم يكن من بني إسرائيل وإن كان رسولاً إلى بني إسرائيل، فالقارئ الكريم مدعو إلى النظر وعقد مقارنة بين موسى وعيسى كما تصور ذلك الآيتان الكريمتان المتتابعتان في سورة الصف:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: 5]
- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: 6]

ففي حين أن موسى يتوجه بالخطاب إلى من حوله على أنهم قومه (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ)، يتوجه عيسى بالخطاب إلى من حوله على أنهم بنو إسرائيل وأنه رسول الله إليهم فقط.

باب: لغة الإنجيل

لعل طرحنا هذا يحل إشكالية اللغة التي كتب بها الإنجيل، ولكن كيف؟

غالباً ما طرحت التساؤلات التالية:

- بم كتب الإنجيل؟
- بأي لغة كتب؟
- وبأي وسيلة؟
- الخ

ولو تصورنا – كما زعم الذين من قبلنا- أن عيسى بن مريم كان من بني إسرائيل، وأن بنو إسرائيل آنذاك هم قومه، لكان لزاماً أن يخرج الإنجيل بلغة بني إسرائيل وهي العبرية. فنحن نعلم أن التوراة (كتاب موسى) كان مكتوبا بالعبرية، فلم - يا ترى- لم يخرج الإنجيل عبرانيا مادام أن عيسى كان متواجداً بين العبرانيين كقوم زكريا ويحيى؟

رأينا: نحن نظن أنه لمّا لم يكن عيسى بن مريم ينتسب إلى بني إسرائيل على أنهم قومه لم يخرج الإنجيل بلغة بني إسرائيل عبرانيا. كما نفتري الظن أيضاً بأن الذين نصروا عيسى بن مريم بوحي من الله (وهم الحواريون) لم يكونوا أصلاً من بني إسرائيل، وإلا لخرجت النسخ من الإنجيل بلغة بني إسرائيل وهي العبرية.

السؤال: كيف نفسر إذن الحقيقة الماثلة في أن لغة الإنجيل الأصلية لم تكن العبرانية القديمة وإنما الآرامية؟

رأينا: نحن نظن أن الحواريين الذين استطاعوا فهم لسان عيسى بن مريم بوحي مباشر من الله لم يكونوا من بني إسرائيل، ولكنهم كانوا يتحدثون اللسان الآرامي.

السؤال: من هم هؤلاء النفر من الناس إذن؟ من يدري!!! لننتظر سائلين الله وحده أن يهدينا سواء السبيل وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم.

باب: فترة شباب عيسى بن مريم

تحدثنا في الجزء السابق أن الفكر المسيحي قد غرق في الحديث عن لحظة ميلاد المسيح عيسى بن مريم وعن فترة تبشيره بالدين الجديد وهي الفترة التي يسمّونها بسن "الكرازة"، ولكنهم غفلوا (ربما عن قصد أو عن غير قصد) عن الفترة الوسطى بين ميلاد المسيح عيسى بن مريم وكرازته (ومن أراد التأكد من ذلك فليسأل أهل الديانة النصرانية عن حياة المسيح بين طفولته وكرازته أو لينظر في مؤلفاتهم إن كان لديه فسحة من الوقت).

وكذلك هي الحالة بالنسبة للفكر الإسلامي، فما نجده في القرآن عن حياة المسيح يتحدث عن ولادته وعن "كرازته" أيضاً، ولا نكاد نجد شيئا عن فترة شبابه كما الحال بالنسبة لموسى أو ليوسف أو لإبراهيم مثلاً. والآيتان الكريمتان التاليتان ربما تبينان جليا هذا الطرح:

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: 46]
- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠﴾ [المائدة: 110]

فالمسيح – بنص الآيتين الكريمتين- قد كلم الناس في (1) المهد (تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ) و (2) وكهلاً (تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ)، فماذا عن الفترة بينهما؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن عيسى بن مريم لم يكلم الناس في الفترة الوسطى بين المهد و "الكهولة" إطلاقاً، ولكن لماذا؟

ونحن نظن أن ما ورد في القرآن بلفظ "كهلا" ربما هو ما يقابله في التعاليم المسيحية تحت لفظ "الكرازة".

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن عيسى بن مريم لم يكن يستطيع أن يتحدث لغة الناس ممن حوله، فهو لم يتعلم لغة قوم بأعينهم، فقد جاء الغلام ينطق بالحق منذ لحظة ولادته. لذا لم يستطع من كان حول المسيح عيسى بن مريم أن يفهم كلام المسيح لو هو فعلاً تكلم معهم.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل السيناريو على النحو التالي: تأتي مريم قومها تحمل المسيح (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ)، يسألها من كان حاضرا من القوم عن ما تحمله (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)، تشير إلى الصبي نفسه (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ)، يستغرب القوم أن يكلموا من كان في المهد صبيا (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)، فلم يتكلم من كان حاضرا من القوم مع الغلام إطلاقاً، ينطلق لسان الغلام بالكلام على الفور (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)، يستغرب الحاضرون من القوم ما بدر من الغلام من فعل الكلام، فهم لم يعهدوا مثل هذا

من قبل. إن ما يهمنا في هذا الطرح هنا هو ظننا بأن القوم وإن سمعوا كلاماً من الغلام إلا أنهم لم يردوا عليه القول بمثله بدليل أنهم لم يجادلوه ولم يستفسروا منه عن شيء، فلو فهم القوم – نحن نتخيل- ما قاله الغلام في تلك اللحظة لما تركوه وشأنه دون أن يتحاوروا معه، فمن المستغرب أن يترك علماء بنو إسرائيل (ومن بينهم زكريا نفسه) هذه الفرصة تطير من بين أيديهم. فكان هذا في رأينا كلام المسيح عيسى بن مريم للناس في المهد (وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ).

ينشأ الغلام على هذه الشاكلة، لا يكلم الناس مادامو لا يستطيعون أن يفهموا كلامه، يستمر على تلك الحالة حتى يأذن الله له بنشر تعاليم الدين الجديد. فينطلق لسانه ليحدثهم بالمهمة التي أوكلها الله إليه وهو أنه رسولاً إلى بني إسرائيل:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

فكان هذا - في رأينا- كلام المسيح عيسى بن مريم للناس في كهولته (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً).

وهنا تجري على يديه بإذن الله ما لم يستطع من حوله من القوم أن يفهمه، وهو ما يرغب علماؤنا الأجلاء بتسميته بـ "المعجزات" ونظن نحن أنها آيات بيّنات:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]

وبعد أن يفعل كل ذلك على مرأى ومسمع منهم تأتي رسالته لهم على النحو التالي كما تصور ذلك الآيات الكريمة التي تلي الآية السابقة مباشرة:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: 50-51]

وما أن يبدأ عيسى بن مريم ببث التعاليم الجديدة التي تختلف بعض الشيء عن ما ألفه علماء بنو إسرائيل من ديانتهم القديمة كتحليل بعض ما حُرِّم عليهم (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) حتى تكون ردة الفعل الأولى عندهم (كما يفعل من ينصّبون على الدوام من أنفسهم مسؤولية حماية شريعة الله في الأرض) مناصبته العداء، فجاء في الآية التالية مباشرة قول الحق:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 52]

نتيجة: عيسى يحس الكفر من القوم إحساسا، فلماذا؟

باب: علاقة المسيح بيحيى

حاولنا في الجزء السابق رد دعوة أهل الديانة النصرانية المتمثلة بأن يحيى قد جاء متزامنا مع المسيح نفسه ليؤكد صدق رسالة المسيح، فنحن ببساطة ننكر أن نحتاج إلى من هو مثل يحيى ليصدق رسالة من هو مثل المسيح، فالمسيح لا يحتاج لبشر أن يثبت صدق دعوته لأنه ببساطة صادق فيما يقول وهو حجة على من سواه، وما يكون لبشر (حتى وإن كان يحيى بن زكريا نفسه) أن تكون له حجة على المسيح عيسى بن مريم، لذا حاولنا طرق الموضوع من جديد من خلال الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

وقد تعرضنا للتساؤل التالي: كيف يكون يحيى مصدقاً بكلمة من الله (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ)؟

فقدمنا جوابنا المفترى على النحو التالي: لمّا كان المسيح عيسى بن مريم هو كلمة الله جاء يحيى ليصدق بهذه الكلمة، ولكن كيف؟

جواب: هنا حاولنا التعرض لمفردتين وهما التصديق (مُصَدِّقًا) والكلمة (بِكَلِمَةٍ).

وكان موقفنا على النحو التالي: لما كان المسيح منذ اللحظة الأولى التي جاء فيها إلى الوجود ينطق بالحق كان كل ما قاله منذ ولادته وحتى وفاته كلمة واحدة، فما نطق إلا بحق (على غير جميع البشر الآخرين حتى الرسل والأنبياء أنفسهم). ولتقريب الصورة زعمنا القول بأن المسيح بشخصه هو بالضبط كالقرآن الذي لا نجد فيه إلا الحق لأنه ببساطة كلام الله. فكما المسيح هو كلمة الله، فإن القرآن هو كلام الله.

فكيف إذن جاء يحيى ليصدق بتلك الكلمة (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ)؟

رأينا: لما كان المسيح لا يتحدث لسان القوم الذين من حوله لأنه ببساطة ليس منهم، ولم يتعلم لسانهم مادام أنه قد ولد وله لسانه الخاص به الذي جاء به من عند ربه، لم يستطع القوم (أي بنو إسرائيل) أن يفهموا ما يقول المسيح لهم ، لذا لم يستطيعوا أن يجمعوا أمرهم فيه، فعاش المسيح – في تصورنا- بين القوم يتحدث كلاماً غير مفهوم بالنسبة لهم، فهو وإن كان بالنسبة لهم شيء غير عادي، لكن ذلك لم يكن ليقطع الشك باليقين عندهم بأنه المسيح الذي جاء ذكره في كتبهم.

ولما كان ديدن يهود هو تصديق أنفسهم فقط، فهم قوم قلما يثقون بغيرهم، جاءهم نبي من بينهم، يعرفون نسبه فيهم وهو يحيى بن زكريا (الذي لا يستطيعون أن يكذبوه) ليقرّ لهم بلسانهم (العبراني) بأن هذا

الشخص المتواجد بين ظهرانيهم ويتحدث لساناً غير لسانهم هو فعلا المسيح (أو المخلص بمفرداتهم) المذكور عندهم في كتبهم، فكانت رسالته على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: 6]

فقدم لهم البينات على النحو التالي:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: 49-50]

فما كانت ردة فعلهم على البينات التي جاءهم بها إلا على النحو التالي (فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ).

ولما كان هذا هو موقفهم مما فعل المسيح على مرأى و مسمع منهم، ظهر من بينهم (أي من بين بني إسرائيل أنفسهم) نبي يعرفون نسبه فيهم ليقر برسالة عيسى بن مريم (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ)، ويرضى به وبرسالته لهم.

الدليل

نحن لم ننس دعاء زكريا الأول بالذرية، عندما طلب أن يكون وليه الذي يهبه الله له رضيّا:

- ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 5-6]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه قد جاء يحيى ليرضى بأن يكون عيسى بن مريم (من غير بني إسرائيل) رسولاً إلى بني إسرائيل.

كما أننا لم ننس بعد بأن الله قد تحدث عن يحيى قائلاً بأنه لم يكن عصيا:

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 12-14]

لذا نحن نظن أنه بالرغم أن يحيى كان نبيا من أنبياء بني إسرائيل إلا أنه لم يكن ليعص المسيح الذي هو رسولاً إلى بني إسرائيل وإن لم يكن منهم، فانقاد يحيى لأمر المسيح بالضبط كما فعل موسى مع صاحبه:

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ [الكهف: 69]

نتيجة مفتراة: لقد عاصر يحيى (نبي من بني إسرائيل) المسيح عيسى بن مريم (الرسول الذي جاء إلى بني إسرائيل وهو ليس منهم) فصبر على صحبته ولم يعص له أمرا. فصاحب يحيى المسيح وتبعه بالضبط كما تبع موسى صاحبه ليتعلم منه:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]

فكان يتعلم يحيى من صحبته للمسيح كما كان يتعلم موسى من صحبته للرجل الذي ظننا في مقالات سابقة لنا أنه هو العزير:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30]

وكانت المحصلة واحدة: فكما نسب اليهود الولد لله (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ) عندما ظنوا أن العزير (صاحب موسى) هو أكثر علماً من الناس العاديين حتى الأنبياء أنفسهم كموسى، نسب النصارى الولد لله (وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ) عندما ظنوا أن عنده من العلم ما يفوق علم الناس العاديين حتى وإن كانوا أنبياء ك يحيى.

وهنا لابد من التعرض للسؤال المثير التالي: ماذا كان يمكن أن يحصل لو لم يكن هناك يحيى نبيا من بني إسرائيل في نفس زمن عيسى بن مريم الذي كان رسولاً إلى بني إسرائيل؟

رأينا: إن طرح هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى طلب زكريا الذرية، لنطرح من خلال ذلك التساؤلات التالية حول الدافع والزمان والمكان:

- لماذا طلب زكريا الذرية؟
- متى جاء طلب زكريا للذرية؟
- أين جاء طلب زكريا للذرية؟

جواب: لو دققنا في الآية الكريمة التالية لربما ظننا أن السبب الرئيس الذي دفع بـ زكريا أن يطلب الذرية هو الوراثة:

- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [مريم: 6]

لكن إن صحّ هذا الظن، فكيف يمكن أن ربطه بما جاء في الآية الكريمة التالية على لسان زكريا نفسه:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

السؤال: مادام أن زكريا يقر بلسانه بأن الله هو خير الوارثين فلم يطلب وليا ليرثه؟ ألا يكفيه أن يكون الله هو خير الوارثين؟ أليس هو من المؤمنين بقضاء الله (كما يحب مشايخنا أن يعبروا عن ذلك)؟

رأينا: لو تدبرنا النص أكثر لوجدنا أن الوراثة هي النتيجة وليست السبب عند زكريا، فهناك ما قد سبق الوراثة في نفس زكريا، وهو- برأينا- ما جاء في الآية الكريمة التالية، فدعنا ننظر إلى الآيات بسياقها الأوسع:

- ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [مريم: 5-6]

دقق - عزيزي القارئ- جيدا في كلام زكريا هذا كما جاء في كتاب الله، فالوراثة – كما ذكرنا- هي نتيجة وهي تحصيل حاصل بعد أن يهب الله له الولي، ولكن السبب الرئيس الذي نظن أنه دفع بـ زكريا أن يدعو ربه هو خوفه من الموالي (وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي).

تساؤلات

- من هم الموالي الذين خافهم زكريا؟
- لماذا خاف زكريا من الموالي؟
- وما علاقة خوفه الموالي بهبة الله له الذرية؟
- ماذا كان يمكن أن يحصل لو لم يهب الله له الذرية؟ أي كيف ستكون نتيجة خوفه؟
- الخ

باب: من هم الموالي؟

عند التعرض إلى السياقات القرآنية التي تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم وقصة زكريا وولده يحيى نجد أن الخطاب جاء ليبيّن تزامن عائلتين رئيسيتين وهما آل يعقوب و آل عمران. فما الفرق بينهما؟

جواب: عندما طلب زكريا الذرية من ربه جاء خطابه مبرزاً آل يعقوب:

- ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [مريم: 5-6]

نتيجة: يطلب زكريا الذرية من ربه ليكون له ولياً يرثه ويرث من آل يعقوب. فماذا عن آل عمران؟

جواب: عندما جاء الحديث عن مريم جاء مبرزا آل عمران:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]

السؤال: ما علاقة آل يعقوب بآل عمران؟

نحن نفتري الظن بأن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن تستنبط من السياق القرآني التالي:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33]

ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عند محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل وجدنا أن الضرورة تستدعي النبش في معنى الاصطفاء الذي جاء في الآية الكريمة حيث أكدت أن الذين اصطفاهم الله على العالمين هم أربعة:

⇐ آدم إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ

⇐ نوح إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا

⇐ آل إبراهيم إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ

⇐ آل عمران إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ

تساؤلات:

- لماذا هؤلاء الأربعة على وجه التحديد؟
- كيف يصطفي الله من خلقه؟
- وما هي آلية الاصطفاء؟
- وما هي عواقب ذلك؟

الفرق بين الاصطفاء والاختيار

حاولنا في مقالات سابقة لنا التمييز بين الاصطفاء من جهة والاختيار من جهة أخرى، فزعمنا الظن أن هناك فروقات جوهرية بين الفعلين نذكر منهم:

⇐ **أولاً**، الاصطفاء يعني تحولا في الوضع الراهن

نحن نفتري الظن أنه ما أن يصطفي الله أحداً من خلقه حتى يحصل تغيرا جذرياً على الوضع القائم، فمثلاً نحن نعلم من السياق القرآني أن الله قد اصطفى آدم، فكان وجود آدم مصاحباً لإحداث مبدأ الخلافة في الأرض، فقبل وجود آدم لم يكن هناك خليفة غيره (وإلاّ لانتفى أن يكون آدم هو الخليفة). لذا جاء القرار الإلهي باصطفاء آدم ليتغير الوضع الذي كان سائدا حينئذ، وتم اصطفاء آدم لهذه المهمة.

⇐ **ثانيا**، الاصطفاء يمكن أن يسبب قلقاً (وعدم الرضا) عند الغير

وما أن تم اصطفاء آدم لتلك المهمة حتى ظهرت علامات الغيرة (والحسد) عند الغير، فالملائكة لم يرضهم تمام الرضا اصطفاء آدم بأن يكون هو الخليفة، لذا ربما تحركت عندهم أشارات "الغيرة" وحاولوا التنفيس عنها بقولهم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

وتحولت الغيرة إلى حسد واضح عند إبليس الذي رفض الانصياع للأمر الإلهي:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

وهذه النتيجة المصاحبة للاصطفاء (الغيرة وربما الحسد) تكررت في مواطن أخرى، فها هم الملأ من بني إسرائيل مثلاً يحتجون على اصطفاء الله طالوت عليهم ملكا وهم الذين قد طلبوا من نبيهم أن يبعث الله عليهم ملكا من ذي قبل:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن الغيرة يمكن أن تتولد عند الطرف الذي لم يتم اصطفاءه لأن تغيرا في الوضع السائد لا محالة حاصل، وهذا ما نظن أنه قد حصل في حالة زكريا (وهو ما سنحاول التعليق عليه بعد قليل بحول الله وتوفيقه)

⇐ **ثالثاً**، يمكن لمن تم اصطفاءه لمهمة ما أن يقدم نفسه لها أو أن يقدم لها من قبل آخرين.

فنحن نؤمن أن إبراهيم مثلاً قد وجّه وجهه حنيفا لله رافضا كل ما دونه، فهو الذي توجه إلى ربه بالقول:

- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 79]

ونحن نؤمن كذلك أن امرأة عمران قد قدمت ما في بطنها محررا لله:

- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]

فكانت النتيجة أن تقبل ربها ما وضعت:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

ونحن نؤمن أنه قد تم اصطفاء مريم من الله مباشرة مرة أخرى (انظر تكرار اللفظ في الآية الكريمة):

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

⇐ **رابعا**: يمكن لمن تم اصطفاءه أن تقدم له الحجة التي تكون على نحو "توافر العلم لمن تم اصطفاءه" على غيره الذي لم يتم اصطفاءه. ولو تفقدنا السياقات القرآنية التي تتحدث عن الاصطفاء الإلهي لوجدنا أن العلم كان مصاحباً على الدوام لهذا الاصطفاء.

فعندما اصطفى الله آدم واحتجت الملائكة على ذلك جاء تبرير إلهي بذلك:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

وكان ذلك على شكل علم أوكله الله لآدم ولم يكن لغيره:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

فأقرت الملائكة له بذلك عندما شعروا أن آدم يملك من المقومات ما ليس متوافرا عندهم:

- ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: 32]

وعندما احتج الملأ من بني إسرائيل على طالوت أن يكون عليهم ملكا، جاء التبرير (أو الحجة) على نحو أن الله قد زاده بسطة في العلم والجسم:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أنه ما أن يتم الاصطفاء الإلهي حتى يكون هناك علم يكون من نصيب من تم اصطفاءه. وهذا ما نظن أنه قد حصل أيضاً في حالة مريم (وهو ما سنعلق عليه بعد قليل بحول الله وتوفيقه).

⇐ **خامسا**: الاصطفاء لا يعني بالضرورة وجود المنافس على الدوام

فعندما جاء اصطفاء الله لآدم لم يكن هناك من ينافس (أو من هو مؤهل لينافس) آدم، وعندما تم اصطفاء مريم لا نظن أن هناك من كانت مؤهلة كمريم لشغل ذلك المنصب، وهكذا.

تلخيص: نحن نظن أنه عندما يحصل الاصطفاء الإلهي لأحد من خلقه فإن تغيراً في الوضع السائد لا محالة حاصل، فتتولد الغيرة عند الطرف الذي لم يتم اصطفاءه، ويتحصل لمن تم اصطفاءه الحجة على غيره تتمثل بحيازته علما يكون من نصيبه ولا يكون من نصيب غيره. فيستحق بذلك أن يكون متبوعاً لا تابعاً. وهذا ما نظن أنه قد حصل في قصة زكريا (من آل يعقوب) مع مريم (من آل عمران)، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لنقرأ الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن الاصطفاء مرة أخرى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]

السؤال: لماذا جاء الاصطفاء الإلهي لآدم بنفسه ولنوح بنفسه بينما جاء لآل إبراهيم ولآل عمران بمجموعهم؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك مرتبط بأن الاصطفاء ينبني عليه تغيرا في الوضع القائم وأن هذا التغيّر يصحبه وجود العلم مقابل عدم وجود العلم، وبكلمات أكثر دقة نقول بأنه عندما يحدث الاصطفاء الإلهي تنفذ مشيئة الله بأن يتحول مسار العلم إلى جهة جديدة لم يعهد عندها العلم من ذي قبل، كما يمكن أن نفهمه من الآية الكريمة التالية:

- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]

فلو تدبّرنا هذه الآية الكريمة جيداً لوجدنا أن الاصطفاء يصاحبه وراثة الكتاب، ولكن الذين ورثوا الكتاب من الذين اصطفاهم الله فهم على أنواع ثلاث:

- ظالم لنفسه فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ
- مقتصد وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ
- سابق بالخيرات وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ

وهؤلاء الثلاثة جميعاً بالرغم من تفاوت الفعل هم جميعاً من الذي يدخلون جنات عدن، كما يوضح ذلك الآية التي جاء بعد هذه الآية الكريمة مباشرة، فانظر عزيزي القارئ في الآيتين معاً:

- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: 32-33]

فنحن نعلم أن الله قد أصطفى آدم وأورثه الكتاب (علم الأسماء كلها)، إلا أن آدم قد ظلم نفسه:

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: 23]

ونحن نعلم أن الله قد اصطفى موسى برسالاته وبكلماته:

- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 144]

ولكن موسى بالرغم من هذا الاصطفاء كان ممن قد ظلم نفسه عندما وكز الرجل فقضى عليه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 15-16]

نتيجة : عندما ظلم آدم نفسه وعندما ظلم موسى نفسه عادا إلى ربهما بالاستغفار فغفر الله لهما.

أما من كان مقتصد من الذين أورثهم الله الكتاب فهم أمة من أتباع موسى وعيسى:

- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة: 66]

وأما الذين كانوا يسابقون في الخيرات فـ لربما هم من أتباع إبراهيم وذريته الذين أوحى إليهم ربهم فعل الخيرات:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء: 72-73]

وهم بكل تأكيد زكريا وولده يحيى:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 89-90]

نتيجة: كان الاصطفاء الإلهي بوراثة الكتاب قد بدأت مع آدم وانتهت عند يحيى، وكانت عملية وراثية كما تصوره الآية الكريمة سالفة الذكر:

- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]

وهنا سيرد البعض بالقول: وماذا عن محمد؟

فنرد بالقول بأننا نظن أن محمد لم يكن ممن اصطفاهم الله فهو لم يصل إليه الكتاب وراثة وإنما وحياً، فالآية التي تسبق الآية التي تتحدث عن وراثة الكتاب تبين لنا ما جاء محمد من ربه:

- ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: 31-33]

وسنتعرض لهذه القضية التي نظن أنها غاية في الخطورة لاحقاً بحول الله وتوفيقه، سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا، وأن يرحمنا، وأن يعلمنا الحق فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع المجيب.

السؤال: وكيف حصل ذلك؟

فتراء من عند أنفسنا: نحن نؤمن أن الله هو نفسه من علّم آدم الأسماء كلها ولم يعلّم الملائكة ذلك، فكان ذلك العلم (علم الأسماء كلها) مستودعه آدم نفسه، وما أن خسر آدم ذلك العلم بعد قبوله نصيحة الشيطان له ولزوجه حتى زال ذلك العلم ولم يستمر ذلك الاصطفاء في ذرية آدم، فذهب ذلك العلم بذهاب آدم وانتهى الاصطفاء الأول هناك. فكان آدم مصطفاً بنفسه.

عاد هذا الاصطفاء الإلهي مرة ثانية مع نوح، فتجددت البشرية مرة أخرى هناك:

- ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء: 17]

وما أن ذهب نوح حتى انقطع خبر ذلك العلم ما دام أن ذرية نوح قد انقطع خبرها بعد الطوفان.

عاد الاصطفاء الإلهي مرة ثالثة لآل إبراهيم، فاستمر العلم في بيت إبراهيم بشقيه (بيت إسماعيل وبيت إسحق) حتى جاء يعقوب، وعندها انقطع خبر العلم من بيت إسماعيل واستمر في بيت يعقوب:

- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]

واستمر في بيت يعقوب من خلال يوسف:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف: 6]

وهنا ظهر آل يعقوب كورثة شرعيين لذلك العلم الإلهي. واستمر العلم في بيت يعقوب ذاك حتى جاء زكريا وهو كـ نبي في آخر سلالة آل يعقوب، فجاء دعاءه ربه على النحو التالي:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 5-6]

وبهذه الافتراءات الخطيرة نصل إلى ذروة ما نود إثارته حول طلب زكريا الذرية من ربه وهو يعلم أن الله هو خير الوارثين، ولكن كيف ذلك؟

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: يحدث الاصطفاء الإلهي في زمن زكريا لآل عمران (من كانت مريم منهم)، فيقع في نفس زكريا الخبر اليقين بأن تغيرّا في الوضع الحالي لا محالة حاصل، وأن علماً إلهيا جديدا سيستودعه الله في بيت من غير بيوت آل يعقوب، فتتحرك عنده مشاعر الغيرة والخوف على مصير آل يعقوب، ولكن لما كان زكريا يعلم أن سنة الله لا محالة نافذة، لم يحتج عليها كما فعلت الملائكة عندما اصطفى الله آدم عليهم، ولم يعارضها كما فعل إبليس، ولكنه استغلها بطريقة غاية في الذكاء، فأقر بالتغيير الإلهي ورضي به ولكنه توجه في الوقت ذاته إلى الله بالدعاء ليحفظ وراثة العلم في آل يعقوب فلا تزول إطلاقاً بعد حصول العلم الجديد في آل عمران. وبكلمات أكثر دقة فهو يطلب الاستمرار فيما تحصل لآل يعقوب بوجود الذرية التي ترث العلم القديم متزامنة مع المولود الجديد الذي تحمله مريم في بطنها (وهي من آل عمران) والذي ستحصل له علما جديدا لم يكن لآل يعقوب

الدليل

تحدثنا في الأجزاء السابقة عن كفالة مريم، وزعمنا الظن بأن القوم لم يكونوا راغبين في كفالتها بدليل حدوث المخاصمة:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]

وما استقروا على قرار بمن يكفل مريم إلا بإلقاء أقلامهم. وكانت الكفالة من نصيب زكريا نفسه بدليل أن زكريا لم يكفلها طواعية وإنما رغماً عنه، انظر الفعل (وَكَفَّلَهَا) في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ ... ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

وهنا تحدث المفاجأة التي وقعت كالصاعقة على رأس زكريا:

- ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

ولم تحصل هذه الحادثة مرة واحدة وإنما كانت تتكرر على الدوام بدليل (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا). عندها علم زكريا أن هذا ليس صدفة وإنما هو أمر إلهي جلل، فوقع في نفس زكريا ما لم يكن بالحسبان وهو الاصطفاء من غير آل يعقوب. ولكن كيف ذلك؟

رأينا: عندما دخل زكريا المحراب على مريم ووجد عندها ذلك الرزق وعلم أن مصدره السماء، استيقن أن خبر السماء الآن ينتقل إلى الأرض دون أن يمر ببيت من بيوت آل يعقوب. فقد أصبح من له علاقة مباشرة مع السماء شخص ليس من آل يعقوب ورثة العلم والدين منذ زمن يعقوب النبي. فالمتدبر للسياقات التي تتحدث عن الاصطفاء يجد أن الله نفسه هو من يقوم بهذه المهمة، فهو نفسه الذي اصطفى آدم فعلمه علم الأسماء بنفسه، وهو نفسه من اصطفى نوحا وآل إبراهيم وآل عمران، وهو نفسه من اصطفى طالوت ملكا:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

وهو نفسه من اصطفى موسى برسالاته وبكلامه:

- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 144]

ولما كان زكريا يعلم هذه الحقائق، وقع الخوف في نفسه بأن الاتصال الإلهي أصبح مع جهة أخرى، وهذه الجهة الجديدة هي من يعرفهم زكريا من الموالي، فعبر عن خوفه ذاك صراحة بالقول:

- ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾ [مريم: 5-6]

ولو تتبعنا مفردة الموالي في السياقات القرآنية لوجدناها تنطبق على:

ما ترك الوالدان والأقربون

- ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء: 33]

فيصبح الوليّ هو من له حق الولاية على من تولى في كتابة الدَّين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ ... ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

أو حتى بالدم:

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: 33]

والأهم في ظننا هنا هو أن مفردة الموالي تنطبق كذلك على من لم يُعْلَم من هو أبوه:

- ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب: 5]

فتصبح "الطبقية واضحة" في أن من لم يعلم من هو أبوه يقع تحت "ولاية" غيره. وإذا ما أخذنا بالحسبان أن زكريا هو من تكفّل مريم، وإذا ما أخذنا بالحسبان أن المولود القادم الذي ستحمله مريم في بطنها لن يعلم من هو أبوه (فهو سيكون أصلاً مولود بلا أب)، فإن زكريا تقع على عاتقه تلك المسؤولية، ليصبح من في كفالة زكريا من آل عمران هم من مواليه الذين يخافهم زكريا الآن (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي).

ولو دققنا في النص أكثر لوجدنا أن زكريا يدرك على الفور أن هذا الأمر سيحصل بعد أن يفارق هو الحياة بدليل قوله (مِن وَرَائِي). فأصبحت الصورة في نفس يعقوب - كما نتصورها- على النحو التالي:

سيفارق زكريا الحياة فهو قد بلغ من الكبر عتيّا، سيأتي خبر السماء إلى الأرض حينئذ من خلال بيت من غير بيوت آل يعقوب، سيكون ذلك في هؤلاء الموالي الذين تقع على زكريا مسؤولية كفالتهم. سيحدث انقلاب عظيم على الأرض يتمثل في أن يكون آل يعقوب تابعين لا متبوعين (كما كانوا على الدوام منذ زمن يعقوب النبي). سينقطع ذكرهم ولا يعود الدين مصطفا لهم كما جاء على لسان يعقوب لبنيه:

- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: 132]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

وهنا طلب زكريا من ربه أن تكون له ذرية من بعده ليس لترثه هو فقط وإنما لترث من آل يعقوب:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 5-6]

فأجاب الله دعاءه بأن وهب له يحيى:

- ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: 7]

وهنا يتأكد لـ زكريا أن تركة آل يعقوب لن تنتهي مع وفاته وبروز شخص آخر من غير آل يعقوب سيتم اصطفاءه بعلم جديد لم يكن لأحد من آل يعقوب أنفسهم.

السؤال: ماذا كان يمكن أن يحصل لو أن زكريا لم يدع ربه بذاك الدعاء الشهير؟ وماذا كان يمكن أن يحصل لو لم يكن هناك يحيى متزامنا مع المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا: نحن نظن أن العواقب ستكون كبيرة جدا، نذكر منها:

⇐ لن تستمر السيادة لآل يعقوب. ولكن كيف ذلك؟
لو تدبرنا السياق القرآني الذي يتحدث عن الإجابة الإلهية لدعاء زكريا لوجدنا الآية الكريمة التالية التي تصور لنا أن يحيى سيكون سيدا:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

فبقدوم يحيى لن تنقلب الموازين دورة كاملة بحيث يصبح آل يعقوب تابعين لآل عمران وإنما سيبقى آل يعقوب يتمتعون بموقع السيادة التي ورثوها منذ زمن طويل جنبا إلى جنب مع آل عمران (ورثة العلم الجديد)

⇐ لن تستمر اليهودية كديانة على الأرض.
ونحن نفتري الظن أيضا بأنه لو لم يُولَد يحيى كوريث آل يعقوب آنذاك لانتهت الديانة اليهودية منذ تلك اللحظة، ولأصبح الدين الجديد (المسيحية) هو الدين الوحيد، ولحلت المسيحية محل اليهودية بالكامل، ولكن وجود يحيى (من آل يعقوب) كوريث للدين من تلك السلالة متزامنا مع المسيح يرضى بالمسيح رسولا إلى بني إسرائيل وفي الوقت نفسه يطبق تعاليم التوراة التي بين يديه، كانت برأينا السبب الرئيس الذي انتهى باليهودية والنصرانية أن تسيران جنبا إلى جنب، فلم تلغ أحدهما الأخرى، فالدين الجديد (المسيحية) لم يلغ تعاليم الدين القديم (اليهودية) وإنما جاء مكملا لها، ومصححا مسارها من جديد، فكان قول المسيح لهم ينطوي على أمرين كما تصور ذلك الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: 50]

⇐ 1.تصديق ما بين يديه من التوراة وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

⇐ 2.وأن يحل لهم بعض ما كان قد حرم عليهم وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ

تلخيص: لقد كان وجود يحيى ضرورة قصوى لاستمرار آل يعقوب في وراثة الدين، والمحافظة على مركز سيادتهم. فلم تنقلب الأمور رأسا على عقب. فسار يحيى مع المسيح عيسى بن مريم ليصدق به، ولكنه لا يتبعه ولم يترك ما ورث من الكتاب (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ)، فحافظ على اليهودية لتسير جنبا إلى جنب مع المسيحية، فتشاركت اليهودية مع المسيحية عبر الزمن بعد ذلك بالضبط كما كان يحيى يضع يده في يد السميح عيسى بن مريم ليقر كل منهما بالآخر فلا يلغيه ولا يستثنيه.

ونحن لا زلنا حتى يومنا هذا نشهد هذا التزاوج العجيب بين المسيحية واليهودية حتى أصبح الكتاب المقدس هو كتاب واحد بشقيه العهد القديم (وهو التوراة الذي ورثة يحيى بن زكريا) والإنجيل (كتاب عيسى بن مريم الجديد).

وبهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا ربما نستطيع أن نقدم إجابة لمعنى الاسم الذي اختاره الله لذرية زكريا وهو يحيى:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مريم: 7]

لنطرح التساؤل التالي: ماذا يعني أن يكون اسم الغلام يحيى؟

رأينا: نحن نظن أن هذا الاسم مشتق من الحياة، التي هي بلا شك عكس الموت، فكيف يمكن أن يكون الغلام الجديد أسمه يحيى (ولم يجعل الله له من قبل سميا) وهو لا شك سيموت؟

جواب: نحن نظن أننا نستنبط من ذلك على الأقل إشارتين وهما:

⇐ 1.أن يحيى سيكون هو المثبّت للديانة اليهودية (ميراث آل يعقوب) فلا تنتهي بالرغم من قدوم دين جديد على يد المسيح عيسى بن مريم

⇐ 2.أن نهاية يحيى ستكون في سبيل الدفاع عن الدين الذي ورثه عن آل يعقوب، فالسنة الإلهية الكونية هي على النحو الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: 169]

لذا نحن نفتري الظن مادام أن المولود الجديد سيحيى فهو إذا سيقتل في سبيل الله دفاعا عن دين الله (وربما هذا في ظننا ما كانت نهاية يحيى ابن زكريا عليه، فقد قتل يحيى في سبيل الله، فدافع عن الدين الذي ورثه عن آل يعقوب، فاستمرت اليهودية بمقتل شخص يحيى، واستمرت التوراة في الوجود، وبقي يحيى حيّا عند ربه مادام أنه قد قتل في سبيله.

فيحيى قد أخذ الكتاب بقوة (يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ)، فنحن نظن أن القوة تعني الثبات على المبدأ وعدم التفريط فيه، فلم يتنازل عن شيء منه بالرغم من كل الضغوط التي ربما تكون قد مورست عليه، ولو تنازل يحيى عن شي من الكتاب لما قتل في سبيل الله (ولما كان إذاً من الأحياء عند ربهم)، وبالوقت ذاته لضاعت تعاليم الدين القديم كليا. فيحيى هو صاحب الكلمة الفصل في آل يعقوب، فإن هو أضاع الكلمة فقد أضاع ذلك الميراث بأكمله، وهذا الذي لم يحصل إطلاقاً.

باب: متى وأين دعاء زكريا ربه أن يهب له الذرية؟

لعل المتدبر للسياقات القرآنية التي تتحدث عن دعاء زكريا ربه بأن يهب له الذرية التي ترثه وترث من آل يعقوب ربما لن يجد صعوبة في أن يدرك على الفور أن دعاء زكريا ذاك قد حصل في محراب مريم وبوجودها كما تصور – في ظننا- الآيات الكريمة التالية ذلك:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ۝٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ۝٣٩﴾ [آل عمران: 37-39]

والذي يؤكد لنا أن دعاء زكريا قد حصل في المحراب الذي كانت تتواجد فيه مريم أمران اثنان وهما:

⇐ 1.أن زكريا قد خرج على قومه من المحراب فلم يكلمهم مادام أن الله قد جعل آيته أن لا يكلم الناس ثلاث أيام وليال سويا:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١﴾ [مريم: 10-11]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: 41]

⇐ 2.أن زكريا قد دعا ربه دعاء خفيا:

- ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم: 2-6]

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتصور الذي حصل على النحو التالي: تقع كفالة مريم على عاتق زكريا رغما عنه، فالله هو كفّله إياها. تعيش مريم في المحراب، فلا يدخل عليها أحد إلا زكريا، يرى زكريا العجب من أمر مريم كلما دخل عليها المحراب، فالرزق يأتيها من السماء مباشرة، يدرك زكريا أن اتصال السماء بالأرض يحدث الآن دون المرور بآل يعقوب، يعلم زكريا أن اصطفاء إلهيا جديدا لا محالة حاصل، وأن هذا الاصطفاء سيغير الوضع السائد، فيقع الخوف في نفسه على وراثة النبوة منه والكتاب من آل يعقوب، لا يحتج زكريا على سنة الله ولا ينكرها، ولكنه يدعو الله خوفا وطمعا، خوفا من الموالي (وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي) وطمعا في أن تستمر وراثة الكتاب في آل يعقوب فيتوجه على الفور بالدعاء إلى الله وهو في ذلك المحراب (فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝). ولكن لمّا كانت مريم متواجدة معه في ذلك المحراب، لم يرفع زكريا صوته بالدعاء، فيدعو الله دعاء خفيا لئلا تسمع مريم ما يناجي زكريا به ربه في تلك الساعة، وهناك في المحراب نفسه يأتيه الرد الإلهي على الفور:

- ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]

تلخيص: تتحصل الذرية لزكريا، فيكون يحيى، فيأتي الخطاب الإلهي الأول ليحيى على النحو التالي:

- ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]

فتكون مهمة يحيى هي أن يتمسك بالكتاب الذي كان متوافرا بين يديه فلا يفرط بشيء منه، وهو بظننا الكتاب نفسه الذي جاء المسيح ليصدّق بما فيه:

- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]

فعاش يحيى نبيا من بني إسرائيل يتحدث لسانهم، ويتمسك بالكتاب الذي ورثه عن آل يعقوب، ودافع عنه حتى قتل في سبيل الله، وعاش المسيح بين ظهرانيهم رسولا إلى بني إسرائيل ولكنه ليس منهم لا يتحدث لسانهم، فهو قد نطق منذ اللحظة الأولى لولادته، ولم يتعلم لسان قوم بعينهم، فكانت مهمة يحيى تتمثل في أمرين رئيسيين وهما:

⇐ 1.التصديق بعيسى بن مريم كلمة الله، فهو سيد آل يعقوب آنذاك يقر بلسان قومه بأن هذا المولود الجديد الذي لا يتحدث لسان بني إسرائيل وينطق بالحق منذ اللحظة الأولى لولادته هو المسيح (المخلص) الذي يجدون خبره في كتبهم.

⇐ 2.المحافظة على استمرارية العهد القديم (التوراة) جنبا إلى جنب مع العهد الجديد (الإنجيل)، فأصبح الاثنان (العهد القديم والعهد الجديد) كتابا واحدا وهو الكتاب المقدس منذ ذلك اليوم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن الذي حصل هو أن بني إسرائيل لم يتقبلوا جميعهم دعوة عيسى بن مريم لهم، فحاولوا إلحاق الأذى به، وهنا جاءت دعوته لمن حوله بالنصرة بعد أن أحس منهم الكفر:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ.. ١٤﴾ [الصف: 14]

فكانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿... فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]

نتيجة (1) أجاب دعوة عيسى بن مريم الحواريون فكانوا هم أنصار الله (قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ)

نتيجة (2) أنقسم بنو إسرائيل إلى فريقين (فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ)

عودة على بدء: من هم الحواريون الذين كانوا أنصار الله؟

إن نقاشنا هذا يفضي إلى أنه في الوقت الذي جاء يحيى ليصدق بالمسيح ككلمة من الله، لم يكن المسيح يتحدث لسان قوم بعينهم، فجرت على يديه الآيات البينات، وكانت مهمته كرسول إلى بني إسرائيل على النحو التالي:

⇐ ليصدق بما بين يديه من التوراة، فلم يلغها
⇐ ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم
⇐ ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه

ولكن كيف سيقوم المسيح بهذه المهمات جميعها وهو الذي لا يتحدث لسان من حوله؟

رأينا: لقد حصل كل ذلك من خلال الحواريين. فمن هم الحواريون؟

- **أولا**، زعمنا في بداية هذا الجزء الظن بأن الحواريين لم يشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وإلاّ لما نصرهم الله، فمادام أنهم قد نصروا الله فالله لا محالة ناصر من ينصره، فمن الاستحالة بمكان أن يكونوا قد غلبوا، ولا شك أن الله قد ثبت أقدامهم:

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد: 7]

لذا لابد أن يكون الحواريين من الذين آمنوا. ولكن ربما يكون القوم مِنْ حولهم قد بغوا عليهم فألحقوا بهم بعض الأذى حتى جاءهم نصر من الله. فكان الحواريون ممن ظلموا ولم يكونوا من الظالمين.

- **ثانيا**: كما افترينا الظن بأن مفردة الحواريين لها علاقة بمفردة الحوار، فزعمنا القول بأنهم (أي الحواريين) هم فقط من استطاعوا التحاور مع عيسى بن مريم بوحي مباشر من الله، وذلك لأن عيسى بن مريم – كما افترينا القول سابقا- لم يكن يتحدث لغة الناس الذين من حوله، مادام أنهم ليسوا بقومه، فالحواريون هم فقط من استطاع أن يفهم لسان عيسى بن مريم بوحي مباشر من الله.
- **ثالثا**: كما ظننا أن مفردة الحواريين لها علاقة بمفردة "الحور" فزعمنا الظن بأنهم أناس قد نذروا أنفسهم لله، فاعتزلوا الدنيا بمتاعها كالزواج، فهم قوم آثروا خدمة كلمة الله (المسيح عيسى بن مريم) على التنعم بملذات الحياة.
- **رابعاً**، ظننا أن الحواريين هم من نقلوا رسالة عيسى بن مريم بلسانهم إلى الناس جميعا، فظننا أنه لمّا لم يكن عيسى بن مريم ينتسب إلى بني إسرائيل على أنهم قومه لم يخرج الإنجيل بلغة بني إسرائيل عبرانيا. ولو كان الحواريون (برأينا) يتحدثون لسان العبرانيين لخرجت النسخ من الإنجيل بلغة عبرانية. ولكن لما خرجت جميع نسخ الإنجيل بالآرامية، فإننا نتجرأ على الافتراء بأن الحواريين الذين استطاعوا فهم لسان عيسى بن مريم بوحي مباشر من الله لم يكونوا من بني إسرائيل، ولكنهم كانوا يتحدثون اللسان الآرامي.

السؤال: من هم هؤلاء النفر من الناس إذن؟

جواب: هذا ما سنتعرض له في الجزء القادم بحول الله وتوفيقه.

فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم يعلم أحدا من خلقه، وأسأله تعالى أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب.



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء السابع

من هم الحواريون (2)



الجزء السّابع : من هم الحواريون (2)

عودة على بدء: من هم الحواريون الذين كانوا أنصار الله؟

كان الافتراء الأكبر الذي قدّمناه في الجزء السابق يتمثل في أن عيسى بن مريم لم يتحاور إلا مع نفر قليل ممن حوله وهم الحواريون، وذلك لأن غيرهم لم يكن يستطيع أن يفهم لسان عيسى بن مريم الذي جاء ينطق بالحق منذ اللحظة الأولى لولادته، فالله هو من علّم عيسى ذاك اللسان الذي نطق به، بالضبط كما علّم آدم من قبله، فكان عيسى بن مريم هو من وردت مشابهته بآدم فقط في كتاب الله:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]

فبالإضافة إلى الأشياء الكثيرة التي يتشابه بها عيسى بن مريم مع آدم (والتي تعرضنا لبعض منها في مقالاتنا السابقة)، نظن أن اللسان الذي نطق به عيسى بن مريم هو واحدة من أوجه التشابه بين الاثنين، فكلاهما نطق بتعليم مباشر من الله:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

فعجزت الملائكة عن أن ينبئوا الله بتلك الأسماء:

- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]

ونطق آدم على الفور بها:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 33]

وقد ركزنا على ظننا بأن رسالة عيسى كرسول إلى بني إسرائيل كانت تتمثل في الآتي:

⇐ ليصدق بما بين يديه من التوراة، فلم يلغها — وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ

⇐ ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم — وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

⇐ ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه بالحكمة التي جاءهم بها — قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ

وحتى يتأكد القوم من صدق قوله لهم، جرت على يديه الآيات البينات:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]

فتمثلت تلك الآيات البينات بما جاء في قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

خلاصة: كان تعليم عيسى قد جاء مباشرة من الله:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

سؤال: لماذا كان عيسى بن مريم هو الوحيد من بين جميع رسل الله القادر على القيام بمثل هذه الأعمال؟

جواب: لأن لسانه مختلف عن ألسنة الناس كافة

سؤال: وماذا كان لسانه؟

جواب: هو اللسان الذين يتحقق به الأمر بكن فيكون

سؤال: وماذا هو ذلك اللسان؟

افتراء خطير خطير: إنه "لسان" الله نفسه. نعم نحن نظن أن المسيح عيسى بن مريم كان ينطق بالحق فقط، فهو لم يتعلم الأسماء التي ورثناها نحن الناس عن آبائنا وأجدادنا وذلك لأن الله لم ينزل بهذه الأسماء سلطانا:

- ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ [الأعراف: 71]
- ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف: 40]
- ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

فما اتبع المسيح عيسى بن مريم الظن أو ما تهوى الأنفس قط، ولكنه كان كلمة الله التي ألقاها إلى مريم. ولا أعتقد أن كلمة الله تكون غير كلمة الحق.

والمدقق في الآية السابقة يجد أن المقابل لهذه الأسماء التي سماها آباؤنا وأجدادنا والتي لم ينزل الله بها سلطان يأتي الهدى المباشر من الله (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ)

نتيجة مهمة سنحتاج لها لاحقا: من أراد أن يجيئه الهدى من ربه فعليه أن يبتعد عن تلك الأسماء التي لم ينزل الله بها من سلطان.

السؤال: كيف سيستطيع الناس من حول المسيح أن يفهموا قوله والذي لم يكن من مسميات آبائهم وأجدادهم؟

رأينا: لما كان بنو إسرائيل الذين كان المسيح عيسى بن مريم رسولا إليهم (ولم يكن رسولاً منهم) لا يرضون بغيرهم ولا يصدّقون إلا أنفسهم، جاءهم نبي منهم ليصدق بالمسيح (كـكلمة من الله) وهو يحيى بن زكريا:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

وكانت المشكلة الأكبر تكمن – في رأينا- "بترجمة" (أو بكلمات أكثر دقة بتفصيل) قول عيسى بن مريم إلى الناس الذين لا يتحدث لسانهم، فكيف حدث ذلك؟

رأينا: نحن نظن أن هذا قد حصل عندما جاء وحي مباشر من الله إلى نفر ممن حوله وهم الحواريون ليضطلعوا بتلك المهمة المقدسة:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

وهنا نتوقف لنعيد طرح التساؤل الكبير التالي: من هم الحواريون؟

بعد نقاش حول الآيات التي تتحدث عن الحواريين، خرجنا في الجزء السابق ببعض الافتراءات التي ظننا أننا نستنبطها من كتاب الله، نذكر منها:

⇐ **أولا**، أن الحواريين نفر من الناس قد استجابوا لطلب المسيح بالنصرة:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: 50]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

دعاء: اللهم رب أسألك بأسمائك الحسنى كلها وكلمتك التامة صدقا وعدلا أن تتقبلني في أن أكون من أنصارك، إنك أنت العزيز الحكيم

⇐ **ثانيا**: أنهم قد نصروا الله مباشرة:

- ﴿... قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ... ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

⇐ **ثالثاً**: أن الله قد نصرهم ما داموا أنهم قد نصروا الله

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 7]

⇐ **رابعاً**: أن الله قد ثبّت أقدامهم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 7]

⇐ **خامساً**: أن الله قد أوحى إليهم:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

⇐ **سادساً**: أنهم نفر قد آمنوا:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

⇐ **سابعاً**: أنهم نفر أصبحوا من المسلمين:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

⇐ **ثامناً**: أنهم وإن كانوا ممن نصرهم الله لكن ذلك لا ينفي أن القوم ممن حولهم ربما يكونوا قد بغوا عليهم، وألحقوا بهم بعض الأذى، فطلب النصرة عادة ما يأتي عندما يكون هناك ساعة عسرة:

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: 117]

وعادة ما تأتي النصرة مباشرة من الله عندما يحاول القوم إخراج من يدعوهم إلى الهدى من بينهم:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

وربما تأتي عندما يكون هناك تهديد قد يلحق الأذى الجسدي:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

⇐ **تاسعاً**: لو تصورنا أن هؤلاء النفر من حول المسيح قد مرّوا ببعض هذه الظروف نتيجة موقفهم من دعوة المسيح مقابل عناد بني إسرائيل، لربما صح لنا أن نستنبط أن القوم من حولهم قد بغوا عليهم، لذا لم يكن الحواريين من الظالمين.

⇐ **عاشراً**: أن هؤلاء النفر من الناس لم يكونوا ممن يتحدثون لسان بني إسرائيل وإلا لخرج الإنجيل بنسخه المتعددة بلسان عبراني

⇐ **أحد عشر**: أن مفردة الحواريين لها علاقة بالحور، لذا فهم من نذروا أنفسهم لرسالة عيسى بن مريم فتركوا بعض ملذات الحياة كالزواج وهذه هي – برأينا- الرهبانية (الرهبانية التي كتبها الله عليهم وليست الرهبانية التي ابتدعوها من بعد ذلك)

- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 27]

⇐ **اثنا عشر**: أن مفردة الحواريين لها علاقة بالحوار، فلا نجد في كتاب الله كله حدوث التحاور بالقول ورد القول بين عيسى ومن حوله إلا من خلال الحواريين. فلو تفقدنا السياقات القرآنية لوجدنا أن القوم (وأقصد أي قوم) يخاطبون كل رسول جاءهم بالقول ورد القول، فقد خاطبوا نوحا بالقول (يَٰنُوحُ):

- ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: 32]

وخاطبوا إبراهيم مباشرة:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]
- ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: 62]

وكذلك لوطا:

- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: 167]

وصالحاً:

- ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: 77]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: 62]

وشعيبا:

- ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: 88]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: 87]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: 91]

وتكررت هذه الصيغة مرات ومرات مع موسى:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: 55]
- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: 22]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف: 115]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 24]
- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: 134]
- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]
- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: 49]
- ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: 57]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه: 65]
- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

ولكن ربما الملفت للانتباه أن هذه الصيغة تغيب تماما في حالة المسيح عيسى بن مريم، فلا نجد في كتاب الله أن القوم من حول المسيح قد خاطبوه بالقول (يا عيسى بن مريم)، ونجد هذه الصيغة في الخطاب مع عيسى بصيغة (يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ) في حالتين فقط، وهما:

⇐ 1.خطاب الله مع عيسى:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]
- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]
- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

⇐ خطاب الحواريين مع عيسى

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

نتيجة مهمة جدا: فقط الحواريون هم من تخاطبوا مع المسيح عيسى بن مريم من دون خلق الله جميعا.

وبعد جملة هذه الافتراءات التي هي بلا شك من عند أنفسنا يعود السؤال نفسه إلى الواجهة: من هم هؤلاء النفر من الناس الذين جاء ذكرهم في كتاب الله على أنهم الحواريون؟

رأينا المفترى: هم مجموعة من الأشخاص نصروا الله بعد أن طلب عيسى النصرة إلى الله ممن حوله، فانقسمت نتيجة لذلك بنو إسرائيل إلى طائفتين، فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

حصل كل ذلك بعد أن أحس عيسى بن مريم الكفر من بني إسرائيل:

- ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

وقع – برأينا- الأذى من بني إسرائيل على عيسى بأن حاولوا أن يخرجوه وأن يقتلوه، فما استطاعوا ذلك لأن الله قد توفاه ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾ [آل عمران: 55]

بقي الحواريون بعد أن رفع الله عيسى إليه بين القوم، فواجهوا المشاكل بسبب موقفهم العقائدي، فهم أنصار الله.

كانت المشكلة الأكبر بين الطائفتين من بني إسرائيل تكمن في إثبات أو نفي الإلوهية عن عيسى بن مريم، فقال بعض من كفر منهم أن الله هو المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [المائدة: 17]
- ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: 72]

وقال البعض الآخر ممن كفر منهم أن الله هو ثالث ثلاثة أحدهم المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المائدة: 73]

فنسبت هذه الطائفة منهم تبني الولد لله (أي جعلوا لله الولد):

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30]
- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]
- ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يونس: 68]

- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨﴾ [مريم: 88]
- ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: 31]

ولكن هذه الدعوة قد كذّبها الله في أكثر من مكان في كتابه العزيز:

- ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾ [الصافات: 151-152]
- ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ [يونس: 68-69]
- ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: 4-5]
- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم: 88-92]

ولمّا كان الحواريون يدركون بأنه لا ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، كانت عقيدتهم تتلخص بما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾ [البقرة: 116]
- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: 111]

فكان موقفهم على النحو التالي: لقد أنكروا عقيدة الذين كفروا من بني إسرائيل، ورفضوا جملة وتفصيلا العقيدة التي مفادها أن يكون المسيح ولد الله كما زعمت طائفة من الذين كفروا من بني إسرائيل الذين اتخذوا من دون الله آلهة، لأنهم يعلمون أن المسيح (معلمهم) لم يقل مثل هذا الكلام:

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧﴾ [المائدة: 116-117]

نتيجة: الحواريون الآن متواجدون – كما نتصورهم- بين قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة، فثبتوا على موقفهم، فحاول القوم إلحاق الأذى بهم، ولكن لمّا كان الحواريون من الذين نصروا الله:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 52]

كان الله لا محالة ناصرهم على الذين كفروا ومثبت أقدامهم:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 7]

فمن هم يا ترى؟

افتراء خطير خطير من عند أنفسنا: إنهم الفتية الذين أمنوا بربهم وزدناهم هدى، أنهم أصحاب الكهف والرقيم

- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 13-15]

الدليل

نحن نظن أن الحاجة تستلزم قراءة قصة أهل الكهف والرقيم كاملة في سياقها الذي وردت به من بداية سورة الكهف وحتى نهاية قصتهم، لنطرح من خلالها التساؤلات التالية:

- من هم هؤلاء الفتية؟
- كم كان عددهم؟
- لماذا آووا إلى الكهف؟
- ماذا كان في جعبتهم؟
- أين هو كهفهم الذي آووا إليه؟
- هل نستطيع أن نحدد مكانه؟
- هل لازال الفتية متواجدون في كهفهم حتى الساعة؟
- هل نستطيع أن نطلع عليهم الآن؟
- الخ

قبل محاولتنا الإجابة على هذه التساؤلات نجد الضرورة تستدعي أن نؤكد على ما يلي:

⇐ **أولا**، نحن نظن أننا نستطيع أن نقدم إجابات (من عند أنفسنا) على جميع هذه التساؤلات، إجابات نظن نحن أنها مستنبطة من كتاب الله، لذا ندعو القارئ الكريم منذ البداية أن لا يصدّق ما نفتري من قول ما لم يجد أن الدليل من كتاب الله يدعمه، فإن ثبت له ذلك، فليأخذ مما نقول، وإلاّ فليلق بكل

ما نقول في سلة المهملات لأن الحق فقط فيما صدّقه قول الحق، وليس ما نخرج به نحن الناس من استنباطات قد لا تتعدى أن تكون أكثر من تخيلات زائفة من عند أنفسنا.

⇐ **ثانيا**، نحن نظن أن فيما سنقول بعد قليل من الخطورة ما يمكن أن يقلب كل الموازين رأساً على عقب، لذا لابد من التأكيد على الحاجة إلى التثبت قبل التيقّن، فالكلام خطير والنتائج لا محالة كارثية على الكثيرين.

فالله وحده أسأل أن ينفذ قوله بإرادته ومشيئته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو السميع المجيب.

قصة أهل الكهف والرقيم

السؤال الأول: من هم أهل الكهف والرقيم؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن أهل الكهف والرقيم الذين جاء ذكرهم في سورة الكهف من كتاب الله هم حواري المسيح عيسى بن مريم الذين رفضوا جملة وتفصيلا دعوة قومهم أن يتخذوا المسيح عيسى بن مريم إلها من دون الله. وهم الذين التزموا بالعقيدة التي مفادها أن ما قاله قومهم ليس إلا كذبا. فهم من أوحى الله إليهم، وهم من آمنوا، وهم من كانوا مسلمين كما تصورهم الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

الدليل

⇐ **أولا**، لو قرأنا سورة الكهف من بدايتها لوجدنا أنها تبدأ ببث البشرى للمؤمنين وبتوجيه الإنذار الشديد لم قال أن الإله قد اتخذ ولدا:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾ [الكهف: 1-4]

ثم يأتي بعد ذلك التبيان بالقول الفصل بأن نسبة الولد للإله ليس إلا دعوى باطلة ليست مبنية على علم وبالتالي ما هي إلا كذب ما بعده كذب:

- ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾ [الكهف: 5]

وتطلب من النبي الكريم أن لا "يبخع" نفسه على آثارهم:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]

إذن لابد أن لهؤلاء آثارا نهى الله نبيه أن يبخع عليها، ويدعوه في آية أخرى أن لا يبخع نفسه عليهم إن أرادوا أن لا يكونوا مؤمنين:

- ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: 3]

ويبين له العاقبة:

- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: 8-7]

وهنا تبدأ مباشرة قصة أصحاب الكهف والرقيم:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]

ليبدأ التفصيل في قصتهم بأحداثها وشخوصها وأسبابها ونتائجها، الخ.

السؤال: ما علاقة بداية السورة الكريمة التي تنفي تبني الإله للولد بأصحاب الكهف والرقيم؟ من يدري!!!

نحن نبدأ النبش في هذه القصة بإثارة التساؤل الأول التالي: ماذا يعني أن يكونوا هؤلاء هم أصحاب الكهف والرقيم؟ فإذا كنا نعرف أنهم أصحاب الكهف لأنهم آووا إلى الكهف، فماذا عن الرقيم؟ كيف يكونوا أصحاب الرقيم؟ وما هو الرقيم أصلاً؟

رأينا: نحن نستميح سادتنا العلماء أهل الدراية وأهل الرواية العذر أن نخالفهم الرأي بأن الرقيم (كما زعم بعضهم اسم لمكان يتواجد فيه الكهف، أو أنه اسم اللوح الذي كتبت به أسماؤهم كما قال آخرون)، لنفتري الظن من عند أنفسنا بأن مفردة الرقيم مشتقة من "الرقم"، ومنه أخذت – في ظننا- مفردة "مَّرۡقُومٞ" التي ترد في السياقات القرآنية التالية

- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ [المطففين: 7-9]
- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين: 18-21]

وبناء عليه، نحن نتجرأ على الافتراء بأن للرقيم علاقة بالكتب وبالمكان الذي يتواجد به الكتاب معا، فسجين مثلاً هو المكان (أو لنقل الحيز) الذي يتواجد به كتاب الفجار، وعلّيّون هو المكان (أو الحيز) الذي يتواجد به كتاب الأبرار، وكلاهما (سجين وعليون) كتاب مرقوم. فكل واحد منهما يكون كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ، أليس كذلك؟

السؤال: ما جمع الكتاب المرقوم الواحد؟ ماذا يمكن أن نطلق على الجمع منه؟ أو ماذا يمكن أن نقول إذا كان عندنا أكثر من كتاب واحد مرقوم؟

رأينا: رقيم، فمفردة وَٱلرَّقِيمِ هي – في ظننا- جمع مَّرۡقُومٞ

السؤال: ما علاقة هذا بأصحاب الكهف؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لمّا كان كل واحد من الحواريين لديه كتاب قد رقمه بنفسه مما جاءه من العلم من لسان عيسى بن مريم الذي استطاع أن يفهمه بوحي مباشر من الله، أصبح يتوافر أكثر من كتاب مرقوم واحد يتواجد في مكان ما، فأصبحت تلك الكتب بمجموعها "رقيم"، فكانوا هم أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ [الكهف: 9]

فمفردة أصحاب لا تطلق في النص القرآني على المكان فقط، فهناك أصحاب السبت مثلاً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾ [النساء: 47]

وهناك أصحاب الأعراف

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]

وهناك أصحاب الأيكة:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ [الحجر: 78]

وهناك أصحاب الحجر

- ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ [الحجر: 80]

وهناك أصحاب الصراط:

- ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه: 135]

وهناك أصحاب الرس:

- ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾ [الفرقان: 38]

وهناك أصحاب السفينة:

- ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15]

وهناك أصحاب الفيل:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]

وهناك أصحاب اليمين في مقابل أصحاب الشمال:

- ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾ [الواقعة: 27]
- ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١﴾ [الواقعة: 41]

السؤال: فما المانع أن يكون هناك أصحاب الكهف والرقيم معاً؟

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ [الكهف: 9]

من يدري!!!

⇐ **ثانيا**، لو تدبرنا السياق القرآني الذي جاء بعد ذلك مباشرة لوجدنا أنه يبرز الكهف على أنه هو ما يشير إلى المكان، ولا نجد الحديث عن المكان في قصة أهل الكهف يظهر فيه الرقيم مرة أخرى، فالفتية قد أووا إلى الكهف:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ١٠﴾ [الكهف: 10]
- ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١﴾ [الكهف: 11]
- ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقًا ١٦﴾ [الكهف: 16]
- ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]

وهم قد لبثوا فيه أيضاً:

- ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]

نتيجة مفتراة: المكان الذي أوى الفتية إليه والمكان الذي لبثوا فيه هو الكهف ولا علاقة للرقيم في فعل أوى (أَوَى ، فَأۡوُۥٓاْ) أو لبث (وَلَبِثُواْ).

⇐ **ثالثاً**، لو دققنا في هذه الآيات جيدا لوجدنا أن الكهف هو شيء معروف (معهود) بالنسبة لهم:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ١٠﴾ [الكهف: 10]

فالمدقق بنص هذه الآية الكريمة يجد على الفور بأن الفتية قد ذهبوا إلى الكهف الذي يعرفونه. فهم لم يأووا إلى كهف ما وإنما إلى الْكَهْفِ ، فوجود أداة التعريف مع مفردة الكهف منذ أول سياق تظهر فيه يدلنا على أن الفتية قد عهدوا هذا الكهف من ذي قبل (وسنتحدث بحول الله وتوفيقه عن تفصيلات هذا الكهف ومكانه لاحقا).

⇐ **رابعا**، لو تدبرنا في السياق القرآني أكثر لوجدنا أن الفتية قاموا بفعل الإيواء (أَوَى ، فَأْوُوا)، التي نظن أنها في سياقاتها القرآنية تدل على المكان الذي يتم اختياره لوجود مواصفات محددة تفي بالغرض الذي تم اختياره من أجله، فالله هو من آوى ابن مريم وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

وغالباً ما يتم اختيار هذا المكان من أجل أخذ قسط من الراحة كما حصل في حالة موسى وفتاه عند الصخرة:

- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾ [الكهف: 63]

وغالبا ما يكون المكان الذي تم اختياره لفعل الإيواء من أجل النجاة من شي (أو من خطر يتهدد من يقوم بالفعل) كما كان في حالة ابن نوح في خضم الطوفان:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: 43]

أو في حالة لوط عندما جاءه أهل المدينة يهرعون من أجل الفتية:

- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود: 80]

وغالبا ما يكون ذلك لهدف المكوث فترة قصيرة من الوقت:

- ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [السجدة: 19]
- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: 6]

وما أن يذهب هذا الخطر (أو العارض) حتى يخرج من ذلك المكان من أوى إليه. فلا أظن أن "ابن" نوح كان ينوي أن يمكث في ذلك الجبل الذي ظن أنه يمكن أن يعصمه من الماء إلى الأبد، ولا أظن أن مريم وابنها مكثا في تلك الربوة طويلا، وهكذا.

وغالباً ما يأوي الأحباب والأصحاب مع بعضهم البعض:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٩﴾ [يوسف: 69]
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [يوسف: 99]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الفتية كانت بينهم صحبة يجمعها رابط قوي حتى آووا إلى الكهف معا، ونحن نظن أنهم قد أووا إلى الكهف بحجة المكوث فيه لفترة قصيرة من أجل الراحة وحتى يزول الخطر الذي كان يتهددهم.

⇐ **خامسا**: نحن نستميح السادة العلماء العذر مرة أخرى أن نخالفهم الرأي لنؤكد أن هؤلاء الفتية قد خرجوا من بين قومهم بهدف الاعتزال فقط (وليس الهروب) كما تؤكد ذلك الآية الكريمة التي تتحدث عنهم بصريح اللفظ:

- ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف: 16]

نتيجة: لقد خرج الفتية لأنهم أرادوا اعتزال قومهم لأن قومهم كانوا يعبدون إلها آخر من دون الله.

ولو تدبرنا مفردة الاعتزال في السياقات القرآنية لربما وجدناها تؤكد على أن ذلك الحدث (كما هو فعل الإيواء) هو أيضاً حدث آني (أو temporary باللسان الأعجمي) لن يكون إلى الأبد (أو permanent بالإنجليزية):

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

كما نظن أن السبب في إقدام الشخص على فعل الاعتزال يكون بدافع شرعي كما في حالة اعتزال النساء في المحيض.

والاعتزال يحصل في حالة القتال، فالذي يتوقف عن القتال فهو يتوقف عنه لأنه لا يريد إلحاق الأذى بالآخرين:

- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: 90]

وغالباً ما تكون المخاصمة في الدين هي الدافع الشرعي الأكبر للاعتزال كما حصل في حالة إبراهيم مثلا:

- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]

وكما في طلب ذاك الرسول الكريم الذي جاء آل فرعون:

﴿۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١﴾ [الدخان: 17-21]

ونحن نظن أن عاقبة الاعتزال تكون خيرا:

- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]

نتيجة: نحن نظن أن الفتية قد قاموا بفعل الاعتزال إلى الكهف عندما شعروا بالتهديد الذي يمكن أن يلحق الأذى بهم لو أنهم لم يعتزلوا قومهم، فهم لا يرغبون في مقاتلة قومهم أو إلحاق الأذى بغيرهم، كما لا يريدون أن يلحق قومهم الأذى بهم. فمن أقدم على اعتزال القتال يفعل ذلك عندما تحصر صدورهم:

- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: 90]

السؤال: ماذا كان يمكن أن يحصل لو أن هؤلاء الفتية لم يعتزلوا قومهم وظلوا متواجدين بينهم؟

رأينا: نحن نظن أن العاقبة ستكون على نحو "الرجم"

فإبراهيم اعتزل قومه لأن أباه هدده بالرجم إن هو لم ينته ويكف عن الدعوة ضد دين آباءه وأجداده:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]

وهذا ما حاول القوم أن يفعلوه بالرسول الكريم الذي جاء آل فرعون لينصح لهم:

- ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١﴾ [الدخان: 17-21]

وكان هذا هو تهديد القوم للمرسلين الثلاثة:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ [يس: 18]

ولقي شعيب تهديد من قومه بالرجم إن لم ينتهي عما يقول:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود: 91]

وهي النتيجة التي كان يمكن أن يكون عليها حال فتية الكهف لو أنهم لم يعتزلوا قومهم كما جاء على لسان الفتية أنفسهم:

- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 20]

نتيجة: نحن نتخيل بناء عليه أن الصراع بين الفتية من جهة وقومهم من جهة أخرى كان صراع عقيدة، فكان الحل عند القوم يكمن بواحدة من خيارين: إما أن يعود هؤلاء الفتية في ملة قومهم أو الرجم. عندها اتخذ الفتية القرار بالاعتزال وذلك بأن يأووا إلى الكهف الذي يعرفونه:

- ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: 16]

السؤال: لماذا اختار الفتية الكهف؟ وكيف عرفوه؟ ومن أين عهدوه؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن تستنبط من المشاهدة البسيطة التالية: في حين أن هؤلاء هم فتية (أكثر من فتى واحد) وهم لا شك ليسوا إخوة من بيت واحد (كحالة إخوة يوسف مثلا) إلا أنهم كانوا مشتركين جميعاً في كلب واحد، أليس كذلك؟

- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: 18]
- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: 22]

فبالرغم من كثرة عددهم إلا أن الكلب لهم جميعا، فهم يتشاركون فيه (وَكَلْبُهُم)، فكيف حصل ذلك؟

رأينا: لو تدبرنا في القصة أكثر لوجدنا أنه عندما قام الفتية بفعل الإيواء إلى الكهف لم يأوي الكلب إلى الكهف معهم:

- ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: 10]

فالذين أووا إلى الكهف هم – بصريح لفظ الآية الكريمة- الفتية فقط، ليكون السؤال الآن على النحو التالي: من أين جاءهم الكلب الذي هو لا شك كلبهم جميعا (وَكَلْبُهُم)؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل الموقف على النحو التالي: جاء الفتية من "المدينة" ليعتزلوا قومهم، حتى تهدأ العاصفة التي أثيرت حول اتخاذ الإله للولد (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)، فتوجهوا إلى الكهف الذي يعرفونه (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)، سائلين الله أن ينشر لهم من رحمته (يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته)، وحتى يهيئ لهم من أمرهم مرفقا (وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا):

- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: 16]

حصل كل ذلك ولم يكن الكلب معهم، وما أن يأوي الفتية إلى الكهف، حتى يصبح الحديث عنهم يبرز معه الكلب:

- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: 18]
- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: 22]

لنفتري الظن إذن بأن الكلب لم يأتي قادما من المكان الذي جاءوا منه إلى الكهف معهم ولكنه كان – في ظننا- متواجدا في ذلك الكهف عندما حضروا إليه.

السؤال: لماذا كان الكلب هناك في الكهف؟ ماذا كان يعمل؟

رأينا: نحن نظن أن الكلب لا يستخدم لحمل الأثقال:

- ﴿... هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ... ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 176]

فهو ليس من الأنعام التي تحمل الأثقال:

- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: 5-7]

وهو ليس للزينة كما الخيل والبغال والحمير:

- ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: 8]

السؤال: ما هي المهمة التي يمكن أن توكل إلى الكلب؟

رأينا: مهمة الحراسة.

فالكلب – برأينا- كانت موكلة إليه مهمة حراسة الكهف وما يتواجد فيه من ذي قبل، وما أن جاء الفتية إلى الكهف حتى وجدوا الكلب في وصيد الكهف يقوم بتلك المهمة خير قيام.

السؤال: ماذا كان يحرس الكلب؟ ومن الذي أوكل إليه تلك المهمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في جلب السياق القرآني التالي:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]

لنثير حولها التساؤلات التالية:

- لماذا بعثوا أحدهم إلى المدينة؟
- لماذا لم يذهبوا بمجموعهم؟
- ماذا كان من المطلوب ممن بعثوه أن يحضر لهم؟
- لماذا طلبوا منه أن يحضر لهم الرزق من المدينة؟
- لماذا لم يتابعوا مسيرهم في الهروب (إن صح ما قاله من سبقنا عنهم) ليتناولوا رزقهم من الطعام في مكان آخر؟
- أين كانوا سيأكلون رزقهم الذي سيأتيهم به من بعثوه منهم؟
- الخ.

نحن نظن أن الغرابة تكمن في أن يبعث الفتية أحدا منهم إلى المدينة ليحضر لهم بعض الرزق ليأكلوه في كهفهم، فهل من الطبيعي أن يكون الكهف هو المكان الذي يتناول به الناس رزقهم من الطعام؟

- ﴿... فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]

فالآية تشير بما لا يدع مجالاً للشك بأن من سيبعثوه منهم إلى المدينة سيعود ومعه ذلك الرزق من الطعام إلى الكهف حيث يتواجد بقية الفتية، ليكون السؤال الذي نود طرحه هنا هو: هل الكهف مؤهل لتقديم المائدة فيه؟

رأينا: نعم، هو كذلك، فكهف هؤلاء الفتية – في ظننا- مجهّز ومحضّر ليتم تناول المائدة فيه؟

السؤال: وكيف ذلك؟ ولماذا اختاروا أن يتناولوا رزقهم من الطعام فيه؟ والأهم من ذلك كله لم جاء التفصيل في كتاب الله عن الطعام وعن الرزق وعن الكهف معاً؟ فهل هذا الحديث جاء في سياق سرد أحداث القصة وكفى؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، إننا نظن أن الحديث عن تناول الطعام من الرزق في الكهف له غاية عظيمة لابد من محاولة البحث عنها. ولما حاولنا أن نتدبر ذلك خرجنا بالافتراء الخطير جداً التالي:

نحن نظن أن ذاك الكهف الذي كان يتواجد فيه الفتية قد كان صالحاً ليتناولوا رزقهم من الطعام فيه لأن ذلك حصل معهم من ذي قبل، فهم قد أكلوا الرزق من الطعام في ذلك الكهف من ذي قبل.

ولكن متى حصل ذلك؟

افتراء خطير جدا جدا من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن ذلك حصل من ذي قبل عندما أنزل الله عليهم المائدة التي طلبوها من عيسى بن مريم من ذي قبل. فالله – في ظننا- كان قد أنزل عليهم تلك المائدة في ذلك الكهف نفسه.

فهناك في ذلك الكهف – نحن نفتري القول- أنزل الله على الحواريين مع رسولهم عيسى بن مريم من السماء المائدة التي طلبوها منه:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

الدليل

باب الكهف: الفرق بين الكهف والغار

عندما تفقدنا السياقات القرآنية وجدنا أن هناك الكهف:

- ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: 10]

وهناك الغار:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

لنطرح عندها التساؤل التالي: ما الفرق بين الكهف والغار؟ أو بكلمات أكثر دقة نسأل: كيف يختلف الكهف عن الغار؟

رأينا: نحن نظن أن للكهف مواصفات محددة بعينها تجعل منه بناء يختلف في تركيبه عن الغار، لذا لابد من الغوص في تفصيلات علّها تسعفنا بالخروج باستنباطات صحيحة تمكننا من رسم صورة ذهنية لما يمكن أن يطلق عليه وصف "كهف".

ونحن نظن أن التفصيل قد جاء في سورة الكهف (التي سميت به) حيث تبين أدق التفاصيل التي نحن بحاجة أن نتدارسها لندرك ماهية هذه الكينونة، لذا لابد من جلب السياقات القرآنية التي تتحدث عن الكهف والتي جاءت جميعها في سورة الكهف. والغاية من تسمية السورة بهذا الاسم ربما تبين في نهاية هذا النقاش، فالله أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

أولاً: الكهف عبارة عن مكان يمكن أن يأوي إليه الشخص بقصد أخذ قسط من الراحة:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]

لذا نحن نظن أن الكهف يجب أن يكون واقعاً خارج حدود المدينة وإن لم يكن يبتعد كثيرا عنها، وإلا لما أقدم الفتية على التفكير بأن يبعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم برزق من الطعام من هناك:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: 19]

والتساؤل المثير هنا هو: لماذا لم يأخذ الفتية طعامهم معهم عندما خرجوا إلى المدينة وتوجهوا إلى الكهف؟

جواب: لأن الكهف لم يكن يبعد كثيرا عن المكان الذي يمكن الحصول على الطعام منه كالمدينة مثلا.

ثانيا: غالباً ما يكون الكهف يتواجد في مكان مرتفع بعض الشيء كالجبل مثلا، والدليل على ذلك يأتي من فعل الإيواء، فهذا ابن نوح يخاطب والده بالقول بأنه سيأوي إلى جبل ليعصمه من الماء:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾ [هود: 43]

والله هو نفسه من آوى المسيح وأمه إلى ربوة:

- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

وكان يوسف قد آوى إليه أخوه في المرة الأولى:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ [يوسف: 69]

وآوى إليه أبويه في المرة الثانية:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف: 99]

ونحن نظن أن فعل الإيواء الذي قام به يوسف قد تم بالرفع كما حصل في حالة أبوية:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

نتيجة مفتراة: لكي تقوم بفعل الإيواء فلابد من الارتفاع إلى الأعلى، لذا نحن نتخيل أن الفتية قد قاموا بفعل الصعود إلى الأعلى عندما ذهبوا إلى الكهف الذي سيؤويهم قسطا من الزمن؟

ثالثاً، الكهف هو عبارة عن تجويف يمكن النظر إلى ما في داخله من أعلاه، والدليل على ذلك يأتي من فعل الإطلاع الوارد في القصة نفسها:

- ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [الكهف: 18]

فالفتية – حسب نص هذه الآية الكريمة- هم رقود في الكهف، ولكن من يريد أن ينظر إليهم فلابد أن ينظر إليهم من الأعلى، كأن يقف فوق حافة الكهف لينظر فيرى ما في داخله (أي فجوته)، ففعل الإطلاع يحمل في ثناياه النظر من الأعلى إلى الأسفل كما في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥﴾ [الصافات: 54-55]

وها هو فرعون يريد من هامان أن يبني له صرحا فيطلع إلى إله موسى:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]
- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 36-37]

لتتشكل الصورة على النحو التالي: من أراد أن يطلع فعليه أن يصعد إلى الأعلى أولا ثم يقوم بعد ذلك بالنظر من الأعلى إلى الأسفل، فجبروت فرعون لا يدعه يتنازل عن فكرة أن يبقى هو الأعلى:

- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 23-24]

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الكهف هو مكان فيه شيء من الفسحة (فجوة) التي يمكن أن يتواجد فيها أكثر من شخص (كالفتية وكلبهم مثلا)، وهو يتواجد عادة في مكان مرتفع كالجبل، ومن أراد أن يأوي إليه فعليه أن يصعد إليه صعودا، ولكن ما أن تصل إليه حتى تصبح بحاجة أن تنزل فيه، ليتمكن من أراد أن ينظر ما في داخله أن يطلع عليه اطلاعاً.

رابعاً: نحن نتخيل أن الكهف عبارة عن تجويف داخل الجبل له أكثر من منفذ، خاصة الغربي والشرقي منه، فالشمس كانت حاضرة (يمكن رؤيتها) عندما تطلع وعندما تغيب:

- ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]

خامساً: يجد المتدبر لهذه الآية الكريمة أكثر أن الشمس لا تكون حاضرة في الكهف عندما تشرق، ولكنها حاضرة في الكهف عندما تطلع. فما الفرق؟

رأينا: نحن نظن أن المشرق هو ما يقابل المغرب:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البقرة: 115]

والشمس تشرق كما أنها تغرب، ويبدأ شروق الشمس منذ اللحظة الأولى التي يسطع فيها نورها على الأرض، وتغيب في اللحظة التي يذهب نورها عن الأرض. لكن المتدبر للسياق القرآني لقصة أهل الكهف لا يجد حديثا عن غروب الشمس مقابل شروقها، ولكنه يجد النص القرآني يتحدث عن غروب الشمس مقابل طلوعها. لذا نحن نتخيل الأمر على النحو التالي:

لما كان الكهف عبارة عن تجويف داخل الجبل يمكن النظر إلى ما في داخله من الأعلى فإن أشعة الشمس لن تدخل إلا بعد أن ترتفع قليلاً في السماء عندما تكون الشمس قد طلعت (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ). فأشعة الشمس لا تدخل الكهف منذ اللحظة الأولى لإشراقها، ولكن ذلك يحصل بعد أن ترتفع الشمس شيئا قليلاً في كبد السماء عندها تبدأ تزّاور عن كهفهم:

- ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]

فكيف كانت الشمس تزاور عن كهفهم إذا طلعت؟

رأينا: إن حركة أشعة الشمس يتولد عنها مد الظل وقبضه:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾ [الفرقان: 45-46]

فنحن نعرف بأنه عندما تسطع أشعة الشمس لا تبقى ثابتة في مكان محدد، ولكنها تتحرك شيئا فشيئا بطريقة غاية في السلاسة التي لا تولد عند الناس النفور من حركتها تلك، وهو ما نفهم على أنه قَبْضًا يَسِيرًا، لتترك ورائها الظل.

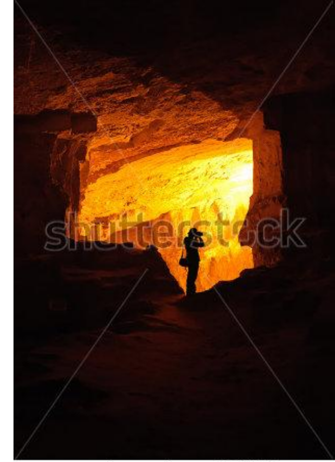
السؤال: ما علاقة ذلك بفتية الكهف؟

جواب: نحن نتخيل أن الشخص إذا ما أراد النوم لا يضع نفسه في مكان تسطع عليه فيه أشعة الشمس كليا، ولكنه غالباً ما يختار الظل، لذا عندما كانت الشمس تطلع على الفتية كان الفتية في حالة من الرقود التي لا يمكن أن يكون سطوع الشمس عليه فيها سطوعا كاملا، فالشمس يمكن أن تصيب جزءا منه ولكن لفترة وجيزة، وما هي إلا لحظات حتى ينقبض الظل شيئا قليلا لتصيب أشعة الشمس حينها شيئا من أخيه الذي

بجواره وهكذا، حتى يصيب جميعهم شيء من أشعة الشمس ولكن ليس لفترة طويلة، فالإنسان بطبعه لا يستطيع أن ينام تحت أشعة الشمس المباشرة فترة طويلة من الزمن. فدخول أشعة الشمس إلى كهف الفتية يمكن تصوره كما في الشكل التوضيحي التالي:



لذا نحن نتخيل أن الفتية كانوا ينامون على جنبهم اليمين عندما تطلع الشمس عليهم قادمة من الشرق لتزاور عن كهفهم، فتكون وجوههم مولية شطر الغرب (وهم في حالة تمدد باتجاه الشمال والجنوب)، ولتكون أشعة الشمس (أو أي جزء منها) يصيبهم من الخلف. ولكن ما أن تصل الشمس إلى الجهة الغربية حتى تدخل كهفهم فقط في وقت الغروب، كما في الشكل التوضيحي التالي:



عندها يديرون ظهورهم إليها، فيتم قرضهم ذات الشمال، لتصبح الشمس أشعة الشمس قادمة إليهم من ورائهم:

- ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]

نتيجة: تستمر الشمس وهي طالعة عليهم قسطا من الزمن فتزاور عن كهفهم مادام الظل ينقبض شيئا فشيئا، وما أن تأخذ الشمس في الغروب في لحظاتها الأخيرة حتى تدخل كهفهم ثانية ولكن لفترة قصيرة فتقرضهم فيه.

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نستطيع أن نتخيل الكهف الآن على النحو التالي: تجويف داخل جبل، يمكن النظر فيه من الأعلى، تدخله أشعة الشمس بعد أن ترتفع في كبد السماء فتستمر أشعة الشمس فيه فترة من الزمن طالعة عليهم، ما أن تصل الشمس إلى مرحلة الغروب حتى تدخل الكهف بأشعتها في تلك اللحظة من الطرف المقابل. ليكون الكهف – في ظننا عبارة عن تجويف داخل جبل بفتحتين (شرقية عالية وغربية هابطة) كما في الشكل التالي:



نتيجة مفتراة: الكهف هو تجويف له فتحتان يمكن لأشعة الشمس أن تدخله بعد فترة الشروق، أي عندما ترتفع قليلا في السماء وليس عندما تشرق مباشرة (أي عندما تطلع وليس عندما تشرق) وتدخله مرة أخرى في وقت الغروب. وهذا ما نفتري الظن بأنه يميز الكهف عن الغار الذي – لا شك عندنا- أنه تجويف ذات فتحة واحدة كما في الشكل التالي:



فلو كان غار ثور (الذي مكث فيه الرسول مع صاحبه في طريقهما عندما هاجرا إلى المدينة من مكة له فتحة شرقية وأخرى غربية لما استدعى القلق من صاحبه عندما وقف المشركون على باب الغار (كما تبين ذلك قصص أهل الرواية عن أهل الدراية):

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: 40]

باب الكهف: الفرق بين الكهف والجب

نحن نفتري الظن بأن الكهف وإن كان عبارة عن تجويف داخل الجبل يمكن النزول فيه من الأعلى إلى الأسفل، إلا أن ذلك لا يمنع الحركة السهلة منه وإليه، فالفتية قد أووا بأنفسهم إلى الكهف، دون أن يساعد بعضهم البعض في حركة الإيواء تلك بدليل أنهم قد بعثوا أحدهم ليأتيهم برزق من المدينة ثم يعود إليهم في كهفهم ليتناولوا رزقهم من الطعام هناك، وهذا في ظننا ما يمكن أن يميز الكهف عن غيابة الجب الذي ألقى فيه أخوة يوسف أخاهم فيه:

- ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: 10]

فالحركة إلى غيابة الجب تتم بالإلقاء، فمن تم إلقاءه فيه لا يستطيع أن يخرج منه بمفرده، لذا لابد من أن يدلي فيه دلوه من أراد أن يخرج من فيه. كما فعل من وجد يوسف في غيابة الجب.

كما أن الماء يتوافر في غيابة الجب، بدليل أن الوارد قد جاء أصلا إلى هناك ليطلب الماء. بينما في حالة الكهف فليس شرطا أن يتوافر الماء في داخله.

سؤال: كم كان عد الفتية الذين أووا إلى ذلك الكهف؟

نحن نكاد نجزم الظن بأن الفتية الذين يتواجدون داخل الكهف هم سبعة، ونظن أن قليل ممن سبقنا قد توصل إلى مثل هذه النتيجة:

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ [الكهف: 22]

أما نحن وإن كنا نشترك في هذه النتيجة مع القليل ممن سبقنا، إلا أننا نفتري الظن بأننا نملك الدليل على ذلك من الآية الكريمة نفسه، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: الكلب، نعم نستطيع أن نتوصل إلى الإجابة من خلال الكلب، ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: لقد افترينا سابقاً أن الكلب كان يخصهم جميعاً، فهم فتية كثيرون ولكن لهم جميعا كلب واحد، فهم يشتركون فيه، وظننا أن السبب ربما يعود إلى ما افترينا من قول سابقا بأن الكلب لم يأوي معهم إلى الكهف، فالفتية فقط هم من أووا إلى الكهف:

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]

فالكلب كان متواجدا على الدوام في ذلك الكهف الذي عهدوه من ذي قبل، وما أن حضر الفتية إلى الكهف حتى وجدوا الكلب ينتظرهم هناك. فالكلب لم يكن قادما معهم من المدينة، فبناء على هذا الظن دعنا الآن نقرأ الآية السابقة من هذا المنظور ونرى الفرق بين الحالتين. ولكن كيف؟

⇐ **أولا**، لقد ظن البعض أنهم ثلاثة رابعهم كلبهم:

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ... ٢٢﴾ [الكهف: 22]

ونحن نظن أن هذا غير صحيح، ونعتقد أن قولهم هذا هو من باب ما جاء على لسان الذين كذبوا القول، وذلك لأنهم جعلوا الكلب شريكا للفتية في رحلة الإيواء إلى الكهف، فهم يظنون أن الكلب قد خرج معهم من المدينة وأووا جميعا مع كلبهم إلى الكهف، وهذا من قول الذين لم يكن عندهم العلم بالقصة الحقيقة.

⇐ **ثانياً**، وكذلك ظن الفريق الآخر الذين قالوا أنهم خمسة سادسهم كلبهم:

- ﴿... وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ ... ٢٢﴾ [الكهف: 22]

فهؤلاء أيضاً من الذين ليس لهم علم بتفاصيل القصة الحقيقية، لأنهم أيضاً أشركوا الكلب معهم في رحلة الإيواء إلى الكهف.

⇐ **ثالثاً**، أما المجموعة التي صدقت القول فهم الذين قالوا أنهم سبعة وثامنهم كلبهم:

- ﴿...وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ ... ٢٢﴾ [الكهف: 22]

السؤال: وأين الدليل على ما تقول؟ إنك لم تقدم أي دليلاً على ما تزعم.

رأينا: حسنا، نحن نظن أن هناك دليلان يمكن أن يدعما موقفنا هذا وهما:

⇐ 1. وجود عبارة رجماً بالغيب مباشرة بعد قول الفئة الأولى والثانية، انظر الآية الكريمة جيداً:

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾ [الكهف: 22]

ربما ليتأكد عندنا أن ما قالته المجموعة الأولى (ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ) وأن ما قالته المجموعة الثانية (خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ) لم يكن يخرج عن باب الرجم بالغيب، ولكن بالمقابل جاء ما قالته المجموعة الثالثة (سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ) التي نظن أنها كانت على علم بتفاصيل القصة الصحيحة منفصلاً عن باب الرجم بالغيب، ليكون ما قالوه مبنيا على علم.

⇐ 2. أما الدليل الثاني الذي نظن أنه قد يرشدنا إلى الجزم أن المجموعة الثالثة كانت على علم دقيق

بالتفاصيل الصحيحة لقصة الفتية فيأتي من معرفتهم – حسب ظننا- الدقيقة بعدم اشتراك الكلب في رحلة الإيواء إلى الكهف بدليل أنهم وضعوا فاصلاً بين الفتية من جهة وكلبهم من جهة أخرى عندما استخدموا حرف الواو في قولهم (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ). فلنقارن بين المجموعات الثلاثة من هذا الجانب:

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ

وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ

وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

لاحظ أن المجموعات الثلاث اشتركت في شيء واحد وهو أن عددهم فردي (ثَلَاثَةٌ أو خَمْسَةٌ أو سَبْعَةٌ)، فلا نجد أحدا يظن أن عددهم زوجي (أربعة أو ستة أو ثمانية، الخ).

لذا نحن نفتري الظن بأنه عندما قالت المجموعة الأولى من باب الرجم بالغيب أنهم (ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) دون الفصل بين الفتية والكلب بالواو فقد ظنوا أن الكلب قد خرج معهم من المدينة إلى الكهف في تلك الرحلة، وكذلك فعلت المجموعة الثانية الذين قالوا أنهم (خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ)، أما المجموعة الثالثة الذين قالوا أنهم (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) فقد كانت على علم يقين بأن الكلب لم يخرج معهم في رحلتهم من المدينة إلى الكهف، لذا جاء الفصل واضحاً في قولهم بين الفتية الذين جاءوا إلى الكهف من المدينة والكلب الذي كان ينتظر هناك عند الكهف (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ).

وغالبا ما طرح العامة التساؤل التالي على أهل الدراية والرواية: لِم لَّم يخبرنا الله بعددهم وكفى؟ لم يدخلنا في هذه الدوامة؟ ألم يكن يعلم عددهم بالضبط؟!

رأينا: نحن نفتري الظن بأن توافر المعلومة على هذا النحو في كتاب الله لا توصل لنا فكرة عددهم وكفى، ولكنها تدلنا على ما هو أكثر من ذلك بكثير، وهو التفريق بين من كذب القول وجاء به من باب الرجم بالغيب كما قالت المجموعة الأولى والثانية في مقابل من صدق القول وجاء به عن علم:

- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: 11-12]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: 21]

السؤال: ولكن كيف يكون ذلك؟

رأينا: نحن نظن أنه عندما اختلف أهل المسيحية بينهم وتشتت أمرهم إلى فرق وملل، كانت النتيجة أن كل حزب بما لديهم فرحون:

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: 53]

إلا أن فرقة واحدة – في ظننا- بقيت تأتي بالقول على علم في حين كانت جميع الفرق الأخرى تأتي بالقول الكاذب من باب الرجم بالغيب. فكان العثور على هؤلاء الفتية هو الدليل الحاسم على صدق فرقة واحدة من بينهم وزيف وبطلان دعاوي الآخرين، فمن هي تلك الفرقة يا ترى؟

رأينا: إنها من قال منهم أن حواري عيسى بن مريم هم سبعة وثامنهم كلبهم، فهم في ظننا الفئة التي تأتي بالقول من باب العلم (لذا فعقيدتهم صحيحة)، وكل من سواهم هم ممن يأتون بالقول من باب الرجم بالغيب (لذا فإن عقيدتهم منحرفة).

السؤال: وأين هم وكيف سنتعرف على الفرقة الناجية منهم؟ وكيف سنعرف من كذب القول منهم؟ هل نستطيع أن نفعل ذلك اليوم؟ لقد حصل ذلك عندما تم العثور عليهم في الزمن الغابر؟ وها نحن نعود من جديد إلى الاختلاف؟ فهل يمكن حسم المسألة بتبيان أي الفرق من المسيحية هي التي لا زالت تتبع تعاليم المسيح الصحيحة كما نقلها لها حواريو المسيح؟

رأينا: نحن نظن أنه يمكننا القيام بذلك بكل سهولة ويسر.

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب: العدد؟

سؤال: لم أفهم شيئا، كيف يساعد العدد في ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأنه إن صح لنا أن نستنبط أن عدد أهل الكهف (وهم حواريو المسيح) عيسى بن مريم هم سبعة بدليل أنهم (سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ)، فإن ذلك يعني بكل بساطة أن عدد نسخ الإنجيل لابد أن تكون سبعة، لأن كل واحد منهم قد رقم نسخة من الإنجيل، فهم بالإضافة إلى أنهم أصحاب الكهف، فهم أصحاب الكهف والرقيم:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]

لذا فإننا بناء على ذلك نتجرأ على افتراء القول بأن الفرقة الناجية من المسيحية هي التي لازالت تظن أن عدد نسخ الإنجيل هي سبعة نسخ بعدد حواري المسيح عيسى بن مريم الذين أووا إلى الكهف. فأي فرقة ظنت أن نسخ الإنجيل هي أكثر أو أقل من سبعة نسخ فهم – برأينا- يقولون ذلك من باب الرجم بالغيب. فهم إما أن ينقصوا شيئا من ذلك فيضيّعوا بعض مما نقله الحواريون عن معلمهم المسيح عيسى بن مريم أو أن يزيدوا شيئا على ما نقله الحواريون عن معلمهم عيسى بن مريم.

في المرة القادمة سنحاول إن أذن الله لنا بشيء من علمه النبش في بقية التساؤلات التالية:

- أين هم هؤلاء الفتية؟
- هل لازالوا متواجدين في كهفهم حتى الساعة؟

- أين هو ذلك الكهف؟
- هل نستطيع أن نجد مكانه؟
- هل يمكن التدليل على ذلك بالبرهان العملي؟

فالله وحده أساله بأسمائه الحسنى وبكلمته التامة أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأن يتقبل دعائنا في أن نكون من أنصاره كما كان الحواريون أنصاره.

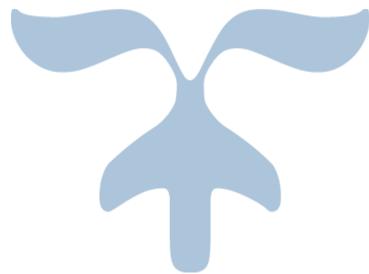
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء الثامن

أين هو ذلك الكهف؟



الجزء الثّامن : أين هو ذلك الكهف؟

زعمنا الظن في الجزء السابق أن أصحاب الكهف والرقيم هم حواريو المسيح عيسى بن مريم الذين جاءهم الوحي المباشر من الله أن يؤمنوا به وبرسوله، فاستجابوا لهذه الدعوة وكانوا مسلمين:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١﴾ [المائدة: 111]

وهم أنفسهم الذين لبّوا دعوة المسيح بالنصرة فكانوا أنصار الله:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢﴾ [آل عمران: 52]

فكانوا هم – برأينا- الفتية الذين أمنوا بربهم وزادهم الله هدى:

- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف: 13]

وهم الذين أووا إلى الكهف طالبين أن يؤتيهم الله رحمة من لدنه وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدا:

- ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: 10]

وحصل كل ذلك بعدما أتخذ قومهم من دون الله إلها آخر (المسيح عيسى بن مريم):

- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾ [الكهف: 14-15]

فكان الاعتزال هو القرار الأمثل الذين اتخذوه للخروج من تلك الأزمة بأقل التكاليف وأعظم الفائدة، فكان الكهف هو المكان الذي أووا إليه:

- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾ [الكهف: 16]

كما افترينا القول حينها أن ذلك الكهف الذي أوى الفتية إليه هو المكان نفسه الذي أنزل الله المائدة عليهم فيه عندما طلبوا من رسولهم المسيح عيسى بن مريم أن ينّزل ربه عليهم مائدة من السماء، وقد حصل ذلك مباشرة بعد أن أوحى الله إليهم أن يؤمنوا به وبرسوله. دقق – عزيزي القارئ- في تسلسل الأحداث كما تصوره الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ [المائدة: 112]

نتيجة: ما أن آمن الحواريون وأصبحوا من المسلمين بعد أن جاءهم وحى مباشر بذلك من الله حتى طلبوا من رسولهم (عيسى بن مريم) أن ينزل عليهم ربه تلك المائدة من السماء.

وفي نهاية ذلك الجزء قدمنا الوعد للقارئ الكريم بأن نتابع (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) الحديث في الموضوع نفسه طارحين بقية التساؤلات التالية:

- أين هم هؤلاء الفتية؟
- هل لازالوا متواجدين في كهفهم حتى الساعة؟
- أين هو ذلك الكهف؟
- هل نستطيع أن نجد مكانه؟
- هل يمكن التدليل على ذلك بالبرهان العملي؟

وهذا بالضبط ما سنحاول أن نقحم أنفسنا فيه في هذا الجزء من الكتاب .

سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، وأن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه لا ينبغي لأحد غيري، وأن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب، وأن يتقبلنا في أن نكون من أنصاره كما كان الحواريون أنصاره.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]

أما بعد

باب: ما معنى قول الحواريين لرسولهم: هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ؟

رأينا: لو تدبرنا النص القرآني الذي جاء فيه سؤال الحواريين هذا، لوجدنا أنه قد حصل مباشرة بعد أن آمنوا بالله وبرسوله وبعد أن أصبحوا مسلمين بوحي مباشر من الله. انظر السياق القرآني الأوسع:

- ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 111-112]

وبناء عليه، نحن لا نتردد أن نستعجب من أمر الحواريين هذا. كيف بهم يؤمنوا بالله وبرسوله ويشهدوا على أنفسهم أنهم قد أصبحوا مسلمين، ليكونوا بعد ذلك أنصار الله ثم يأتي سؤالهم على هذه الشاكلة:

هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ

فهل في ذلك شك؟ أي هل في "استطاعة" الله تنزيل مائدة من السماء مجال للشك؟ ألا يعلم هؤلاء المؤمنون بربهم أن الله على كل شيء قدير:

- ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: 106]

فإذا كانت قدرة الله على فعل كل شيء لا محدودة، فكيف بهم يقوموا بصياغة طلبهم من رسولهم على تلك الشاكلة (هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ)؟

هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ

بل الأغرب من ذلك في رأينا هو رد رسولهم المسيح عيسى بن مريم على طلبهم ذاك على نحو:

قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ

تساؤلات:

- هل يشك عيسى بن مريم في أنهم مؤمنين؟
- لماذا طلب منهم أن يتقوا الله؟
- ألم يكونوا هم أنصارى الله؟
- لماذا إذن استجاب المسيح بعد ذلك لطلبهم ودعا ربه؟

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

رأينا: نحن نظن أن هذه الإشكالات قد تولدت نتيجة الفهم الذي نظن أنه خاطئ والذي وصلنا من عند أهل الدراية كما نقله عنهم أهل الرواية. فهم يظنون أن في طلب الحواريين ذاك تحدي لرسولهم، لذا جاء رد رسولهم عليهم بأن يتقوا الله فلا يقع عليهم العذاب نتيجة لهذا الطلب (انظر أمهات كتب التفاسير).

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن مثل هذا الفهم هو فهم مغلوط لسبب بسيط وهو لو أن طلبهم هذا كان من باب (عدم التقوى أو الإيمان) فلن يذعن المسيح لطلبهم بعد ذلك ويدعو ربه بأن ينزل عليهم تلك المائدة. ثم لو دققنا في طلبهم تلك المائدة لوجدنا أن التبرير كان إيمانيا خالصا:

- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

لذا نحن نعيد إثارة التساؤلات نفسها:

- لماذا طلب الحواريون ذلك من رسولهم؟

- لماذا رد عليهم رسولهم بأن يتقوا الله؟
- لماذا استجاب رسولهم لطلبهم ودعا ربه بأن ينزل عليهم تلك المائدة؟

السؤال الأول: لماذا طلب الحواريون من رسولهم أن يدعو ربه بأن ينزّل عليهم مائدة من السماء؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: لماذا كان طلبهم على نحو مائدة من السماء؟ لماذا لم يطلبوا من رسولهم كما طلبوا من موسى من ذي قبل مثلا: أن يروا الله جهرة؟ فما قصة المائدة؟

جواب: لقد افترينا الظن في واحدة من الأجزاء السابقة أن طلب الحواريين تنزيل المائدة على وجه الخصوص كان مدفوعا بما شاهدوه بأم أعينهم من أمر رسولهم المسيح عيسى بن مريم، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لقد ظننا على الدوام بأن المسيح عيسى بن مريم لم يأكل قط طعاماً من الأسواق، فهو كان يأكل الطعام:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

ولكن ذلك الطعام لم يكن كطعام غيره من رسل الله الذين كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: 20]
- ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: 7]

والسبب هو – برأينا- لأن عيسى بن مريم لم يأكل من طعام أهل الأرض قط، ولكنه كان يأكل من رزق يأتيه من السماء مباشرة بالضبط كما كان يحصل في حالة أمه في المحراب:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

وما أن وضعت مريم ابنها المسيح عند تلك الشجرة حتى جاءها الأمر الإلهي بالأكل من طعام البشر بنفسها، ولكن لم تؤمر بأن تطعم ابنها منه:

- ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 25-26]

وهنا أخذت مريم (أم المسيح) تأكل مما يأكل منه الناس ويشربون، ولكن المسيح نفسه لم يكن يستطيع أن يأكل من ذلك الطعام، واستمر الرزق يأتيه مباشرة من السماء. ومن هنا – نحن نتخيل- جاء طلب الحواريين من رسولهم أن يطلب من ربه أن ينزل عليهم تلك المائدة، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لما رأى الحواريون أن المسيح (معلمهم) لا يشاركهم الطعام والشراب، استغربوا من أمره، فسألوه عن ذلك فأخبرهم أنه لا يصح له أن يأكل من طعام أهل الأرض، لذا جاء في ردهم أن واحدة من أسباب طلبهم ذلك هو أن يعلموا أنه قد صدقهم:

- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

ولم يتوقفوا عند ذلك بل جاء طلبهم مدفوعا بأن يكونوا شهداء على ذلك:

- ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

ولو دققنا في طلبهم ذاك لوجدنا أن الحواريين يطلبوا تنزيل المائدة عليهم على وجه التحديد بدليل مفردة (عَلَيۡنَا) في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

إن ما يهمنا قوله هنا هو أن طلب الحواريين لا يجب أن يفهم من جانب سلبي أو تشكيكي، فهم قوم آمنوا بربهم وبرسوله بوحي مباشر من الله وهم قد أصبحوا مسلمين، ويمكن أن يثبت رأينا هذا رد رسولهم على طلبهم عندما طلب منهم أن يتقوا الله:

قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ

السؤال الثاني: ما معنى قول المسيح لهم " قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ "؟

رأينا: نحن نرى ضرورة فهم رد المسيح بمعزل عن فهمنا الشعبي والمتمثل في أنه عندما تسمع شخصا يقول كلاما قد لا يروق لك وتظن أن فيه شيء من "عدم الإيمان" ترد عليه بالقول (اتق الله) كنصيحة له. فهذا – في ظننا- من باب القول غير الدقيق الذي قد لا ينم – برأينا- عن معرفة بمعنى التقوى، ولكن كيف ذلك؟

بادئ ذي بدء لابد لنا أن نشير بأننا نفهم رد المسيح على طلب الحواريين على النحو التالي: المسيح لا ينكر عليهم طلبهم ذاك، ولكنّه يوجههم (فهو معلمهم) إلى أن يقوموا بما هو أكثر من الإيمان لكي يتحقق لهم طلبهم ذاك، ألا وهو فعل التقوى. لتصبح الصورة على نحو وبكأن المسيح يقول للحواريين – نحن نتخيل فقط- ما مفاده أنكم إن كنتم تريدون فعلاً أن ينزّل الله عليكم تلك المائدة من السماء فعليكم بالتقوى.

السؤال: ما هي التقوى؟ وكيف تختلف التقوى عن الإيمان؟

باب : معنى التقوى

لا شك أن هناك عشرات الآيات في كتاب الله التي تتحدث عن التقوى، وتحث المؤمنين من عباد الله عليها. ولكن ما يهمنا هنا هو النبش في أمرين وهما:

⇐ 1. أن التقوى تختلف عن الإيمان

⇐ 2. أن فعل التقوى يتحقق بوسائل وبطرق محددة بعينها

أولا: التقوى تختلف عن الإيمان:

لو دققنا جيدا في بعض آيات الكتاب الكريم لوجدنا بما لا يترك مجالا للشك أن الفصل واضحا بين الإيمان من جهة والتقوى من جهة أخرى:

- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: 103]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 200]
- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: 65]
- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: 96]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: 1]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: 18]

ولو دققنا في النص القرآني التالي لوجدنا أن التقوى هي مرحلة مصاحبة للإيمان من جهة وللإحسان من جهة أخرى:

- ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: 93]

(وسنتحدث عن معنى التقوى في مقالات قادمة إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

ثانيا: كيف يتحقق فعل التقوى؟

نحن نظن أن هناك أعمال محددة بذاتها يمكن أن يقوم بها المؤمن يمكن أن تتحقق من خلالها التقوى، وهذه الأعمال يمكن ذكرها على النحو التالي:

⇐ عبادة الله وحده

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 21]

⇐ الأخذ بالكتاب بقوة وذكر ما فيه:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: 63]
- ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: 171]

⇐ تنفيذ القصاص:

- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: 179]

⇐ الصيام

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: 183]

⇐ إتباع صراط الله المستقيم

- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]

ولما كنا نظن أن الحواريين قد عبدوا ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم، وقد أخذوا ما أتاهم الله بقوة وذكروا ما فيه، وقد اتبعوا صراط الله المستقيم، ولا نظن أنهم يمكن أن يترددوا في تنفيذ القصاص الذي شرعه الله، لم يترددوا في القيام بفعل الصيام الذي كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم طلبا للتقوى (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

عودة على بدء

لما طلب الحواريون من رسولهم عيسى بن مريم أن ينزل ربه عليهم مائدة من السماء، جاء رد المسيح على طلبهم ذاك هو أن يقوموا بفعل التقوى (**قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ**)، فما كان من الحواريين برأينا إلى أن يقوموا بفعل الصيام طلبا للتقوى (وسنتحدث لاحقاً عن معنى التقوى وعلاقته بالصيام إن أذن الله لنا بشيء من علمه)

أما ما يهمنا هنا هو العودة إلى قصة الحواريين (أهل الكهف) بهذا المفهوم، ولكن كيف يمكن أن نربط هذا بقصتهم؟

رأينا: لو تدبرنا قصة أهل الكهف لوجدنا بأن أول فعل قام به أصحاب الكهف بعد أن بعثهم الله من مرقدهم هو طلب الطعام، فما أن استيقظ الفتية من سباتهم العميق حتى كان الشعور بالجوع واضحا عندهم بدليل أنهم طلبوا جميعا أن يبعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق من طعامها:

- ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]

فما السبب في أن يكون طلبهم الطعام هو أول ما يخطر على بالهم جميعا؟

جواب: لما كان الفتية هم مجموعة من الشباب، ولما كان النوم قد أخذ منهم قسطا من الزمن ليس بالطويل (كما جاء على لسانهم أنفسهم (يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) لا نظن أن الجوع سيحل بهم جميعا في نفس الوقت لو

أن الأمر كان طبيعيا، فربما يجوع بعضهم ولا يجوع البعض الآخر، ولربما يفكر البعض بالطعام بينما يفكر البعض الآخر بشيء غير الطعام، فلم إذن كان تفكيرهم جميعا بالطعام في آن واحد؟

رأينا: نحن نظن أن ذلك كان بسبب الصيام، ولكن كيف ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نظن أن الفتية قد أووا إلى الكهف في بداية اليوم، وما أن وصلوا إلى هناك حتى تدارسوا أمرهم، وما هي إلا وقت الظهيرة حتى أخذهم النعاس إلى غفوة من النوم في وضح النهار، وما أن استيقظ الفتية حتى ظنوا أن ذلك اليوم أو بعضه قد انقضى وهم في صيام، وما أن ينقضي اليوم حتى يبدأ تفكير الصائم بالإفطار، فيكون الطعام هو شغله ليكسر صومه مع انقضاء اليوم، فنحن لا ننسى أن الصيام يحدث في اليوم (وهو من طلوع الفجر: عند الخيط الأبيض من الخيط الأسود) حتى الليل. وهنا يطلب الفتية أن يذهب أحدهم إلى المدينة لينظر أيها أزكى طعاما فليأتيهم برزق منه ليكون مائدة إفطارهم في ذلك اليوم من صيامهم.

نتيجة: لقد كان الفتية في حالة صيام عندما أووا إلى الكهف وما أن استيقظوا من مرقدهم حتى طلبوا الطعام. ونحن نظن أن صيامهم هذا جاء بسبب طلب المسيح عيسى منهم أن يتقوا الله، فكان الصيام واحدة من الطرق التي يمكن أن يتم التوصل إلى التقوى من خلالها.

تخيلات من عند أنفسنا: لقد طلب الحواريون من عيسى بن مريم أن يدعو ربه لينزل عليهم مائدة من السماء، فكان رد عيسى بن مريم عليهم بأن يتقوا الله، فما كان من الحواريين إلا أن يقوموا بفعل الصيام عن الطعام والشراب، لينتظروا تلك المائدة التي سينزلها الله عليهم إنْ تحقق عندهم فعل التقوى. يقوم الحواريون بفعل الصيام، تتحقق التقوى، يدعو المسيح عيسى بن مريم من ربه أن ينزل عليهم تلك المائدة:

- ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]

يأكل الحواريون مع رسولهم المسيح عيسى بن مريم من تلك المائدة، فيكون شهداء عليها، ويكون ذلك هو ما يتحدث عنه الفكر المسيحي تحت عنوان العشاء الأخير، ونظن نحن أنه العشاء الأول والأخير، ولكن لماذا؟

1. لماذا يسمى بالعشاء؟ لِم لَم يكن "بمفرداتنا" فطورا في الصباح أو غداء في وقت الظهيرة كما في حالة موسى مثلا:

- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف: 62]

رأينا: نحن نظن أن تلك المائدة كانت عشاء لأنها حصلت في وقت العشاء، وكان السبب في ذلك – كما نتخيله نحن- يكمن في أن الحواريون كانوا ورسولهم المسيح عيسى بن مريم في حالة صيام، فالصائم يقوم بكسر صيامه في وقت العشاء (أي قدوم الليل)

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: 187]

2. لماذا نظن أنه العشاء الأول والأخير وليس العشاء الأخير كما يظن أهل الفكر المسيحي؟

رأينا: لأن تلك الحادثة قد حصلت فقط مرة واحدة لم تتكرر بعدها، فهي المناسبة الوحيدة التي أكل فيها المسيح مع غيره من البشر طعاما على مائدة واحدة.

أين نزلت تلك المائدة عليهم؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن تلك المائدة قد نزلت عليهم في ذلك الكهف، فلقد افترينا في الجزء السابق أن الكهف هو عبارة عن تجويف طبيعي داخل جبل لها منفذان، تدخله الشمس عندما تطلع (أي بعد أن ترتفع في كبد السماء، وهذا هو المكان الذي يمكن الدخول إلى الكهف والخروج منه من خلاله، وتدخله الشمس في لحظة الغروب وهذا المنفذ ليس مخصصا للدخول منه أو الخروج من خلاله إلى الكهف وهناك من خلال فتحته الشرقية المرتفعة تنزل المائدة على المسيح عيسى بن مريم مع الحواريين، فيكون عشاؤهم لكسر صيامهم في ذلك اليوم).

يتخذ الحواريون من ذلك الكهف مكان للخلوة والتعبد:

- ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: 16]

تحدث الفتنة في قومهم بعد أن رفع الله المسيح عيسى بن مريم إليه، يتخذ بعض من قومهم المسيح عيسى بن مريم إلها من دون الله:

- ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 15]

رفض الحواريون فعلة قومهم تلك جملة وتفصيلا:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: 14]

يتخذ الحواريون قرارهم باعتزال قومهم حتى تهدأ تلك العاصفة، فيتوجهوا إلى الكهف ليأووا فيه بعض الوقت، تأخذهم سنة من النعاس، فيلبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين ويزدادوا تسعا:

- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: 25]

يستيقظ الفتية من مرقدهم هذا، فيشعروا ويكأنهم قد لبثوا اليوم كله أو بعضه، يكون الليل قد أسدل أستاره. لما كان الفتية في صيام طلبوا جميعهم أن يبعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة لينظر في طعامها وليأتيهم برزق من أحسنه:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامٗا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٖ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: 19]

وهنا نصل إلى ذروة مرادنا بطرح التساؤل المثير التالي: هل يمكن التدليل على هذا الظن بالبرهان العملي؟

جواب: نعم، نحن نظن أن بإمكاننا أن نثبت زعمنا هذا متى ما استطعنا أن نقدم الدليل العلمي على مكان تواجد الفتية، وبكلمات أكثر دقة نقول أننا يمكن أن نثبت زعمنا إن نحن استطعنا بحول الله وتوفيق منه أن نجيب على التساؤل الكبير التالي: أين هو كهف أولئك الفتية؟

باب: مكان الكهف

لعلنا نظن أن بإمكاننا أن نحدد مكان تواجد ذلك الكهف على أرض الواقع، والناس مدعوون جميعا إلى الذهاب إلى المكان الذي سنشير إليه بعد قليل ليروا رأي العين ذلك الكهف ويطلعوا على ما فيه.

ولكن قبل الخوض في هذا الجزئية المهمة جدا لابد من التطرق إلى التساؤلات النظرية العقائدية التالية:

⇐ هل يمكن أن يحصل بشر مثلنا على معلومة كهذه؟
⇐ هل نحن مؤهلون للتوصل إلى مثل هذه المعلومة؟
⇐ وهل يصف كتاب الله لنا المكان ويقدم لنا المعلومة التي تثبت مكان ذلك الكهف؟
⇐ ثم ما فائدة أن نجد الكهف ونطلع على ما فيه بأم أعينا؟

هذه - في ظننا- تساؤلات كبيرة جدا لابد من تجليتها أولا قبل محاولتنا تحديد مكان الكهف على الخارطة الجغرافية باستخدام Google earth مثلا.

فالله وحده أسأل أن يهدينا رشدنا وأن ينفذ كلمته بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بعلم لا ينبغي لغيري إنه هو السميع المجيب.

أما بعد

السؤال الأول: هل يمكن لبشر أن يتوصل إلى المعلومة الأكيدة عن مكان تواجد هل الكهف؟

رأينا: نعم، هو كذلك. فنحن نظن أن هذه من المعلومات التي قد أذن الله لبشر أن يتوصلوا إليها.

الدليل، نحن نقرأ الدليل على ذلك من الآية الكريمة التالية التي جاءت في قصة أصحاب الكهف نفسها:

- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: 13]

السؤال: وأين الدليل الذي تزعم في هذه الآية الكريمة؟

جواب: نحن نظن أن الدليل وارد في مفردة نبأهم (نَبَأَهُم).

سؤال: وكيف ذلك؟

جواب: نحن نظن أنه يمكن استقصاء الدليل في ذلك متى ما فهمنا معنى مفردة نَبَأَهُم

باب: النبأ

سؤال: ما هو النبأ؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن النبأ هو عبارة عن خبر يختلف الناس فيه، يمكن أن لا يعرفه بعضهم كما حصل في حالة الملائكة:

- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

ولكن لا شك قد يعلمه آخرون كما في حالة آدم:

- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

ولا شك عندنا أن السرية التامة تحاط بالنبأ كما في حالة أن أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: 3]

نتيجة: الناس لا شك سيختلفون فيما هو نبأ كما تصور ذلك الآيات الكريمة التالية:

- ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ: 1-3]

ولكن الله لا شك مظهر خبره للناس كما تبين ذلك تتمة تلك الآيات نفسها:

- ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ: 1-5]

وقد تأكدت فكرة علم الناس بما هو نبأ في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ۝٨٨﴾ [ص: 88]

نتيجة: لما كان النبأ هو أمر مختلف فيه كان خبره الأكيد يأتي من الله وحده، بعلم يأذن له لأحد من خلقه.

دعاء: اللهم ربي أسألك وحدك أن يكون قد جاء حين علمنا بنبأ أهل الكهف

إن هذا الطرح يعيدنا على الفور للخوض في الحادثة التي حصلت كسبب نزول آيات قصة أهل الكهف، لذا نحن نستميح السادة العلماء أهل الدراية والرواية أن يستمعوا لما نقول (ولو بعين المتشكك) لأننا سنخالفهم الرأي جملة وتفصيلا بما سنقلوه للناس في هذا الشأن.

أما بعد،

نحن نكاد نجزم أن الرواية التي يتناقلها أهل العلم عن سبب نزول آيات قصة أهل الكهف هي قصة بمجملها مغلوطة، ولكن كيف؟

رأينا: نحن نظن أن اليهود لم يسألوا النبي الكريم عن أهل الكهف إطلاقا، ولكنهم سألوه (كما تشير بعض أجزاء تلك الرواية) عن ذي القرنين وعن الروح فقط، والدليل على ذلك بسيط وهو ورود عبارة (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ) في بداية هاتين القصتين:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾ [الإسراء: 85]
- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ۝٨٣﴾ [الكهف: 83]

نتيجة: لقد جاء نفر إلى النبي فسألوه بصريح اللفظ عن الروح (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ) كما سألوه بصريح اللفظ أيضا عن ذي القرنين (وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ)، ولكنهم لم يسألوه عن أهل الكهف، ولو فعلوا لجاء النص القرآني في ظننا على النحو التالي:

ويسألونك عن أصحاب الكهف والرقيم

ولكن المتدبر للنص القرآني يجد أن اللفظ عن أهل الكهف جاء على النحو التالي:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]

السؤال: لماذا جاء النص القرآني الخاص بأهل الكهف على هذا النحو؟ ألم يسألوا الرسول عنهم إذن؟

رأينا: كلا لم يسألوا الرسول عن أهل الكهف، ولكن الذي حصل كما نتخيله هو على النحو التالي: جاء القوم إلى عند الرسول فتحدثوا في أمر أهل الكهف، فاختلفوا فيه، فذكر كل منهم تفاصيل مختلفة، فكان ذلك ليس أكثر من نبأ مختلف فيه. وهنا جاء التنزيل الإلهي المباشر إلى النبي ليقص عليه نبأهم بالحق:

- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف: 13]

فالقوم كانوا مختلفين في نبأ أهل الكهف فجاء قص نَبَأَهُم بِالْحَقِّ من عند الله مباشرة.

الدليل

نحن نجد الدليل على ما نزعم في الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]

لعل القارئ لهذه الآية الكريمة يدرك على الفور بأن الخطاب هنا موجه إلى شخص النبي نفسه، ليتأكد لنا أن النبي عندما سمع نبأ أهل الكهف من الذين قصوه عليه من عندهم واختلفوا فيه تعجب النبي نفسه من الأمر، فظن أن في ذلك أمر عجبا، فجاء قول الحق ليثبت للنبي الكريم بأن نبأ أهل الكهف هو نبأ صحيح بحد ذاته وهو من آيات الله، ولكن المشكلة تكمن في تفاصيل النبأ كما قصه عليه القوم، فجاء القص الإلهي ليصحح المغالطات التي وقع فيها من قص ذلك النبأ على النبي، فما كان من النبي إلا أن يعرّف بعضه ويعرض عن بعضه بالضبط كما حصل في حالة يوم أن أسر إلى بعض أزواجه حديثا:

- ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: 3]

فما جاء النبي من نبأ من عند الله مباشرة هو الحق ولا شيء غيره. وما جاء على لسان من أنبأ النبي به من عند نفسه فهو كلام كان فيه شيء من الحق ولكن أكثره من عند نفس الذي قص النبأ على النبي.

والأهم من ذلك كله، برأينا هو أن القص القرآني لنبأ الفتية بالحق قد جاء ليزيل العجب الذي وقع في نفس النبي محمد عندما سمع نبأهم من الذين رووه له. (وسنرى لاحقا بحول الله وتوفيقه كيف زال العجب بنبأ أصحاب الكهف من قلب محمد بالتجربة الحقيقية)

السؤال الثاني: هل نحن مؤهلون للتوصل إلى مثل هذه المعلومة؟

نحن نفتري الظن بأنه مادام أن قصة أصحاب الكهف هي نبأ فلابد أن يأتي العلم به ولو بعد حين (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)، لذا فالله وحده أسأله أن يكون قد جاء ذلك الحين الذي يبين فيه نبأ أهل الكهف، وأسأله تعالى أن يعلمنا الحق الذي نقوله فلا نفتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

السؤال الثالث: ما فائدة أن نجد الكهف ونطلع على ما فيه بأم أعينا؟

جواب: نحن نظن أن الفائدة ستكون عظيمة يمكن أن يفهمها القارئ بنفسه متى ما بان مكان ذلك الكهف، وراءه رأي العين واطلع على ما فيه بأم عينه. وسنتحدث عن ذلك في نهاية هذا الجزء بحول الله وتوفيقه.

السؤال الرابع: وهل يصف كتاب الله لنا المكان ويقدم لنا المعلومة التي تثبت مكان ذلك الكهف؟

رأينا: لما كانت عقيدتنا تصورها الآية الكريمة التالية أحسن تصور:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

كان لزاما علينا أن نؤمن إيمانا يقينيا بأن هذا الكتاب يجيب على كل صغيرة وكبيرة، والمطلوب منا هو أن نقرأ كتاب الله بالتدبر الذي طلب الله منا أن نتخذه منهجا:

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: 24]

دعاء: فالله وحده أسأل أن يفتح قلوبنا للحق، فلا تقفل إنه هو السميع المجيب.

سؤال: ما دام أنك تظن أن نبأ أصحاب الكهف لابد أن يُعلَم ولو بعد حين، وما دام أنك تظن أننا مؤهلون لأن نعلم نبأهم، وأن ذلك مفصل في كتاب الله، فهل تستطيع أن تثبت لنا بالدليل العملي أين هو ذلك الكهف؟

جواب: نعم، ربما أستطيع ذلك، وأظن أن كتاب الله يبين لنا المكان الذي يتواجد فيه ذلك الكهف الذي أووا الفتية إليه.

سؤال: وأين هو ذلك المكان إذن؟

جواب: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن نستنبطها من الآية الكريمة التالية التي جاءت في قصة أهل الكهف نفسها:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف: 21]

سؤال: وأين الدليل؟ هل في هذه الآية دليل على مكان تواجد كهف الفتية؟

جواب: نعم هناك الدليل وهو يتمثل بكلمة واحده وهي كلمة مَّسۡجِدٗا. لنخلص إلى النتيجة البسيطة التالية:

إن كهف الفتية يقع تحت مسجد، فعندما أعثر الله عليهم ما كان ممن وجدوهم إلا أن يتخذوا قرارهم بأن يقيم على أولئك الفتية مسجدا، أليس كذلك؟

نتيجة: لابد من أن نبحث عن ذلك المسجد الذي يقع فوق ذلك الكهف الذي أوى الفتية إليه، فأين هو يا ترى؟

جواب: نحن نجد الجواب على ذلك في الآية الكريمة التالية:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

نعم إنه المسجد الأقصى.

افتراء خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن المسجد الأقصى قد بني فوق كهف أولئك الفتية، فكهف أولئك الفتية يقع مباشرة تحت المسجد الأقصى، كما نفتري الظن بأن الذين قاموا ببناء ذلك المسجد في تلك البقعة من الأرض هم القوم الذين أعثرهم الله على أولئك الفتية.

الدليل، نحن نستطيع أن نستطيع التدليل على موقفنا العقائدي هذا بجلب الإشارات التالية

1. أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا مسلمين
2. البعد المكاني للمسجد الأقصى عن مكان تواجد الفتية الأصلي
3. أن المسجد الأقصى مبارك حوله
4. الإسراء بالنبي إلى المسجد الأقصى
5. الحفريات اليهودية تحت المسجد الأقصى

وسنتحدث عن هذه الإشارات تباعا

أولاً: أن أصحاب الكهف كانوا مسلمين

لقد زعمنا الظن بأن أصحاب الكهف والرقيم هم حواريو المسيح عيسى بن مريم، وهم الذين جاءهم الوحي المباشر من الله للإيمان به وبرسوله، فآمنوا وكانوا مسلمين:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

وهم الذين رفضوا أن يتخذوا من دون الله آلهة كما فعل قومهم:

- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 14-15]

ولما رفض الحواريون أن يشركوا مع الله أحد كانوا مسلمين، لأن الدين عند الله الإسلام منذ أن خلق الله آدم وحتى يرث الأرض ومن عليها:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

وما حصل اختلاف بين أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم كما تشير هذه الآية الكريمة. فلو لم يختلف الذين أتوا الكتاب لكان مكان العبادة على الدوام هو المسجد، لأن المسجد هو بمفهومنا – كما يمكن أن نستنبط ذلك من الآية الكريمة التالية- هو مكان العبادة الذي لا يشرك مع الله فيه أحدا:

- ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: 18]

نتيجة: لما رفض أولئك الفتية أن يتخذوا (كما فعل قومهم) من دون الله إلها، كان المكان المؤهل للعبادة التي تعكس عقيدتهم هو المسجد.

فمتى تمت الدعوة لأحد مع الله لم يعد مكان العبادة يطلق عليه لفظ المسجد، لذا عندما اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم لم يعد المكان الذي يخصص للعبادة يسمى مسجدا:

- ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: 31]

فأصبحت ليست أكثر من صوامع وبيع (كما هي أساسا مساجد) ليذكر فيها اسم الله:

- ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: 40]

تخيلات من عند أنفسنا: بعد أن رفع الله المسيح إليه وطهره من الذين كفروا، وبعد أن اعتزل الفتية قومهم، كان الخلاف سائدا بين القوم حول ماهية المسيح عيسى بن مريم، فظن بعضهم بأنه إله وظن آخرون أنه ولد الله، بينما بقيت فرقة صغيرة منهم تظن أن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله وكلمته وروح منه، ولم يحسم هذا الخلاف إلا يوم أن أعثر الله القوم على أولئك الفتية:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف: 19]

وهنا ظهرت تلك الفرقة التي غلبت على أمرهم، فكان قرارها هو بناء المسجد على هؤلاء الناس ليبقى هذا المسجد هو الآية البينة على أن هؤلاء الفتية كانوا مسلمين وأن دين عيسى بن مريم هو دين الإسلام، فهم الذين لم يشركوا مع الله أحدا آخر، فيكون المسجد هو مكان العبادة الذي يشهد بالوحدانية لله.

ثانيا، البعد المكاني للمسجد الأقصى عن مكان تواجد الفتية الأصلي

لو دققنا في قصة المسيح عيسى بن مريم لوجدنا أن فصول القصة تجري في منطقة الأرض المباركة، فعيسى بن مريم ولد هناك وعاش هناك ومن هناك رفعه الله إليه، لذا فإن المنطقة الجغرافية التي يجب أن تكون ساحة للبحث عن حواري المسيح عيسى بن مريم لا يجب أن تتجاوز حدود تلك المنطقة. فلقد اعتزل الفتية قومهم اعتزالاً، ولم يبتعدوا كثيرا عن موطنهم الأصلي بدليل أنهم أرسلوا أحدهم ليبحث لهم عن رزق من طعام المدينة، وحذروه أن يطلع أهل المدينة على خبرهم، لذا فإن تلك المدينة التي كان يسكنوها لا تبتعد كثيرا عن ذلك الكهف الذي أووا إليه. لنستنتج من خلال ذلك أن المسجد الذي بناه القوم يوم أن أعثرهم الله عليهم لابد أن يكون في حدود تلك الأرض المباركة. ولو تفقدنا جميع السياقات القرآنية لما وجدنا أن القرآن يذكر غير المسجد الذي أسرى بالنبي إليه من المسجد الحرام الموجود أصلا ببكة:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

ثالثا: أن المسجد الأقصى مبارك حوله

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة جيدا لوجدنا أن المباركة التي أنزلها الله على ذلك المكان تقع حول المسجد الأقصى وليس في المسجد الأقصى نفسه. فالمسجد الأقصى بحد ذاته لم يكن من الأرض المباركة، ولكن الأرض التي تقع حوله هي الأرض المباركة. انظر السياق القرآني جيدا:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: 1]

فلماذا؟ أي لماذا المباركة حول المسجد الأقصى وليست فيه؟ فلو كانت المباركة موجودة في المسجد الأقصى نفسه لذكر القرآن ذلك كما جاء في الحديث عن مباركة النار المقدسة يوم أن نادى الله نبيه موسى في الواد المقدس طوى:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ [النمل: 8]

لاحظ كيف أن المباركة لم تأتي لما حول النار وإنما لما في النار، ليكون سؤالنا مرة أخرى هو: لماذا جاءت المباركة لما حول المسجد الأقصى وليس للمسجد الأقصى نفسه؟

رأينا: نحن نظن أن تضاريس تلك المنطقة التي تقع حول المسجد الأقصى تحتوي على

⇐ مكان تواجد آدم الأول على الأرض
⇐ الجبال التي وضع إبراهيم عليها الطير ليريه الله كيف يحيى الموتى
⇐ المكان الذي نادى الله فيه موسى
⇐ المكان الذي اشتعلت فيه النار المقدسة
⇐ المكان الذي وضعت فيه أم المسيح ابنها المسيح عيسى بن مريم فيه

وعلى مقربة من هذه الأماكن جميعا يقع المسجد الأقصى الذي دارت حوله تلك الأحداث جميعها. فبالقرب منه تقع تلك الجنة التي تواجدت فيها تلك الشجرة التي أكل منها آدم وزوجه، فأخرجه الله بسبب ذلك من تلك الجنة بأكملها. وكان هناك جبال أربعة محيطة بالمكان وضع إبراهيم جزءا من الطير على كل واحدة منها ودعاها فأتته سعيا. وفي الواد القريب من المسجد الأقصى يقع الواد المقدس طوى الذي نادى الله فيه نبيه موسى، واشتعلت النار المقدسة فيه. وبالمقابل من الواد تجلى الله لواحدة من تلك الجبال فدكها دكا بعد أن طلب موسى الرؤية المباشرة للذات الإلهية. فلم يتبقى إلا ثلاثة منها.وبالقرب من المكان وعلى ربوة ذات قرار ومعين وضعت مريم طفلها المسيح عيسى بن مريم. وإلى هناك أسرى بمحمد من المسجد الحرام ليريه الله من آياته:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

رابعا، الإسراء بالنبي إلى المسجد الأقصى

ولو تدبرنا آية الإسراء هذه مع الآية التي تتحدث عن قصة أهل الكهف لربما استطعنا أن نجلب انتباه القارئ الكريم إلى ملحوظة نظن أنها غاية في الدقة، فلنقرأ الآيتين التاليتين معا:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]
- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ [الكهف: 9]

ولندقق في هاتين الآيتين الكريمتين وهي عبارة (مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ)، لنقدم من خلال ذلك الافتراء الخطير التالي:لقد كان السبب في رحلة الإسراء هو أن يري الله نبيه (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) ، فكان في ظننا أهل الكهف الذين تعجب النبي من أمرهم عندما أنبأه القوم بخبرهم هي واحدة من تلك الآيات التي أراها الله لنبيه في تلك الرحلة العظيمة. فنحن نفتري الظن أن العجب كان هو ردة فعل النبي عندما سمع بنبأ الفتية من الذين اختلفوا في نبأهم عنده، فجاء القص الحق من الله لنبيه لنبأهم بالحق عن أمر أولئك الفتية، ولم يتوقف الأمر عند هذا، فقد أسرى

الله بنبيه في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته،ولا شك أن أهل الكهف والرقيم كانوا واحدة من تلك الآيات التي أراها الله لنبيه في تلك الرحلة (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا).

خامسا، الحفريات اليهودية تحت المسجد الأقصى

لعلنا بحاجة أن نجلب انتباه الناس جميعا إلى التساؤل التالي: ما الذي يبحث عنه اليهود تحت المسجد الأقصى مباشرة؟ هل فعلا يبحثون عن هيكل سليمان؟ ألا يعلم هؤلاء اليهود أن سليمان أصلا لم يكن يسكن تلك الأرض ولكن الريح كانت تأتي به إليها في زيارات متكررة:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: 81]

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان: مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

ثم ألا يعترف اليهود أنفسهم بأن سليمان (ووالده داوود من قبله) ليسوا أكثر من ملوك من ملوك الأرض؟ ثم ألا يقرون بأنفسهم بأن داوود وولده سليمان ليسوا أصلا من آل يعقوب؟ فما هو الهيكل الذي يبحثون عنه؟

نحن نقول لهؤلاء اليهود بأن ما تسمونه الهيكل (وما نؤمن نحن بأنه الصرح الذي كان من أدوات حكم سليمان) موجود في البحار (انظر سلسلة المقالات تحت عنوان :مادلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)، فاذهبوا للبحث عنه هناك.

ليكون السؤال الذي نثيره الآن هو: ما الذي يبحث عنه اليهود في حفرياتهم الجارية الآن تحت المسجد الأقصى؟

رأينا: بغض النظر عن الهدف والدوافع، لكننا نقول لهؤلاء اليهود (وللناس أجمعين) أن المفاجأة ستكون صاعقة عليكم جميعا حينما تكتشفون (إن لم تكونوا قد اكتشفتم أصلا) أن ما هو موجود مباشرة تحت المسجد الأقصى هو ذلك الكهف الذي أووا إليه الفتية، فإن أنتم هدمتم المسجد الأقصى فستقدمون الدليل للعالم أجمع أن هؤلاء الفتية كانوا مسلمين، وأن الدين عند الله الإسلام، عندها ستخدمون دين الإسلام الذي هو دين الله الحق من حيث لا تحتسبون:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: 50]

ولا شك أن الصاعقة ستنزل قوية على رؤوس أصحاب الكنائس عندما سيجدون ليس فقط الكهف الذي أوى الفتية إليه، ولكن سيجدون أيضا الرقيم (ما رقمه الفتية بأمر مباشر من معلمهم المسيح عيسى بن مريم) وفيه الدليل الصارخ بأن المسيح لم يكن إلها من دون الله، وأن المسيح لم يكن ولد الله، وأن المسيح لم يكن إلا رسول الله وكلمته وروح منه ألقاها إلى مريم، وسيعلم حينها الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وستكون الكارثة ربما أكبر على رؤوس أصحاب اللحى والعمائم البيضاء والسوداء ممن يظنون أنهم من أهل الإسلام الذين أنفقوا قرونا من الزمن وهم يتناحرون في أمر علي و معاوية، وقسموا العباد والبلاد إلى طوائف وأحزاب كل حزب بما لديهم فرحون، فتركوا الاسم الذين اختاره الله لهم وهو "الإسلام" ورضوا أن يسموا أنفسهم بأهل سنة وجماعة مقابل أهل تشيع وآل بيت. فاشتعلت المخاصمات بينهم وسالت دماء الناس في الشوارع تجري كالأنهار على أتفه الأسباب لا لشيء وإنما بغيا بينهم، وهم الذين تركوا كنوز هذا الكتاب العظيم تفلت من بين أيديهم وتقع في أيدي غيرهم، ليستجدونها بعد ذلك استجداء بعد أن كانوا أحق بها.

أما نحن فإننا نقول للجميع بأنه لا تهمنا تسميات سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ولكن الذي يهمنا هو شيء واحد فقط: الحقيقة.

ونحن على استعداد أن نذهب مع الحقيقة حيثما كانت، فـ والله الذي لا إله سواه لو علمت أن دين الله الحق في أقصى أرجاء المعمورة لما ترددت بالهرولة إليه، ولو علمت أن الحق في قول من يظن الناس أنه أقل خلق الله شأنا لما ترددت أن أتبعه، فنبينا موسى قد اتبع من لم يذكر القرآن اسمه ومكانته ليتعلم منه.

فالله وحده أسأل أن يدلنا على الحق حيثما وجد وأن يهدينا إلى أهل الحق حيثما كانوا، ونسأله تعالى أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لنا أن نرى رأي العين أعيننا كيف يتم الله نوره ولو كره الكافرون.

- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: 32]

وأن نكون من الذين يرون آيات الله بأم أعينهم فيعرفونها:

- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣﴾ [النمل: 93]



كيف تم خلق عيسى ابن مريم

الجزء التاسع

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا



الجزء التاسع : وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا

خلصنا في الجزء السابق إلى تحديد مكان الكهف الذي يرقد فيه الفتية اللذين زعمنا في الجزء الذي سبقه بأنهم هم أنفسهم حواريو المسيح عيسى بن مريم اللذين رفضوا الإذعان لتحريف العقيدة الذي وقع فيه قومهم عندما اتخذوا من دون الله آلهة:

- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف: 11]

فكانت عقيدتهم أن لا يدعو من دون الله إلها وإن كان المسيح عيسى بن مريم معلمهم نفسه:

- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف: 14]

والحالة هذه، كان قرارهم للخروج من هذا المأزق هو اعتزال قومهم حتى ينشر الله لهم من رحمته ويهيئ لهم من أمرهم مرفقا:

- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾ [الكهف: 16]

فتوجهوا نحو الكهف الذي يعرفونه ليكون مأوى لهم قسطا من الزمن:

- ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: 10]

وما أن وصلوا إلى هناك حتى كان الكلب لا زال حاضرا يقوم بمهمة حراسة ذلك الكهف:

- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾ [الكهف: 18]

وظننا أن عددهم كان سبعة لأن الكلب لم يصاحبهم في الرحلة من المدينة إلى الكهف ولكنه كان حاضرا عندما وصلوا إلى الكهف، فجاء في ظننا نتيجة ذلك الفصل واضحا في الآية الكريمة التالية بين الفتية من جهة والكلب من جهة أخرى بدليل وجود فاصل لغوي بينهم وهو الواو:

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ [الكهف: 22]

وزعمنا في الجزء الثامن السابق أن الكهف الذي أوى الفتية إليه هو مكان جاء التفصيل فيه جليا في كتاب الله من حيث طبيعة تركيبه وتضاريسه ومن حيث مكان وجوده. وبعد أن ناقشنا الإشارات القرآنية التي ظننا أنها دالة على ذلك كما فهمناها نحن خرجنا بالاستنباط الخطير المتمثل بأن ذلك الكهف الذي أوى الفتية إليه يقع مباشرة تحت المسجد الأقصى الذي لازال يتواجد حتى الساعة كشاهد على تلك الآية البينة من آيات الله:

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف: 9]

كما ظننا أن واحدة من أهداف رحلة الإسراء التي حصلت للنبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما تبيّنها الآية الكريمة التالية:

- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

كانت ليري اللهُ نبيَّه الكريم تلك الآية من آياته الكثيرة رأي العين، ليزيل بذلك ما وقع في قلب النبي محمد من العجب يوم أن جاءه نبأ أولئك الفتية:

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف: 9]

فجاء قص النبأ بالحق من الله مباشرة:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: 13]

فأسرى الله بالنبي محمد إلى هناك ليريه –نحن نفتري القول- رأي العين المكان الذي أوى الفتية إليه. وهناك أنزل الله على قلب محمد ما أصبح محمدٌ مكلّفا بتبيانه للناس كنذير لهم:

- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 192-195]

فهناك في المكان نفسه آتى الله موسى الكتاب وكتب له في الألواح. ولو حاولنا أن نربط الآية التي تتحدث عن الإسراء بالآية التي تليها وتتحدث عن إيتاء موسى الكتاب ربما وجدنا المعنى واضحاً:

- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: 1-2]

لنخلص بناء على ذلك إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: كما آتى الله نبيه موسى الكتاب في ذلك المكان وجعله هدى للعالمين، أنزل الله الكتاب على قلب محمد وجعله هدى للناس كافة. وفي ذلك المكان آتى الله عيسى بن مريم الإنجيل، وهناك تعلم حواريو المسيح عيسى بن مريم من معلمهم ذلك الكتاب العظيم.

وأصبحت مهمة الحواريين تكمن في أن يبيّنوا للناس ما جاءهم من عند معلمهم المسيح عيسى بن مريم من الإنجيل. ولما كان عيسى لا يتكلم لغة أهل الأرض تولى الحواريون تلك المهمة، فقاموا برقم النسخ منه كل بما آتاه الله من وحي الكتاب:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

فكانوا بذلك ليس فقط أصحاب الكهف وإنما أصحاب الرقيم أيضا:

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ [الكهف: 9]

وفي المكان نفسه تلقى الفتية العلم، فأصبحوا قادرين أن يبينوا للناس ما جاءهم من الإنجيل من معلمهم المسيح عيسى بن مريم، فخرج الإنجيل (أو العهد الجديد) بأكثر من نسخة لأن الذي رقمه هو أكثر من واحد، فهم سبعة من الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى:

- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣﴾ [الكهف: 13]

فكان الإنجيل رقيم (أي أكثر من كتاب مرقوم واحد).

ولكن بالمقابل لما جاء العلم لمحمد وحده من ربه بعد أن نزل الروح الأمين بالكتاب على قلب محمد مباشرة كما يمكن استنباط ذلك عند جلب السياقين القرآنيين التاليين معا:

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: 192-195]
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ٥﴾ [النجم: 4-5]

لنخلص إلى القول بأنه عندما علّم الله نبيه الكريم وقد كان الكتاب قد نزل على قلبه جملة واحدة، كان دور محمد يتلخص بأن يكون من المنذرين بلسان قومه وهو اللسان العربي. لذا انتهى إلينا القرآن كما نجده اليوم نسخة واحدة وذلك لأنه ببساطة هو وحي الله إلى شخص واحد وهو محمد، وكذلك هي الحال بالنسبة للتوراة، فهي وحي الله إلى شخص واحد وهو نبيه موسى، ولكن لما كان الإنجيل وحي الله إلى الحواريين بتعليم من رسولهم المسيح عيسى بن مريم، فقد انتهى إلينا بأكثر من نسخة.

يجب أن نجلب انتباه القارئ الكريم إلى ضرورة التمييز بين الكتاب من جهة والقرآن من جهة أخرى، فنحن نظن أنه في حين أن الكتاب نزل جملة واحدة جاء القرآن مفرقا (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت سلسلة لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه خاصة من الجزء الحادي عشر) افتراء من عند أنفسنا:

⇐ كان القرآن كتاب مرقوم واحد
⇐ كانت التوراة كتاب مرقوم واحد
⇐ كان الإنجيل رقيم (أي أكثر من كتاب مرقوم واحد)

السؤال: أين هو الإنجيل الرقيم (بنسخه المتعددة) كما رقمها الحواريون بوحي مباشر من الله لهم وبتعليم من المسيح عيسى بن مريم معلمهم؟

جواب: لقد كانت بحوزة الفتية أصحاب الكهف عندما أووا إلى الكهف.

الدليل

بادئ ذي بدء نحن نظن أن الكهف كان هو المكان الذي تلقى فيه الحواريون تعليمهم من المسيح عيسى بن مريم، فمن البديهي أن المعلم يحتاج إلى مكان لينقل ما عنده من العلم إلى تلاميذه. فلابد من وجود مكان ليلتقي فيه المعلم مع الذين يطلبون العلم على يديه لينقل إليهم ما عنده من العلم، ليكون السؤال الذي نود إثارته الآن هو: أين كان المسيح عيسى بن مريم يجتمع مع تلاميذه ليعلمهم؟

رأينا: في ذلك الكهف.

السؤال: ولكن أين الدليل على ما تقول؟

جواب: نحن نظن أن بإمكاننا أن نستنبط هذا الافتراء الذي هو لا شك من عند أنفسنا من فهمنا لما جاء في الآية الكريمة التالية بلفظ مفردة بِوَرِقِكُمْ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: 19]

سؤال: ولكن كيف ذلك؟

جواب: نحن إذن بحاجة أن نفهم معنى مفردة بِوَرِقِكُمْ كما وردت في السياق القرآني نفسه. فماذا تعني هذه المفردة؟

رأينا: نحن نظن أننا بحاجة دائما أن نظهر مخالفتنا لما جاءنا من عند علمائنا الأجلاء أصحاب الدراية والرواية من أخبار لنبين بعد ذلك موقفنا ورأينا الذي نظن أنه أكثر دقة وتميزا. فبعد أن حاولنا النبش فيما قاله الأقدمون عن معنى مفردة " بِوَرِقِكُمْ "كما جاءت في السياق القرآني في قصة أصحاب الكهف والرقيم وجدنا أنهم يكادون يجمعون على أن المفردة (بِوَرِقِكُمْ) تدل على النقود أو العملة المالية التي استخدمها الفتية لشراء حاجتهم من طعام المدينة. وكان الاختلاف بين معظم أهل الدراية من سادتنا العلماء منصبا على المادة التي صكت منها تلك النقود، أهي الذهب أم الفضة؟ أم... ؟ من يدري!!!

ولكننا نتوقف هنا لنخالفهم الرأي بالقول بأن مفردة بِوَرِقِكُمْ لا علاقة لها بالنقود إطلاقا للأسباب التي نظن أنها موجبة التالية:

1. وجود مفردة هَٰذِهِۦ مباشرة بعد كلمة بِوَرِقِكُمْ . انظر السياق القرآني جيدا:

فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ

فوجود اسم الإشارة هَٰذِهِۦٓ لاحقة على الفور لمفردة بِوَرِقِكُمْ يدل على بما لا يدع مجالا للشك وجود غيرها، فالمعنى بمجمله أن الفتية يملكون "ورقهم هذه" وعندهم أيضاً ورق غيرها، وإلا لما كان استخدام مفردة بِوَرِقِكُمْ مبررا هنا. وللنظر إلى كيفية استخدام مفردة هذه في السياق القرآني التالي مثلا:

- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: 124]

فالإشارة إلى سورة بحد ذاتها يعني بالضرورة وجود غيرها، وهذا ينطبق على كل أسماء الإشارة كما في الآية الكريمة التالية حيث استخدم اسم الإشارة هاتين للحديث عن المثنى المؤنث:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

فشعيب يشير إلى موسى أن يختار من بين بناته هاتين ليدلّنا بأن الرجل كان عنده من البنات غير هاتين ولكن اختيار موسى يجب أن يكون من بين هاتين فقط.

وبالمنطق نفسه فإن الفتية يجمعوا أمرهم أن الذاهب منهم يجب أن يذهب " بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ", ليكون السؤال الآن على النحو التالي: إذا كانت مفردة ورقكم تدل على النقود، ما الداع أن يختاروا نوعا محددا من النقود ليبعثوا أحدهم بها إلى المدينة؟ ألا يستطيع من أراد أن يشتري شيئا من السوق أن يستخدم أي نوع من النقود يتوافر لديه؟ من يدري!!!

2. أليس من الطبيعي أن من أراد أن يشتري شيئا من السوق أن يأخذ معه نقوده؟ فما الداع إذن أن يجمع الفتية أن من أراد أن يذهب إلى السوق فليأخذ هذا النوع على وجه التحديد من النقود؟ فنحن نفتري

الظن بأن ما دام أن شراء السلع من السوق يتطلب توافر النقد لذلك فلا داع أن يذكر النقد أصلا لأن ذلك يصبح من باب حشو الكلام الذي لا لزوم له. لذا نحن نظن أن هناك سببا عظيما جعل الفتية يجمعون على ضرورة أن يأخذ الذاهب منهم إلى المدينة بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦ، فما السبب يا ترى؟

3. نحن نظن أن الدليل الحاسم على صحة ما نزعم بأن مفردة بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦ لا علاقة لها بالنقود ربما يمكن استقصاءه من ضمير المتكلم المتصل المستخدم مع المفردة نفسها:

فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ

ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لو كانت المفردة تدل على النقد لما كان الفتية بحاجة أن يستندوا المفردة إلى ضمير المتكلم الخاص بهم بِوَرِقِكُمْ ، فالنقد هو نقد للجميع وليس خاص بمجموعة محددة إلا إن كان هناك نزاع عليه، فأنت لا تقول مثلا أنك اشتريت حاجة بنقودك إلا إن كان هناك شك في أن النقود لا تعود لك أصلا كأن تكون أخذت السلعة بطريقة غير شرعية مثلا أو أن تكون النقود التي استخدمتها مسروقة. ولكن في الوضع الطبيعي فأنت تقول أنك اشتريت السلعة بمئة دينار مثلا دون الحاجة أن تنسب الدنانير إليك، أليس كذلك؟

4. الخ.

السؤال: لماذا نسب الفتية الورق إليهم (بِوَرِقِكُمْ)؟ ولماذا حددوه بنوع محدد من الورق باستخدام اسم الإشارة هذه (بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ)؟

رأينا: نحن نظن أن الجواب على ذلك بسيط ويتمثل في أمرين اثنين وهما:

1. أن الورق كان خاصا بهم على وجه التحديد، فأصبح الورق ورقهم وليس ورق غيرهم، فنسبوه لأنفسهم (بِوَرِقِكُمْ)، فذاك – برأينا- ورق خاص بهم لا يستطيع أحد أن ينازعهم في ملكيته. فأسندوا المفردة إلى ضمير المتكلم الجمع (بِوَرِقِكُمْ)
2. لأنه كان لدى الفتية أكثر من وَرِق واحد، فكان لزاما أن يحددوا أيّا منها يجب استخدامه من أجل هذا الغرض وهو شراء الرزق من الطعام من سوق المدينة. فاستخدموا اسم الإشارة هذه معه (بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ)

ولكن كيف ذلك؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أنه يمكن فهم ذلك لو صح افتراؤنا التالي: هناك علاقة مباشرة بين مفردة (بِوَرِقِكُمْ) التي جاءت في سياق الحديث عن شراء الرزق من الطعام من المدينة بمفردة (وَٱلرَّقِيمِ) التي جاءت في بداية قصتهم:

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]

العلاقة بين الرَّقِيمِ و وَرِقِكُمْ

افتراء من عند أنفسنا: لما كان كل واحد من حواري المسيح قد رقم شيئا من الإنجيل بنفسه مما جاءه من العلم من عند معلمهم جميعا المسيح عيسى بن مريم، كان لزاما وجود فروقات بين كل واحدة من الكتب التي رقموها، فما رقمه أحدهم قد لا يكون بالضرورة هو نفسه الذي رقمه الآخر وهكذا وإن وجد بعض التشابه بينهما. لذا كان في كل كتاب مرقوم من الرقيم التي لديهم شيء مختلف عن غيره، ولتبسيط الصورة نقول دعنا نشبّه تلك الكتب (أو لنقل الورق) التي رقمها الفتية بسور القرآن الكريم، فهناك سورة البقرة وهناك سورة المائدة وهناك سورة الأنعام، وهكذا. وبالرغم من وجود تقاطعات وتشابهات بين هذه السور من حيث الجزئيات لكن كل واحدة منها هي سورة مستقلة بذاتها، تختلف بشكل واضح عن غيرها، والأهم من ذلك هو أنك ستجد في كل واحدة من تلك السور ما لا تجده في الأخرى. فلو تطرقنا إلى موضوع الطلاق مثلا قد لا نجد شيئا عنه في سورة الأنعام ولكن ربما نجد شيئا عنه في البقرة أو في سورة الطلاق نفسها، وهكذا هو الأمر بالنسبة للنكاح، والطعام والتحريم والتحليل. فلو أنت بحثت في سور القرآن الكريم عن ما يمكن أن يؤكل وعن ما لا يجوز أكله فلا بد أن تتعرض لما في سورة المائدة أو الأنعام مثلا. وهكذا هي – برأينا- الحال بالنسبة للكتب التي رقمها الحواريون بأنفسهم، ولكن كيف ذلك؟

جواب: لقد رقم الفتية عن معلمهم المسيح عيسى بن مريم في ورق خاص بهم التعاليم الربانية التي جاءهم بها، فكان عندهم ورق خاص بالطعام والشراب، وورق خاص بأحكام النكاح والزواج والطلاق،وهكذا.

الدليل

دعنا لا ننسى أن الفتية يتحدثون عن موضوع شراء الرزق من الطعام من الأسواق، أليس كذلك؟

لذا فهم بحاجة إلى ما جاءهم من العلم الذي رقموه بأنفسهم عن معلمهم المسيح عيسى بن مريم عن هذا الموضوع على وجه التحديد، فأجمع الفتية أمرهم بالقول بأن من أراد أن يذهب منهم إلى سوق المدينة ليحضر لهم شيئا من الطعام فعليه أن يأخذ معه ما رقموه (أو لنقل ما رقمه بعضهم) بأيديهم عن موضوع الطعام، وهو موجود – كما نتخيله- في واحدة من تلك وَٱلرَّقِيمِ(أي الكتب المرقومة) فأشاروا إليها بالقول (بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ). ولكن لماذا؟

جواب: نحن نتخيل أن الفتية كانوا يعيشون في الزمن نفسه الذي عاش فيه المسيح عيسى بن مريم بين بني إسرائيل، أليس كذلك؟ كما أننا نعلم من السياقات القرآنية المتعددة أن مسألة الطعام (ما يؤكل وما لا يؤكل) كانت بلا شك قضية شائكة بين بني إسرائيل لسببين اثنين على الأقل وهما:

1. بالرغم أن كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا أن إسرائيل نفسه قد حرم على نفسه شيء منه:
   - ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: 93]

   ليصبح هناك من الطعام ما هو محرم أكله على بني إسرائيل بسبب تحريم إسرائيل ذلك نفسه
2. أن القوم كانوا قد ظلموا أنفسهم من ذي قبل، فكانت العاقبة على نحو تحريم بعض الطيبات التي أحلت لهم:
   - ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: 160]

لنخلص بناء على ذلك إلى النتيجة التالية: لقد كان موضوع اختيار الطعام الذي يجوز أكله أمرا شائكا بين بني إسرائيل في ذلك الوقت، فهناك محرمات لا يجب الاقتراب منها كالتي حرمها إسرائيل على نفسه وهناك أيضا طيبات محرمة عليهم بسبب الظلم الذي أوقعوا أنفسهم فيه، فكيف سيكون الاختيار؟ وكيف سيستطيع من يذهب منهم إلى السوق أن يختار لهم طعاما مناسبا؟

جواب: لابد من وجود الدليل، والدليل هو – برأينا- الكتاب المرقوم الذي يوجد به علم ما يؤكل وما لا يؤكل كما وصل إلى الفتية من عند معلمهم ورسولهم المسيح عيسى بن مريم.

الدليل

لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالطعام وارتباطه بالمسيح عيسى بن مريم لوجدنا الآية الكريمة التالية على الفور:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: 50]

لتكون واحدة من المهام الرئيسة لعيسى بن مريم أن يحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)، أليس كذلك؟ ولكن ما علاقة هذا الأمر بموضوع إرسال الفتية أحدهم (بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إلى المدينة ليحضر لهم بعضا من طعامها.

تخيلات من عند أنفسنا: جاء المسيح عيسى بن مريم في زمن كان التحريم في الطعام على أشده في بني إسرائيل بما في ذلك تحريم بعض الطيبات التي كانت قد أحلت لهم قبل أن يظلموا أنفسهم. وكانت واحدة من مهماته هو أن يحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم من الطعام، فقدم لحواريه العلم بذلك، فقام بعض حواريو المسيح عيسى بن مريم برقم ذلك في واحدة من كتبهم، فكان هناك كتاب مرقوم واحد من بين جميع كتبهم المرقومة (الرقيم) يبيّن خبر الطعام الذي يؤكل والطعام الذي لا يؤكل، لذا طلب الحواريون أن يذهب أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم شيئا من طعامها أشاروا عليه بأن يذهب (بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ)، أي ليأخذ معه ذلك الكتاب المرقوم (وَرِقِ) الذي يتواجد فيه العلم بالمحرمات من الأطعمة، وما أن يصل إلى هناك حتى ينظر في كتابه المرقوم ذاك (الوَرِقِ) ثم ينظر ما يتواجد في السوق منه ليختار من بينها أزكاها:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف: 19]

ولو دققنا في النص لأصبحنا بحاجة أن ننبش في المفردات التالية:

1. النظر (فَلْيَنظُرْ)
2. أزكى (أَزْكَىٰ طَعَامًا)
3. التلطف (وَلْيَتَلَطَّفْ)

فما الحاجة إلى كل ذلك؟

السؤال الأول: لماذا وردت في النص مفردة فَلْيَنظُرْ ؟

رأينا: مادام أن ذاك الشخص المبعوث منهم إلى سوق المدينة كان متوقع منه (لا بل مطلوب منه) أن ينظر، فلابد من وجود شيء لينظر فيه، فأين يا ترى سينظر من ذهب منهم إلى السوق؟

جواب: نحن نظن أنه بحاجة أن ينظر (1) في ورقه (الوَرِقِ) الذي جاء يحمله معه كما أنه بحاجة أن ينظر (2) في السوق، ويقوم بناء على ذلك بعملية مقارنة بين ما هو مرقوم في ورقه وما هو متوافر في السوق لتتم عملية الاختيار بعد ذلك.

السؤال الثاني: لماذا جاءت مفردة أَزْكَىٰ في النص؟ فهل يبحث الفتية فعلا عن طعام "الذيذ" كما يمكننا أن نفهم ذلك من الاستخدام الشعبي للمفردة؟ فما معنى أن يكون الطعام أ أَزْكَىٰ (أو لنقل زاكيا أو زكيا)؟

جواب: نحن نظن أن لمفردة أ أَزْكَىٰ علاقة مباشرة بالحلال والحرام (ولا علاقة لها بالطعم)، لنفتري الظن من عند أنفسنا بأن الطعام يكون أ أَزْكَىٰ عندما لا يشوبه الحرام حتى وإنْ لم يكن لذيذ الطعم، وبالمقابل

فإن الطعام لا يكون أ أَزۡكَىٰ عندما يشوبه شيء من الحرمة حتى وإن كان طعمه لذيذا. فالزكاة تعنى – في ظننا- التبرئة من الحرام، فالشيء الذي يتزكى هو ما قد أخرجت الحرمة منه كما في حالة الطلاق والنكاح مثلا:

- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة: 232]
- ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [النور: 30]

أو في حالة الصدقة:

- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]
- ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ [الليل: 18]

أو حتى في حالة الاستئذان لدخول بيوت الغير:

- ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ [النور: 28]

فالشيء الزكي هو – برأينا- ذلك الشيء الذي خرج الحرام منه. لذا فإننا نقوم نحن بإتباع المنهج الديني الصحيح لنخرج ما بنا من الحرام:

- ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: 103]
- ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾ [النازعات: 18]

فكانت تلك واحدة من مهام الرسول الكريم:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

نتيجة: الزكاة تعني خروج الحرمة من الشيء. ولو تفقدنا السياقات القرآنية لما وجدنا أن هناك بشرا من بين خلق الله جميعا كان زكيا إلا المسيح عيسى بن مريم، فلقد كان المسيح عيسى بن مريم هو وحده الغلام الزكي فقط بنص كتاب الله:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: 19]

والسبب في ذلك - كما نفتريه – هو أن المسيح عيسى بن مريم لم يدخله شيء من الحرام قط، فكان كله حلالا خالصا، فهو لم يأكل أصلا من طعام أهل الأرض، ولم يتزوج من نساء الأرض، ولم ... الخ. وكل ما

عدا المسيح عيسى بن مريم (حتى الأنبياء أنفسهم) فقد دخل فيه شيء من الحرام، لذا فهم بحاجة أن يجهدوا على أنفسهم ليقوموا بفعل التزكية:

- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: 18]

فبمقدار ما تجتهد على نفسك بأن تترك الحرام، تكون مقدار الزكاة التي ستتحصل عليها لقاء الجنة التي وعدت:

- ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: 76]

الفرق بين الطهارة والزكوة

ففي حين أن المسيح عيسى بن مريم كان زكيا إلا أن الله قد طهّره يوم أن رفعه إليه:

- ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]

ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين الطهارة والزكاة كما ترد المفردتان متلازمتان في السياق القرآني التالي:

- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: 103]

لاحظ أن أخذ الرسول المال من الناس سينتج عنه أمران وهما الطهارة (تُطَهِّرُهُمْ) والزكاة (وَتُزَكِّيهِم)، فكيف سيتم ذلك؟ وكيف ستختلف الطهارة عن الزكاة؟ أو كيف سيختلف التطهير عن التزكية؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن الزكاة هي طهارة ما في الداخل بينما الطهارة هي طهارة ما في الخارج فقط.

الدليل

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

فالطهارة من المحيض تعني توقف الأذى من الظهور إلى الخارج. فدم الحائض لا ينضب، ولكن متى خرج إلى الظاهر أصبح لزاما القيام بفعل التطهر منه، ولا يحصل ذلك إلا بعد أن يتوقف كليا عن الخروج.

ولكن بالمقابل فإن التزكية قد تحصل للنفس:

- ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: 32]
- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: 7-9]

السؤال: ما علاقة ذلك بطعام الفتية الذي بعثوا أحدهم ليطلبه من السوق؟

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الفتية قد طلبوا من صاحبهم الذي بعثوه إلى السوق أن يختار لهم الطعام الزكي الذي ليس فيه شبهة الحرام، ولكن كيف يستطيع التحقق من ذلك؟ أي كيف يستطيع أن يأتيهم بالطعام الذي هو أزكى؟

رأينا: نحن نظن أنه يستطيع القيام بذلك متى نظر في ما بين يديه من العلم الموجود في (الوَرَق) الذي أخذه معه ليقارنه بما هو متوافر من ذلك الطعام في الأسواق.

باب: وَلْيَتَلَطَّفْ

السؤال: ما سبب ورود مفردة **وَلْيَتَلَطَّفْ** في النص نفسه؟ فلماذا طلب الفتية من صاحبهم أن يتلطف؟

جواب: جواب لعل البعض يظن أن ذلك بمعنى حتى لا يراه الآخرون فيتعرف عليه من في السوق فينكشف أمر الفتية، نقول أن هذا ربما لا يصح لسبب بسيط وهو أن مثل هذا المعنى متوافر في العبارة التي تليها مباشرة وهي (وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا). انظر النص جيدا:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: 19]

لنطرح السؤال الآن على النحو التالي: ماذا يمكن أن يفيدنا وجود مفردة وَلْيَتَلَطَّفْ متصاحبة مع عبارة (وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)؟ ألا تكفي هذه العبارة الأخيرة أن تشير إلى المعنى المقصود في محاولة الفتى بذل جهده بأن لا ينكشف خبر الفتية جميعا؟

جواب: نحن نظن أن المعنى الذي جاءنا من عند سادتنا أهل العلم يمكن أن يتحقق من وجود عبارة (وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) وكفى، وربما لا يكون هناك حاجة لوجود عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ سابقة لها في السياق نفسه (وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) إن كان ما قاله سادتنا العلماء صحيحا.

رأينا: إذن لابد من البحث عن معنى مفردة وَلْيَتَلَطَّفْ حتى نستطيع إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه أن نستجلي الغاية التي من أجلها وردت هذه المفردة في هذا السياق مصاحبة لعبارة وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا وفي هذا الموضوع من السياق على وجه التحديد.

تساؤلات

- ما معنى عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ ؟
- ما معنى عبارة وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ؟
- كيف تختلف عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ عن عبارة وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ؟
- الخ

السؤال الأول: ما معنى عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ تعني محاولة إخفاء شخصيتك من خلال إخفاء الشكل أو المظهر الخارجي حتى لا يتعرف عليك من كان يعرفك من مظهرك.

السؤال الثاني: ما معنى عبارة وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه العبارة تعني أيضا محاولة إخفاء شخصيتك ولكن من خلال عدم الحديث حتى لا يتعرف عليك الآخرون من خلال كلامك

السؤال الثالث: ما الفرق بين عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ عن عبارة وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: هناك طريقتان لإخفاء هوية الشخص وهما التستر بإخفاء المظهر الخارجي والتستر على الهوية بعدم البوح بالحديث

افتراء من عند أنفسنا: لذا نحن نفتري الظن بأن الفتية أصحاب الكهف والرقيم قد طلبوا ممن بعثوه إلى المدينة منهم ليحضر لهم رزقا من طعامها بأن يحاول قدر الإمكان إخفاء شخصيته وهويته من خلال أمرين مهمين وهما عدم (1) إظهار شكله الخارجي (وَلْيَتَلَطَّفْ) و(2) عدم الخوض في الحديث مع أهل المدينة حتى لا ينكشف أمره من خلال حديثه معهم (وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا).

الدليل

نحن نظن أن الدليل الأول على معنى عبارة وَلْيَتَلَطَّفْ يمكن استقصاءه من المشاهدة التالية: نحن نظن أن الفتية قد خرجوا من المدينة وظنوا أنهم قد قضوا وقتا قليلا في كهفهم، وما أن استيقظوا من رقودهم حتى طلبوا جميعا أن يذهب أحدهم إلى المدينة نفسها ليحضر لهم بعضا من طعامها، لذا فهم يظنون أن أهل المدينة (أو على الأقل نفر منهم) يمكن أن يتعرف على الذي بعثوه منهم من خلال مظهره أو لنقل شكله

الخارجي. ولما كان هدفهم هو أن لا يظهر عليهم أهل المدينة كما تدل الآية الكريمة على ذلك بصريح اللفظ، كان لزاما أن يطلبوا من أحدهم أن يحاول قدر المستطاع أن يخفي بعض ملامحه (أو سيماه) حتى لا يتعرف عليه نفر من أهل المدينة، فتكون النتيجة على نحو ما لا يرغبون ولا يتمنون:

- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ [الكهف: 20]

وقد يظن البعض بأن الفتية قد أرسلوا أحدهم إلى مدينة غير تلك التي خرجوا منها أصلا، فنرد على ذلك بالقول بأننا نرفض مثل هذا الفهم لسببين اثنين على الأقل، وهما:

- لو أن الفتية كانوا قد بعثوا أحدهم إلى مدينة غير تلك التي خرجوا منها لما كانوا – برأينا- بحاجة أن يطلبوا ممن بعثوه منهم أن يتلطف وأن لا يشعرن بهم أحدا،
- والأهم من ذلك هو ظننا بأنه لو كانوا قد خرجوا من مدينة غير تلك المدينة التي بعثوا احدهم إليها لما نسبوا العذاب الذي قد يقع عليهم (لو أن أمرهم قد انكشف) لأهل تلك المدينة نفسها، انظر الآية جيدا:

- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ [الكهف: 20]

فالفتية ينسبون إلى أهل المدينة نفسها القيام بمهمة صد الفتية عن دينهم بأحد أمرين وهما إما الرجم (يَرْجُمُوكُمْ) أو العودة في ملتهم (أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) أي ملة أهل المدينة.

نتيجة: نحن نظن أنه لمّا كان بعض أهل المدينة يعرفون الفتية كان لزاما أن يطلب الفتية ممن بعثوه منهم أن يحاول أن يخفي شكله الخارجي حتى لا يتعرف عليه من كان يعرفه من أهل المدينة، وهذا برأينا واحدة من أسباب استخدام مفردة وَلْيَتَلَطَّفْ

سؤال: فماذا عن عبارة وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ؟ أين الدليل على زعمك بأنها تعني تغطية الشخصية أو الهوية من خلال الحديث (الكلام)؟

رأينا: لو تتبعنا السياقات القرآنية عن مفردة "يشعرون" لوجدنا أنها مصاحبة على الدوام لحصول الحديث، فها هي امرأة فرعون تجري حديثا مع زوجها بوجود الملأ من آل فرعون ولكنها تحاول أن لا يشعر الحاضرون به:

- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: 9]

لذا نحن نظن أن أخت موسى كانت تقص خبر أخاها بالكلام، وليس فقط بالمشاهدة، فلقد كانت – نحن نتخيل- تحاول أن تجري حديثا جانبيا عن خبر المولود الذي في الماء ولكن دون أن تبدي أمره:

- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١﴾ [القصص: 11]

وهذا الوحي يأتي ليخبر يوسف بما ستكون عليه الحال بعد زمن بوجود أخوته على باب غيابة الجب ولكن إخوانه لا يشعرون بذلك:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15]

وها هي النملة تجري حديثا مع بنات جلدتها وتحاول أن لا يشعر به الآخرون:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ [النمل: 18]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن النصيحة الأخرى التي قدّمها الفتية لمن بعثوه منهم إلى السوق هو محاولة أن يخفي شخصيته وذلك بأن لا يجري حديثا صريحا على العلن مع أهل المدينة حتى لا يتعرف عليه أهل المدينة من خلال خطابه. فلو ذهب ذلك الفتى إلى السوق وأخذ يحدث الناس بأمر الطعام الزكي (الحلال) الذي يأكلونه والطعام غير الزكي (الحرام) الذي لا يأكلونه لربما انكشف أمرهم. ولنضرب مثلا على ذلك من أجل تبسيط الفكرة.

فعلى سبيل المثال عندما يذهب المسلم منا إلى بلاد الغرب، ويواجه مشكلة الحلال والحرام من الأطعمة، فإن البعض قد يتحدث على الفور عن هذا الأمر من المنظور الديني (أي بالقول بالحلال والحرام)، عندها قد لا يخفى على من تحدثه من أهل الغرب بأنك شخص غريب عن ثقافته، وربما يستطيع من خلال حديثك معه عن الموضوع من هذه الزاوية أن يحدد هويتك الدينية، فأهل الغرب مثلا يعلمون أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير، فإن أنت حدثت الناس أنك لا تأكل لحم الخنزير لحرمته في تعاليم دينك، سيفهم من تحاوره إذن بأنك لست من أهل الديانة المسيحية، وربما يستطيع أن يحدد أنك من أهل الديانة الإسلامية أو اليهودية مثلا. ولكن ربما تستطيع أن تسلك طريقا أخرى لتتجنب أكل لحم الخنزير مثلا دون أن تدل الآخرين على هويتك الدينية، وذلك بعدم الحاجة إلى إقحام الدين في الموضوع أساسا، كأن لا تدخل في نقاش حول الموضوع أصلا، وإن أنت دخلت في ذلك الموضوع، فيمكنك أن تعزو عزوفك عن الأكل منه لعامل عدم الرغبة مثلا، وكفى. عندها لن يستطيع الذي تتحاور معه أن يحدد هويتك الدينية من خلال نقاشك في هذا الموضوع بالتحديد. وهذا ما نظن أن الفتية قد طلبوه ممن بعثوه منهم إلى سوق المدينة: أن لا يدخل في نقاش الحرمة في الطعام والشراب مع من هو في السوق من أهل المدينة حتى لا يستطيع من يتحاور معهم من أهل المدينة

أن يتعرف على هوية الفتى الدينية من خلال ذلك النقاش لأن العاقبة ستكون (إن انكشف أمرهم) وخيمة عليهم جميعا، وتتمثل بواحدة من خيارين وهما:

1. الرجم (يَرْجُمُوكُمْ) أو
2. العودة في ملة أهل المدينة (يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ)

مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ [الكهف: 20]

السؤال: ما معنى الرجم؟ وكيف سيتم تنفيذه؟

باب الرجم

لو حاولنا أن نتفقد أمهات كتب التفاسير عن معنى مفردة الرجم التي وردت في هذه الآية الكريمة لوجدناها جميعا تجمع إلى أن عمليه الرجم تتم بضرب المرجوم بالحجارة حتى يموت. وأنا إن كنت لا أعرف الأصل في ذلك إلا أنني أجد أن هذا المعنى هو أبعد ما يمكن عن الحقيقة. فلو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بمفردة الرجم لما وجدنا أن إلقاء الحجارة وارد فيها على الإطلاق. لذا نحن نرى ضرورة فتح الملف من جديد، لتقصي معنى مفردة الرجم من السياقات القرآنية نفسها. ونحن نظن أن ذلك يجب أن يمر بمرحلتين اساسيتين وهما:

1. جلب الدليل على دحض الفكر السائد وتفنيده
2. جلب الدليل على المعنى البديل المقترح

دحض الفكر السائد المتمثل بالظن بأن الرجم يتم باستخدام الحجارة لقتل المرجوم.

لعل فكرة الرجم بالحجارة قد جاءت من الحد الذي جاء من عند أهل العلم ولا يوجد عليه دليل في كتاب الله وهو حد الزاني المحصن كما يحب أهل الدراية أن يصفوه. ففي حين أن العقوبة للزاني كما وردت في كتاب الله هي الجلد مئة جلدة:

- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: 2]

خرج علينا علماؤنا الأجلاء بحدٍ نظن أنه من عند أنفسهم يتمثل بأن هناك حد آخر للزنا لم ينص عليه القرآن الكريم صراحة وهو حد الرجم بالحجارة، وروّجوا لذلك بحديث لم يعدموا الوسيلة أن يبرروا به فعلتهم الشنيعة تلك. ونحن نرفض مثل هذا الحد للأسباب التالية:

⇐ إن هذا حدٌ خطير جدا يتحدد بناء عليه إزهاق أرواح البشر، لذا لابد من التريث فيه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا

⇐ لمّا كان هذا حد خطير جدا نظن أن الدليل عليه يجب أن يكون دامغا من كتاب الله، فلما كان كتاب الله قد تحدث بصريح اللفظ عن حدود هي أقل خطورة من هذا الحد كحد السرقة مثلا، فإنه من غير المنطقي – برأينا- أن لا يتحدث عن هذا الحد الخطير الرجم (إن وجد) بأقل من صريح اللفظ

⇐ لمّا كان القرآن الكريم قد تطرق لحد الزاني غير المحصن (على عهدة علمائنا الأجلاء) كما في آية الجلد، فإنه كان من الأولى أن يتحدث عن حد الرجم (إن وهو وجد) مادام أنه أكثر خطورة واشد عاقبة على الناس.

⇐ نحن نرى أن تطبيق حد الرجم بالحجارة (إن هو وجد) كما روج له سادتنا العلماء على مر القرون يستحيل تطبيقه في بعض الحالات، نذكر منها الحالتين التاليتين

أ. تطبيق حد الرجم بحق نساء النبي لو أن واحدة منهن قد وقعت فيه لا قدر الله، وذلك لأن العقوبة على نساء النبي التي تأتي منهن بتلك الفاحشة يضاعف لها العذاب ضعفين، مصداقا لقوله تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠﴾ [الأحزاب: 30]

السؤال: فدلوني بالله عليكم كيف يمكن أن نعاقب بالرجم بضعفين من العذاب؟ هل نستخدم حجارة أكبر من تلك التي نستخدمها في حالة الرجم الطبيعي؟ أم نضاعف عدد الحجارة التي نستخدمها؟ نحن نطلب من علمائنا الأجلاء إذن أن يحددوا لنا حجم وعدد الحجارة التي يجب أن تستخدم في حالة الرجم الطبيعي. من يدري!!!

ب. تطبيق حد الرجم بالحجارة (إن وجد) بحق ما ملكت أيماننا من فتياتنا المحصنات اللاتي جاءت عقوبتهم محددة بالنص الصريح على نحو نصف ما على المحصنات من العذاب:

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء: 25]

وهنا نعيد توجيه السؤال إلى سادتنا العلماء بالقول: إن كنتم تظنون (كما نظن نحن أيضا) بأن نساء النبي لن يقعن بالفاحشة، لذا لا يصبح لزاما عليكم تفصيل كيفية أن يضاعف حد الرجم ضعفين، لكن ألستم ملزمين أن تبيّنوا لنا كيفية حد الرجم في حالة فتياتنا المحصنات إن هن أتين بالفاحشة؟ فكيف يمكن أن ترجم نصف رجمة؟ هل يكون ذلك باستخدام حجارة أصغر من تلك

التي تستخدم بحد الرجم الطبيعي؟ أم هي فقط مسألة عددها، كأن نستخدم نصف عدد الحجارة التي نستخدمها في حالة الرجم الطبيعي؟ من يدري!!!

حتى يتمكن علماؤنا الأجلاء من تحديد حجم تلك الحجارة وعددها، فإننا نبقي على عقيدتنا التي مفادها أن حدَّ الزنا هو مئة جلدة فقط بغض النظر عمن أقترفه سواء كان محصنا (أي متزوجا كما نفهم من كلام سادتنا العلماء) أو غير متزوج، لأننا ببساطة لا نستطيع أن نفهم كيف يمكن تطبيق ذلك في حالة الخاطِبْ (الذي لم يدخل بعد) أو المطلق أو الأرمل، الخ. فهل ينضوي أُولئك تحت مجموعة المحصنين (التي ترجم) أم تحت مجموعة غير المحصنين (التي تجلد)؟ من يدري!!!

الخ.

الفكر المقترح البديل

نحن نظن أن مفردة الرجم لا علاقة لها باستخدام الحجارة أو التعذيب باستخدام الحجارة

الدليل

رأينا: لو تدبرنا الآية الكريمة الخاصة بأصحاب الكهف والرقيم لربما استوقفتنا ملاحظة نظن أنها غاية في الأهمية في هذا السياق، وهي نهاية الآية الكريمة نفسها، فلنعيد تلك الآية مركزين على نهايتها هذه المرة:

- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: 20]

لنطرح بناء على ذلك التساؤل التالي: ألا تشعر عزيزي القارئ أن تلك النهاية تدل على الحالة التي سيؤول إليها الفتية بعد تطبيق الرجم أو العودة في ملة أهل المدينة (وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا)؟

نعم، ولكن ما علاقة ذلك بمفردة الرجم؟

جواب: ألا ترى أن الفتية لن يفلحوا إذا ما تم تطبيق حد الرجم عليهم أو العودة في ملتهم؟

نعم، ولكن لم أفهم شيئا.

حسنا، لنتخيل أن أمر الفتية قد انكشف، وأن أهل المدينة قد قاموا برجمهم، هل يعني ذلك أن الفتية لم يفلحوا أبدا؟ فهل لو مات الفتية تحت ضربات حجارة القوم في حد الرجم، أليس ذلك هو الفلاح الأكبر؟ وأي فلاح أكبر من أن تموت في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى؟ ثم ألا ترى أن هؤلاء الفتية لو تم قتلهم رجما بالحجارة (على عهدة سادتنا العلماء)، ألن يكون ذلك في سبيل الله إذن؟ ألن ينطبق عليهم قول الحق الذي جاء في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: 169]

ولو حصل ذلك فأي فلاح أكبر من ذلك؟ نحن نتساءل فقط!!!

نتيجة: نحن نظن أنه لو كان الرجم يعني إلقاء المرجوم بالحجارة حتى يموت لأصبح الفلاح (وليس عدمه) هو نصيب أولئك الفتية، لذا نحن نتجرأ على البوح بالعقيدة التالية: إن الرجم لن ينتج عنه الموت أو القتل، فأولئك الفتية سيبقون على قيد الحياة حتى لو تم رجمهم وهنا فقط نستطيع أن نفهم قولهم بأنهم لن يفلحوا أبداً، ولكن كيف يكون ذلك؟

باب المفلحون: من هم المفلحون؟

رأينا: نحن نظن أن من سيكون من المفلحين فعليه أن يقوم بأفعال محددة بذاتها نذكر منها

⇐ الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بما أنزل واليقين بالآخرة كما تصور ذلك مطلع سورة البقرة:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 3-5]

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان: 4-5]

نتيجة: حتى يكون الفتية من المفلحين لابد عليهم من القيام بمثل هذه المهام، وحتى يستطيع قومهم أن يبعدوهم عن الفلاح فلن يتركوا لهم الفرصة للقيام بمثل هذه الأفعال

⇐ المفلح يقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويوق شح نفسه:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: 104]

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن: 16]

نتيجة: حتى يكون الفتية من المفلحين لابد عليهم من القيام بمثل هذه المهام، وحتى يستطيع قومهم أن يبعدوهم عن الفلاح فلن يتركوا لهم الفرصة للقيام بمثل هذه الأفعال.

⇐ أن تثقل موازينه:

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ [الأعراف: 8]

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢﴾ [المؤمنون: 102]

⇐ إتباع النبي ونصرته سواء كان النبي محمد أو أي نبي غيره كعيسى بن مريم مثلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨﴾ [التوبة: 88]

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور: 51]

نتيجة: حتى يكون الفتية من المفلحين لابد عليهم من القيام بمثل هذه المهام، وحتى يستطيع قومهم أن يبعدوهم عن الفلاح فلن يتركوا لهم الفرصة للقيام بمثل هذه الأفعال.

⇐ المفلح هو من يريد وجه الله:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الروم: 38]

نتيجة: حتى يكون الفتية من المفلحين لابد عليهم من القيام بمثل هذه المهام، وحتى يستطيع قومهم أن يبعدوهم عن الفلاح فلن يتركوا لهم الفرصة للقيام بمثل هذه الأفعال.

⇐ المفلحون لا يُوَادُّونَ من حاد الله ورسوله

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22]

نتيجة: حتى يكون الفتية من المفلحين لابد عليهم من القيام بمثل هذه المهام، وحتى يستطيع قومهم أن يبعدوهم عن الفلاح فلن يتركوا لهم الفرصة للقيام بمثل هذه الأفعال.

وبناء على ذلك فإن منع الفتية عن الفلاح كما جاء على لسانهم يكون بواحدة من أمرين وهما:

⇐ الرجم

⇐ العودة في ملة القوم

وبهذا يتحقق – برأينا- صد الفتية عن الفلاح بواحدة من خيارين وهما:

1. أن يبقى الفتية على دينهم ولكن القوم في هذه الحالة سيمنعونهم كليا عن القيام بشعائرهم الدينية المتمثلة بالإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتباع الرسول ومودة الذين آمنوا (مقابل مودة من حاد الله ورسوله)، وبالتالي لن يستطيع الفتية أن يثقلوا موازينهم بمثل هذه الأعمال التي تؤدي (إن قاموا بها) إلى فلاحهم.
2. أن يعود الفتية إلى ملة قومهم إن لم يستطيعوا أن يصبروا على كل ذلك الأذى الذي سيلحقونه بهم

نتيجة مفتراة: نحن نظن أنه سواء اختار الفتية الحل الأول أو الحل الثاني ستكون النتيجة في كلا الحالتين هي عدم فلاحهم. وهذا برأينا السبب الذي ربما جاءت من أجله عبارة وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا في نهاية الآية الكريمة التي تتحدث عن عقابهم في حالة أن أنكشف أمرهم:

- ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾ [الكهف: 20]

ونحن نطلب من القارئ أن يتدبر هذه الآية الكريمة من هذا المنظور. ولكن يبقى أن نثير بناء على ذلك التساؤل الكبير جدا التالي: ما معنى الرجم إذن؟ وكيف يتم تنفيذه؟

رأينا الخطير المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الرجم يتمثل بما نفهمه نحن من معنى وضع الحجر على الشخص لغرض عقائدي يتمثل بمنع الشخص عن القيام بالمهمات الدينية المطلوبة منه، فالمرجوم هو برأينا ذلك الشخص الذي لا يستطيع أن يقوم بالمهام الدينية التي تثقل موازينه كالتي ذكرناها سابقا حتى لا يكون من المفلحين. والرجم، بهذا المعنى، يختلف عن السجن لأن السجن لا ينطوي على منع عقائدي، فهذا يوسف يدخل السجن ولكنه يبقى يمارس طقوس العبادة الخاصة به في داخل السجن، والأهم من ذلك يستمر في ممارسة الدعوة إلى الله داخل قضبان سجنه:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف: 39]

لذا، فإن الرجم يتمثل في تقييد حركة الشخص ولكنه يتضمن أيضا مراقبة سلوكه الديني لئلا يكون من المفلحين.

ونحن نظن أيضا أن الرجم يختلف عن المقاطعة كالتي حصلت للنبي وصحبه في شعب بني هاشم، لأن المقاطعة تنطوي على إيقاف التعامل المادي مع المقاطعين، ولكنها لا تنطوي على مراقبة سلوكهم الديني، ليصبح – بناء على ذلك- في مخيلتنا ثلاث حالات مختلفة، ألا وهي:

⇐ السجن: منع الحركة مع استمرار تزويد المسجون بالطعام والشراب وترك حرية العبادة له حتى وهو وراء القضبان

⇐ المقاطعة: إيقاف التعامل مع الشخص بالبيع و الشراء ولكن يبقى للشخص حرية ممارسة عباداته

⇐ الرجم: مراقبة حركة الشخص لمنعه من ممارسة طقوسه الدينية بالرغم من الاستمرار بتزويده بالطعام والشراب حتى لا يهلك، في محاولة لصده عن دينه والعودة في ملة قومه، فلا يكون بذلك من المفلحين الذين ثقلت موازينه بأعمال العبادة التي كان من المفترض أن يقوم بها.

الدليل

نحن نقرأ الدليل على ذلك مما قاله الأب لابنه الذي خالف شريعته عندما ردد على مسامعه الدعوة إلى الله جلية:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝٤٥﴾ [مريم: 41-45]

عندها جاء رد الأب على دعوة ولده على النحو التالي، متوعدا إياه بالرجم إن هو لم ينتهي عن ذلك:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: 46]

لنطرح التساؤل الآن على النحو التالي: ألم يتوعد الأب أبنه بالرجم إن هو لم ينته؟

جواب: بلى

سؤال: إذن هل تتخيل – عزيزي القارئ- أن أب إبراهيم كان ينوي أن يرجم أبنه بمعنى أن يقتل أبنه بوضعه في حفرة ومن ثم إلقاء الحجارة عليه حتى يفارق الحياة؟

رأينا: كلا وألف كلا، فاللأب لن يستطيع أن يقتل أبنه بيده بتلك الطريقة (أي بوضعه بحفرة ورميه بالحجارة حتى يموت)، فكيف سيرجمه إذن؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نظن أن أب إبراهيم كان يخيّر أبنه بين أمرين وهما (1) الرجم (أي أن يحجر عليه فيمنعه من ممارسة عباداته حسب معتقده الجديد)، أو (2) أن يهجر الأبن أباه بترك الأرض التي يتواجد بها. وعندها يقرر إبراهيم (كما فعل أصحاب الكهف والرقيم) اعتزال القوم، فردد القول التالي على مسمع أبيه:

- ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾ [مريم: 47-48]

ولو راقبنا قصة الرجم في كتاب الله، لوجدنا أن أقواما كثيرين توعدوا رسلهم بالرجم:

- ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشعراء: 116]

وها هم قوم شعيب يتهددونه بالرجم:

- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ [هود: 91]

نتيجة: يمكن للرهط على قلتهم أن تمنع الرجم عن الشخص، فكيف يكون ذلك؟

السؤال: وكيف كانت السماء رجوما للشياطين؟

رأينا: لو دققنا في الآية الكريمة التالية لوجدنا أن السماء نفسها هي الرجوم، أليس كذلك؟

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: 5]

السؤال: فهل تقذف الشياطين بتلك المصابيح التي تزين السماء؟

جواب: كلا، وإلا لتناقصت تلك الزينة مع الزمن، وربما تنتهي ولو بعد حين

السؤال: وهل تقذف الشياطين بالسماء نفسها حتى ترجم؟

جواب: كلا، وإلا لانتهت السماء برجمة واحدة؟

السؤال: كيف تكون السماء رجوما للشياطين؟

رأينا: إن السماء هي المكان الذي يتم الحجر على الشياطين فيها، فنحن نعرف أن الشياطين متواجدون بين السماء والأرض بدليل أنهم كانوا يستطيعون استراق السمع:

- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩﴾ [الجن: 9]

ولكن ما أن نزل القرآن الكريم حتى أصبح من المتعذر عليهم استراق السمع، ولكن كيف ذلك؟

رأينا: لما كانت الشياطين متواجدة بين السماء والأرض كان لهم حدٌ لا يستطيعون الآن تجاوزه، فمن يتعدى ذلك الخط الفاصل (الذي يشكل الآن نقطة النهاية بالنسبة لهم) يجد على الفور شهابا رصدا. فالذي يقذف به الشياطين هو الشهاب، وهذا الشهاب يكون رصدا، لذا يجب أن نتخيل المشهد على نحو غير ما يمكن أن تشكله الصورة الذهنية الخاطئة، فقد يظن البعض بأن الشهاب الرصد سيضرب الشيطان الذي استرق السمع في رحلة العودة من الاستماع، وكأن ذاك الشيطان كان قد ذهب فاسترق السمع وما أن يعود من هناك حتى يكون الشهاب الرصد جاهزا ليضربه, فنرد على هذا التصور الخاطئ بالقول بأننا نتخيل الصورة بالطريقة المقابلة التالية: ما أن يرفع الشيطان رأسه في نيّة منه لأن يسترق السمع من السماء حتى يجد الشهاب له بالمرصاد، فالشهاب هو أصلاً رصدا (يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا) وذلك لأنه يتنبه – برأينا- للحركة بمجرد حصولها، ولا ينتظر حتى تحصل لتكون ردة فعله بعد أن يقع الفعل ويتحقق. لذا نحن نتخيل أن هناك حدا فاصلا بين السماء والأرض لو تم تجاوزه ولو بجزء من الجزء من السنتمتر الواحدة لتم استراق السمع من السماء، وقد كان تجاوز هذا الحد متاحا للشياطين قبل نزول القرآن، ولكن ما نزل القرآن حتى أصبح ذلك متعذرا عليهم بسبب الشهاب الرصد وليس بسبب رجوم السماء، قارن الآيتين التاليتين:

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾ [الملك: 5]
- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩﴾ [الجن: 9]

نتيجة مفتراة: يستحيل أن يتم قذف الشياطين بالمصابيح التي هي موجودة أصلا لتكون زينة للسماء الدنيا، كما يستحيل أن يتم قذف الشياطين بالسماء نفسها لأن السماء كتلة واحدة. وهناك كم هائل من الشياطين. ويتم قذف الشياطين بالشهاب الرصد، ولكن السماء نفسها تبقى رجوما للشياطين، لنطرح التساؤل السابق الآن مرة أخرى على النحو التالي: كيف تكون السماء نفسها رجوما للشياطين ونحن نعرف أن الشياطين تقذف بالشهاب الرصد؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل الأمر على النحو التالي: هناك في السماء نفسها أماكن كثيرة يمكن أن يتم الحجر على الشياطين فيها، لمراقبة حركتهم، فلا يستطيعون فعل ما يريدون. وبالتالي تكون الشياطين مرجومة فيها، وتكون السماء نفسها رجوما لهم.

افتراء خطير جدا: الرجم يكون إذن بوضع الشخص (وحتى الشياطين أنفسهم) في أماكن محددة لمراقبة حركتهم فلا يستطيعون القيام بما يريدون. وهذا هو مصير الشيطان الرجيم نفسه:

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 36]
- ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: 17]
- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: 98]
- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير: 25]

فالله قد طرد إبليس من الجنة بعد مخالفته الأمر الإلهي، وقضى عليه بأن يكون رجيم:

- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 34]
- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: 77]

لذا فهو تحت المراقبة على الدوام. فلا يستطيع القيام بتأدية شعائر دينية كالتي ذكرناها سابقا يمكن أن تثقل موازينه، وحتى لا يكون من المفلحين. لذا لو لم يكن إبليس من المرجومين لربما استطاع القيام ببعض الشعائر الدينية، فلا ننسى أن إبليس بالرغم من الخطيئة التي ارتكبها بمخالفته للأمر الإلهي إلا أنه لم يتخلى عن إيمانه بالربوبية:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: 36]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [ص: 79]

السؤال: ما دام أن إبليس يقر بالربوبية لله، فما الذي يمنعه عن تأدية بعض أعمال العبادة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب هو لأن إبليس كان رجيما بقرار إلهي:

- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 34]
- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: 77]

لذا، لا يستطيع بسبب هذا الحجر أن يقوم بأي طقس من طقوس العبادة التي يمكن أن تثقل موازينه وبالتالي ربما تؤدي إلى فلاحه.

إن هذا الطرح يقودنا على الفور إلى تقديم الافتراء الخطير التالي الذي هو بلا شك من عند أنفسنا والذي نظن أنه غير مسبوق.

افتراء خطير خطير من عند أنفسنا: هذا هو حد الرجم للزاني والزانية. إنه الحجر عليهما، ومراقبة سلوكهما الديني لإيقاع الأذى بهما فلا ثقل موازينهم ولا يكونا من المفلحين، ونحن نفتري الظن بأن فهمنا هذا يمكن تسويقه من خلال ما نفهمه نحن من صريح اللفظ في من السياق القرآني التالي:

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]

هذا هو – برأينا- حد الرجم الذي أوجعتم رؤوسنا بترداد لفظه على مسامعنا وإن لم تفهمونا ماهيته يا علماء الأمة، هذا هو الحد الذي جاء في كتاب الله عن ما يمكن أن يسمى بالرجم، والذي سمعتم خبره فلم تفهموا ماهيته، فحرفتم العقيدة قرونا من الزمن بأساطير وأوهام صنعتها بنات أفكاركم فصدقتموها وسطرتموها للناس في مؤلفاتكم التي لا نظن أنها تساوي ثمن الحبر الذي كتبت به. هذا هو حد الرجم الذي أمر به النبي الكريم بحق الغامدية، ولكن بدل أن تفسروا مفردة الرجم كما أمر بها الرسول الكريم أن يفعلوه بحق الغامدية، عدتم إلى قواميس اللغة التي صاغتها عقولكم الجبارة، وألزمت القرآن الكريم بها، بدل أن تلزموا قواميسكم ومؤلفاتكم بمعاني القرآن العظيم. فبدل أن تنقلوا ما في القرآن إلى قواميسكم اللغوية نقلتم ما في قواميسكم (بغثّه وسمينه) إلى القرآن، فظللتم عن جادة الصواب، وأظللتم الناس بروايات وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان.

فالرجم يا سادة هو – كما نفهمه نحن بالطبع- هو رجم المحصنة من النساء بإمساكها في بيتها (أي الحجر عليها) حتى يتوفاها الموت أو يجعل الله لها سبيلا، وهذا هو الحد نفسه الذي يمكن أن نفعله بمن جاء بذلك من الرجال:

- ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: 16]

فأين الحفرة التي يوضع بها المرجوم والمرجومة؟ وأين الحجارة التي ستلقى على رأسه ورأسها لتنهي به حياتهما؟ وما شكل تلك الحجارة وعددها؟ من يدري!!